hikmet

ESSAYS OF BOSNIA

أنس كاريتش
مقالات بوسنية

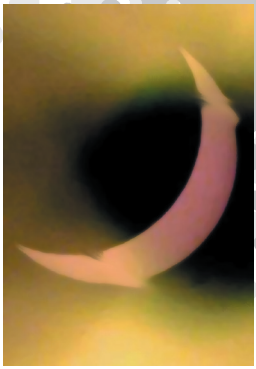

el-Kalem القلم
دار القلم
سراييفو، ٢٠٠٤م

المؤلف : أنس كاريتش
مقالات بوسنية
العنوان الأصلي : Essays of Bosnia
الترجمة : محمد قاطرجي ، صبحي وسيم تادفي ، أنس كاريتش
تدقيق الترجمة : نوركو كارمان
المراجعة اللغوية : أ.د . السيد عبد القادر
الناشر : دار «القلم» – البوسنة والهرسك
عن الناشر : سليم ياركوتش
رئيس التحرير : مصطفى برلياتشا
المحرر الفني : نوركو كارمان
مصمم الغلاف : طارق يسنكوفيتش
الإعداد الفني : دار «القلم»
الطباعة : مطبعة «بيموست» – سراييفو
عدد النسخ : ٢٠٠٠

CIP - Katalogizacija u publikaciji
Nacionalna i univerzitetska biblioteka
Bosne i Hercegovine, Sarajevo

821.163.4 (497.6)-4 = 411.21

KARIĆ, Enes

Maqālāt būsniyya / Enes Karić ; [muterdžim
Muhamed Katarji, Subhi Wassim Tadefi i Enes Karić].
Sarajevo : El-Kalem, 2004.
332 str. ilustr. ; 21 cm

Prijevod djela: Essays of Bosnia

ISBN 9958-23-161-1
COBISS.BH ID 132468268

Mišljenjem Federalnog ministarstva obrazovanja i nauke broj 02-15-6477/99 od 04. 01. 2000. godine knjiga Enesa Karića "Essays of Bosnia" je proizvod iz člana 18, tačka 10. Zakona o porezu na promet proizvoda i usluga - prečišćeni tekst - ("Službene novine Federacije BiH", br. 49/02 i 37/03), te je oslobođena plaćanja poreza na promet.

كلمة عن الألف

إن كل حروف العالم مبنية على خط، وخاصة القديمة منها. يكون هذا الخط في الغالب بوضعية عمودية مع إمكانية تواجده في وضعيات أخرى، وقد سماه الساميون بالألف. فأول حروف الأبجديات العربية والعبرية والآرامية... هو الألف.

ليس من الصدفة كون الألف في الغالب خطا عموديا، وكونه الحرف الأول. في الحقيقة إن كل حرف ألف، أو بعبارة أخرى فإن الألف يحوي في ذاته كل الحروف! فالألف، كما يقول المتصوفة المسلمون، خط التنبيه أمام الإنسان، الإشارة الأولى الموضوعة في أساس جميع الإشارات المرئية. يذكر القرآن الإنجيل أن الإنسان الأول وضع أمامه في الجنة حد بشكل الشجرة، أي بشكل الألف!

لم يكن مسموحا للإنسان الاقتراب من تلك النبتة، من تلك الشجرة، ولا أن يأخذ شيئا من ثمارها. ولكن، بالرغم من ذلك، عندما تجاوز الإنسان حدها، وعندما وجد نفسه في الأرض، تم اهداء الألف له وكل الحروف الأخرى المشتقة منه. كي تنبهه على تلك الشجرة الجنانية، على تلك الشجرة من رياض الجنة!

٢

إن شجرة الجنة تلك هي أول حقيقة دالة على وجود الإنسان في الزمان! وبعد ما جرى له عند الشجرة في روضة الجنة بدأ الإنسان في

احتساب الأيام والسنوات والقرون في الأرض وفي غيرها من المساحات السماوية القريبة منه. (هناك جزء من العالم نمشي فيه،وهو الجزء الأقرب إلينا ، وهناك جزء ننظر إليه فقط، وهو المكان الذي لم يقدر لنا الخطو عليه حتى الآن، وهناك جزء نتوق الى التحليق فيه فقط). لقد وضع في يمين الانسان القلم، ذلك القلم الذي هو ذاته يشبه الألف، والذي يقسم القرآن به، وبذلك القلم يكتب الإنسان الألف بوضعياته المتنوعة التي تذكره إلى يوم القيامة بالخطيئة، بانتهاك شرف تلك الشجرة! ربما لأجل ذلك فإن كل مايكتبه الإنسان ولقرون هنا على الأرض ليس الا تبريرا طويلا أمام الله سبحانه وتعالى.

ومع ذلك، فإن أول حرف في اسم أبينا الأول آدم هو الألف. وإن هذا ليس محض صدفة فكما يقول المتصوفة الإسلاميون: إن الله سبحانه وتعالى بأمره الحكيم منح الألف لاسم آدم من اسمه، ومن المعلوم أن اسم الله كذلك يبدأ بالألف! ولأن آدم أو الإنسان شاهد كبير على الله سبحانه وتعالى فإن هناك في اسمه الألف.

إن أول حرف في كلمة الإنسان أيضا هو الألف! يعتبر كثير من كبار علماء اللغة العرب أن أصل كلمة الإنسان هو «انس» بمعنى كائن النسيان، الناسي! فالألف هنا لتذكر الإنسان على البداية والمرجع. فذلك الألف يلزم ويحذر. ذلك الألف صلة بأعمدة الرحمة التي تغمر الإنسان من أعماق الزرقة السماوية!

٣

ذكر الغزالي (المتوفى عام ١١١١م) في أحد كتبه بأن أعجوبة حقيقية تحصل حين يميز الإنسان من الخطوط ويكشف من الحروف

والاشارات المختلفة المعاني والأفكار. فهذا هو الانفلاق اليومي للبحر الذي حدث أمام موسى عليه السلام وعصاه! فعند انبثاق المعاني من الخطوط، وعند ذوبان الحروف والأفكار، فهذا يشبه انفلاق البحر الأحمر أمام العصا التي أمسكت بها اليد الانسانية الدافئة لرسول الله موسى عليه السلام، وهو يقود قومه للنجاة والأمان والطريق المستقيم!

لقد رأى التصوف الإسلامي بعد الغزالي في الألف رمزا للواحد الأحد، الذي خلق كل شئ وهو لم يخلق، ولم يلد ولم يولد! وتتبين هذه الرؤية للواحد في النظام الرقمي: فكل الأرقام تخرج من الرقم واحد، فقد وهبهم رقم واحد سر وجودهم، وبقي كما كان هو في حقيقته،بقي النبع الذي لا ينضب في عطائه للحياة! لذلك فإن الشكل المرئي للألف مشابه للرقم واحد!

يرى العقلاء في كل شئ المستويات والأعماق فإن العالم لا يمكن الخوض فيه بطريقة سطحية مطلقا. إن تواجد الألف في جميع الحروف الأخرى، وتواجد الرقم واحد في جميع الأرقام الأخرى، يشبه العدد اللانهائي لمستويات العالم من التي يبلغها آدم والتي لا يبلغ.

إن أمامه دوائر (بالأحرى هي هلالج،كما يقول المتصوفة، لأن الإنسان لا يعرف المركز المادي للكون): إن إهليلج اللمس يحيط به إهليلج السمع والبصر، وإهليلج السمع والبصر يحيط به إهليلج العقل، و أما إهليلج العقل فيحيط به إهليلج الوحي، الخ. «...وفوق كل ذي علم عليم» (يوسف ٧٦).

إنك لا تستطيع لمس أي من خيوط شبكة العنكبوت دون أن تهزها جميعها، ولا يمكنك تحريك أصبع دون أن تحرك اليد، هكذا يقول جلال الدين الرومي. ليس بمقدورك نطق ولا حتى كتابة

الألف، دون أن تنطق أو تكتب جميع الحروف الأخرى في مبدئها!

الأمر هكذا، لأن الإنسان مكرّم بالمجموع، ومفضل بالمجموع، وسيكون مسؤولا بالمجموع. فيوم الحساب كما يقولون هو المرحلة اللاحقة ليوم القيامة، عندما يخرج الناس من قبورهم، أو من أعماق البحار إذا كان تحطم السفينة قد أماتهم، أو من الهواء إذا كانوا قد أحرقوا في المحرقة، أو تم اشعالهم ربطا بالوتد، ويقفون جميعهم مثل وقوف الألف.

إن الألف يذكر بيوم القيامة! فويل للذين يزحفون في الأرض زحفا سطحيا غير مبالين بالمجموع وهم يعلمون!

٤

كان يجلس في قصور الحكام والخلفاء المسلمين من زمن ألف ليلة وليلة من بين الآخرين مجموعتان من الناس: أصحاب القلم وأصحاب السيف! وكل من القلم والسيف لهما شكل الألف، وتمسك اليد الإنسانية الدافئة بالأول والثاني. القلم يُسيل الحبر والمداد! والسيف يسيل الدماء! والأفضل عندما يرفع القلم رأس العدالة بدلا من السيف. ومع ذلك، فإن قيمة مداد العلماء تساوي قيمة دماء الشهداء المسكوبة في أطراف العالم الكثيرة.

عندما أمسكت بالقلم فإنك لا تدرك أنك ممسك بالسيف في كثير من الأحيان! من الأفضل أن تسطع شمس العلم والايمان والقلب والعقل من الكتب المدونة بالحبر والألف، كما أنه من الأفضل أن نشاهد في بريق السيف شعاع الشمس!

إن السيف المدمى لا يهب أي بريق!

الأرض للأرض

عندما اقتضت حكمته جل علاه خلق الانسان، أرسل سبحانه جبريلا (عليه السلام) الى الأرض ليُحضر شيئا من غبارها الذي سيتم منه خلق الإنسان. ولكن الأرض منعته (عليه السلام) من جلب الغبار، خشية من قيام هذا الكائن الجديد بسفك الدماء وإثارة الفساد. وعندما عاد جبريل (عليه السلام) غير منجز لمهمته، أرسل الله سبحانه الملكين ميكائيل وإسرفيل الواحد تلو الآخر لنفس المهمة لكن دون جدوى فالأرض تأبى أن تداس بقدم هذا القادم الجديد المتجبر. فأرسل الله في النهاية ملك الموت عزرائيل (عليه السلام)، الملك الموكل بقبض الأرواح.

انتزع الملك من الأرض في النهاية بعض الغبار والطين قائلا لها:

«أيتها الأرض، لا امتناع ولا اعتراض! فأمر الله نافذ! وما أخذ منك في لحظة سيعود إليك في كل لحظة! وهذه سنة الله في خلقه والله يفعل ما يريد.

قبض الأرواح

عندما كنت طفلا حكى لي والدي الحاج أمين أفندي كاريتش ـ رحمه الله ـ حكاية من الحكايات الواردة في بعض تفاسير القرآن الكريم لم تهبني ظروف حياتي فرصة فهمها الصحيح إلا بعد ما أصيبت به سراييفو والبوسنة من مصائب الحرب في أعوام ١٩٩٢ و١٩٩٣ و١٩٩٤ و١٩٩٥... فقد حكى لي أن في الكتب الاسلامية شهادة لملك الموت عزرائيل، حيث سئل عزرائيل: ماذا بإمكانه أن يقول عن قضية نسيان الإنسان للموت، وعن جهله بما قدر له الله سبحانه وتعالى من مصير! وبما أنه ولمدة طويلة يقبض أرواح البشر، ولأنه يقوم بهذا بشكل دائم مع الأطفال والشباب، والفتيات الحسناوات، والعجائز من البشر ذوات الأجساد المنهكة والنحيلة، فقال:

فيما كنت أقبض الأرواح، وهو عمل أقوم به في كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة بل وفي كل ثانية، مررت بحالات ثلاث، ضحكت في إحداها وبكيت في الثانية، وخفت في الثالثة. أما الأولى فكانت عندما هممت بقبض روح رجل وهو في دكان للأحذية يرجو صانع الأحذية ليصنع له حذاء رائعا يستطيع انتعاله سنة واحدة على الأقل دون أن يتمزق ! هذا ما أراده ذلك الرجل وهو لا يدري أنه سيخرّ ميتا بعد بضعة دقائق. أما بكائي فعندما حملت احدى الأمهات طفلين ذكرين لها، حتى إذا بلغت إلى نهر هادر لم يكن

باستطاعتها العبور بهما مرة واحدة، فقررت ترك أحدهما لبرهة على الضفة الأولى. وبعد أن عبرت مع ولدها الثاني الى الضفة الأخرى وهمت بالعودة الى ولدها الآول اعترضتها موجة ماء عاتية، فقبضت روحها و أنا أبكي لأجل الطفلين اللذين قدر لهما أن ينفصلا.وأما الخوف فقد دب بي عندما وصلت إلى قائدين عسكريين عظيمين أمرت بقبضهما في لحظة واحدة وهما يقاتلان بعضهما البعض. فعندما اقتربت منهما لأداء واجبي، انقض أحدهما على الآخر انقضاضا أرعبتني شدته. وأخبرت من الملائكة بعد ذلك أن القائدين العظيمين كانا في الحقيقة شقيقين، وهما بالأحرى الولدان اللذان بقيا على الضفتين المنفصلتين لذلك النهر...

كثيرا ما كنت أتذكر تلك الحكاية أثناء القصف العنيف لمدينة سراييفو. وأعتقد أن لدى الملك الكريم -عليه السلام - حكايات جديدة كثيرة يستطيع روايتها بعد ما جرى في سراييفو من أحداث دامية...

كتبت أول مرة عام ١٩٩٢م.

وكنت أبدل التأريخ فقط في كل سنة تالية.

اتهام الإنسان

يحكي إخوان الصفا في رسالتهم عن الحيوانات، والمدونة قبل ألف عام، حكاية مثيرة. في احدى الجزر الواقعة في عرض البحر الأخضر قرب خط الاستواء، كان يعيش بوئام عدد هائل من الحيوانات: زواحف، أسماك، ضفادع، حشرات، وحوش، عصافير... وتمطر السماء عليها بشكل دائم، فتروى بقطراتها النباتات المتنوعة فيها، التي انحنت أغصانها من ثقل ثمارها الطازجة. كانت تربة الجزيرة خصبة، تتوزع فيها المعادن والرطوبة بتناسب. عاش الجميع هنا بصداقة وسلام أعواما كثيرة: الجزيرة والنباتات والحيوانات، واحدى فرق الجن التي طردها البشر من احدى القارات المجاورة...

ولكن، وفي ذات يوم هبت رياح عاصفة مفاجئة، أرغمت بعض السفن بالرسو على شواطئ تلك الجزيرة. وصل مع السفينة عدد كبير من البشر، فيهم العديد من التجار والمهنيين والعلماء والأثرياء. وجدوا أن هذه الجزيرة مفيدة بأرضها وثمارها، وغنية بالنباتات والحيوانات. قطعوا الكثير من الأشجار وبنوا منها أماكن لسكناهم، ثم ابتدؤوا بمطاردة الحيوانات ونصب الكثير من الشباك والفخاخ لصيدها.

دهشت الحيوانات بداية من هذه الطريقة التي تعامل بها الإنسان، فاتخذت قرارا بالشكوى الى ملك الجن، باعتباره ممثلا لجنس من الكائنات الحية المحايدة في هذه القضية، علّه يكون منصفا ويقضي بالعدل.

مقتدر لكن بلا مخالب

سرعان ما ابتدأت المرافعة، وقف الجنس الحيواني بأكمله أمام القاضي الجني شاكيا الإنسان وموضحا السبب، علما بأن غالبيتهم يقيم بعيدا عن مساكن البشر. نعم، فالإنسان بدون مخالب، لكنه يجيد صناعة السيف،كما قالت بعض الحيوانات؛ ومن الصحيح عدم امتلاكه سرعة جري فائقة، لكنه روض الخيول والكلاب ليتمكن بواسطتها اللحوق سريعا بالحيوانات الأخرى، قالت ذلك طائفة أخرى من الحيوانات وأضافت مبينة أن الإنسان هو المذنب الرئيسي في إثارة العداوات بين الحيوانات نفسها أحيانا. حتى أن بعض الصفات الذميمة للإنسان قد انتقلت الى الحيوانات، كالجشع والطمع وتكيس المؤن والخنوع. حكت الحيوانات للقاضي الجني عن خجلها من علاقة عبودية الكلب للإنسان، وهزه الذليل لذيله رجاء حصوله على قطعة عظم من جسد إحدى الحيوانات التي اصطادها الإنسان بواسطة استغلاله مقدرة الشم والجري للكلب نفسه... واشتكت الحيوانات بشكل خاص من الحصان، باعتباره حيوانا نبيلا لأنه سمح للإنسان اعتلاء ظهره لهدم وتدمير ممالكهم في جميع أطراف العالم... وعبرت الحيوانات الأليفة عن استنكارها على الإنسان سرقة جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها... مع ذلك فهي تدرك بأن الإنسان من غير ريش وصوف وحراشف وفرو، ولكن كونه هزيلا وعاريا وحافيا لا يوجب عليه أن يصبح جشعا وخطيرا وقاسيا!

أما النحلة فإنها اشتكت أخذ الإنسان كل ما تحصل عليه، وتحقيقا لذلك يشعل الإنسان أحد أنواع الاعشاب ومواد أخرى

ليدوّخ النحل ليتمكن الوصول الى الغنيمة دون عناء. واشتكت الحية سرقة الإنسان لسمّها ليضعه في خاتم يمكنّه من صبه في قدح خمر يسمم به عدوه... اشتكت دودة القز أيضا الإنسان لسرقته خيوط الحرير «إن الإنسان لا يحترمنا مطلقا عند قيامه بسرقتنا، علما بأنه عاجز عن صناعة الحرير بدوننا» كما قالت دودة القز.

هكذا وبتسلسل مشابه توالت الشكاوى ضد الانسان.

وردا على سؤال القاضي الجني ماذا يوجد من أقوال عند الإنسان ردا على هذه الاتهامات وغيرها التي ترافعت بها الحيوانات، أجاب الانسان:

إن البشر سادة والحيوانات عبيد لهم. وقال كيف أن الآيات المقدسة للإنجيل والقرآن تشهد على أن السيادة على الأرض وخلافتها من نصيب الإنسان كما هو مختوم في الأمر الالهي.

صاحت الحيوانات بصوت عال ردا على ذلك قائلة: وكيف ذلك، أي أنه ليس صحيحا بأن الله سبحانه قد خول الإنسان بالتحكم في رقاب الجميع على كوكب الأرض. ثم لجأت الحيوانات إلى أحد الأدلة اللغوية: إن فعل «سخّر» الوارد في القرآن الكريم والذي يفتخر الإنسان به ويستدل به على سيادته، يعني الاستفادة من الأشياء المسخرة لنا ولكن لصالح جميع الأطراف. وأضافت الحيوانات قائلة كيف أنه تم استخدام الفعل نفسه أصلا في سياق النص القرآني عن تسخير الشمس والقمر للإنسان، وكذلك النجوم المتلألئة أرجاء السماء ليلا، والأمر يتعلق بالتسخير المتبادل لمصلحة الجميع. «فأي حكيم يستطيع مجرد التفكير بأن الشمس

والقمر والنجوم المتلألئة ليست سوى متاع للإنسان؟!» تساءلت الحيوانات باستغراب.

تتابع النقاش شديدا بعدها. ذكر الإنسان المكر ورجاحة عقله كدليل على تسيده، لكن الحيوانات ردت بأن هذا الدليل ضد الرجل وليس في صالحه، هذا يعني أن امتلاك العقل هو فرصة للتعرف على كيفية تعويض المفقود وتجاوز نقصه الإنساني. «فنحن لسنا بحاجة إلى العقل أصلا، لأن لباسنا ينبت من أجسادنا، فلسنا بحاجة إلى تعلم الحياكة والغزل والتفصيل والخياطة...» وصاحت الحيوانات. «طعامنا جاهز في الوسط الذي نعيش فيه» وأضافت الحيوانات «لسنا بحاجة إلى مدارس الطبخ ولا المتاعب المحيطة بالنار، ولا الشوي ولا طحن الحبوب!»

إن متابعة سرد هذه الحكاية المثيرة ستأخذنا بعيدا عن موضوعنا، والتي كتب عنها في الغرب فقط أكثر من مائة بحث في السنوات الخمسين الأخيرة، وقد ترجمت إلى كل من اللغات الألمانية والانجليزية والروسية والفارسية... وحتى أن الكثير من الباحثين أمثال: نصر وشون ومارغيت وكوربين وغودمان وآخرين.. لفتوا الانتباه إلى الواقع البيئي لجميع الرسائل في عصرنا الذي انكسرت فيه سلاسل التعاون الطبيعي في الكثير من الأماكن.

لهذا، يؤكد إخوان الصفا بأن الإنسان الطبيعي (أهل الوبر) أو حسب رأي ابن خلدون (وبعد قرون عديدة)، كلا من الإنسان البدوي والقروي ليسا عدوين للطبيعة. بينما نشأ الإنسان الطبيعي في بيئته الطبيعية التي لا تسعى إلى التمدن، وجعل العالم متمدنا ! الرجل المتمدن من (أهل المدن)، رجل المدينة، فهو يخل بالتوازن الطبيعي، كما يؤكد إخوان الصفا.

في العديد من المشاهد المذكورة في الرسالة آنفا، تنكر الحيوانات على الإنسان موقع الصدارة في الأرض. الصفة الأساسية لرسالة إخوان الصفا هي نقض نظرية أن الإنسان مدار الأرض، يدلل إخوان الصفا على فرضيتهم بالنقص الطبيعي للأعزل الذي يمشي على قدمين. في الوقت الذي تغسل فيه أمطار السماء الحيوانات للمحافظة على جمالهم ونظافتهم، يترتب على الإنسان بناء الحمامات، وها هو يلف أطفاله بالحفاضات مانعا مطر السماء من تنظيفهم. «إن الإنسان وسخ بشكل عام» كما تؤكد الحيوانات.

المخل بالتوازن

حسب قول إخوان الصفا، الطبيعة هي لباس للروح الدنيوية أو الكونية. نسجت الطبيعة بأكملها بخيوط أمومة لامرئية. المثير في هذه الرؤية تكرار أحد النصوص بأشكال مختلفة في موسوعة إخوان الصفا والذي نصه: المعادن هي أمّ النباتات، النباتات هي أمّ الحيوانات، الحيوانات هي أمّ الإنسان... وليس بمقدور أية من هذه المواقع في هذه التنظيمات الحياتية البقاء مستقلة بمفردها، كما يقول إخوان الصفا. بإمكان الإنسان فقط في بعض الأحيان زعزعة هذا التوازن الطبيعي لأنه متغطرس، جشع ودموي.

لم تنظم الطبيعة فقط لأجل النشاط الداخلي والمستقل للكائنات الطبيعية (كالمعادن والنباتات والحيوانات...) فالكائنات الطبيعية بذاتها لا تعني أي شيء. كل ما يمثلونه هو، بطريقة محددة ما ناشئ من الكل، من الله، كما يؤكد إخوان الصفا. فلا يوجد أي

تنظيم حياتي، ولا أي جنس من الأجناس قادر على المباهاة بأي من صفاته الشكلية أو السلوكية، وكذلك لا يستطيع الإنسان المباهاة بعلومه ومعارفه. (سبق إخوان الصفا في الكثير فرضيات شيلر وغيلين عن الدور السامي للمؤسسات البشرية والثقافة التي تعوّض بشكل عام نقص وعجز الهزيل الماشي على قدمين).

يختم إخوان الصفا، كما ختم مايمونيدوس بأن الإنسان فقط يستطيع زعزعة توازن الطبيعة باعتباره آكل لكل من النباتات والحيوانات، لذلك فهو عنيف في طريقة إخفاء عجزه.

مع ذلك، فهناك مقتطفات في الرسائل الأخرى لموسوعة إخوان الصفا التي تشير بأن الإنسان يحمل أعمق أثر لتناسق الطبيعة. وضعه المستقيم إشارة إلى الرغبة الطبيعية بالخطو عبر الإنسان إلى عالم الروح. ومن المدهش أن إخوان الصفا لم يقدموا بذلك للإنسان موقعا متميزا أو موقعا مركزيا على الأقل، بل إنهم رغبوا النظر إلى النوع البشري في إطار التعاون البشري، كما هي نظر تهم على سبيل المثال إلى النخلة أو حتى الحلزون. حاول إخوان الصفا بلطف أن يكتشفوا في جنتهم التناسق والتناغم بواسطة «اكتشاف» ما يسمى الصلة السرية بين بعض الأجناس والأنواع. فهكذا وصفت النخلة بأنها (حيوان نباتي)، والحلزون (نبات حيواني). ففي الطبيعة حسب وصف إخوان الصفا لا يوجد انقطاع أو عدم استمرارية أو تنافر يفصل بعض التنظيمات الحياتية عن بعضها، أو الذي يلغي التعاون الطبيعي.

لذلك فإن تناسق الإنسان إنما هو حلقة في السلسلة التي تربط بين الطبيعة والسماء.

بم يخرج الإنسان أمام الله عز وجل عام الألفين

يقول أهل العلم والمعرفة إن أول خطوة لفهم أي وجه من أوجه الزمن هي فهم الأحوال الجوية.

عندما نستمع إلى صوت هطول قطرات المطر على نوافذ وأسقف المنازل، أو نشاهد المطر وهو ينهال على الأرض الجافة العطشى، أو نطأ على الأوراق المتساقطة من الأشجار بعد العاصفة، يستيقظ فينا شعاع من معرفة حزينة، وهذا الشعاع لا يوقظ فينا معرفة الفناء فحسب وإنما هو عداد لقياس الفناء ذاته.

مع أن الأحوال الجوية ليست وجها وحيدا للزمن المقدس إلا أنه، وبغض النظر عن كونه متوحشا وجامحا وخبيثا في كثير من الأحيان، هو وجهه الأظهر.

إن رب كل وجه من أوجه الزمن، بما فيها الأحوال الجوية، هو الله سبحانه وتعالى وهذا لا يحتاج إلى أدلة كثيرة، فلا يزال صوت الرعد من السماء هو أقوى الأصوات المدوية في الأرض ولا يزال سنا البرق، إضافة إلى ضوء الشمس، هو أقوى الأضواء فيها. وإنه لمن حسن الحظ أن الأحوال الجوية والزمن المقدس وغيره من أوجه الزمن ليست مشروطة بمشيئة الإنسان.

إن ما أوتي به الإنسان فيما يتعلق بالزمن هو حسابه. فالشمس والقمر هما كعقربي الساعة في محيط السماوات، ينتج في عالم الإنسان عن مشوارهما في فلكيهما المحددين في السماء ما نسميه بالأيام والأعوام والقرون والألفيات.

بالطبع، كان الإنسان سعيدا حين كانت الأحوال الجوية وجها وحيدا من أوجه الزمن التي ذاقها. ولكن، هل سبق للإنسان إطلاقا العيش في العالم فقط بوجه واحد من الزمن؟ إذا كانت هناك مثل هذه البشرية فقد كان للإنسان فيها تصور الزمن كنوع من تعاقب الأيام والأشهر والأعوام، أو كنوع من الدائرة لطلوعات وغروبات الشمس والتي كانت تفصله عن آخر حادث من الأحداث الخارقة من أمثال الفيضنات والسيول والقحط.

إلا أنه لا يجوز لنا أن نسمح لأنفسنا السذاجة والتصديق أن الإنسان كان بحتسب الزمن منذ الطوفان فقط، فالإنجيل والقرآن يشهدان أن الإنسان لم يكن على درجة كافية من الحكمة حتى يتمسك بشيء كهذا.

أخذ الإنسان يحتسب الزمن بتاريخ اندلاع الحروب والمعارك والغزوات والانتصرات وسقوط المدن والدول... فإن أغلب تقاويم الزمن أسستها البشرية عقب حادث من الأحداث التي كثر فيها سفك الدماء وزرع العظام في الأرض والتهجير والتشريد... ولذا فلا يعجب أن عرب الجاهلية شبهوا الحروب أيضا بالزمن، إذ سموها بالأيام (أيام العرب). إلا أن العرب ليسوا متفردين في ذلك، فقد كان الإغريق فيما قبل المسيح على العادة نفسها في تقويم الزمن، على أنهم كانوا يسمون الكثير من معاركهم بأسماء الأماكن التي جرت فيها (من المعارك التي ذكرها هيردوت معركة سلامينا ومعركة أرتميزيا ومعركة ميلت...). ومما نلاحظه في المؤلفات التاريخية القديمة أن الزمن يجري في الأرض في طريق كانت فيه الكثير من المعارك والحروب الثورات محطات له.

إلا أن العرب والإغريق، وهم من أمجد أحفاد الإنسان الأول ومعلمو الإنسانية، كانت لهم فترات قصيرة من السلام كذلك. فقد كان القتال عند أولهم أثناء الحج في مكة وعند ثانيهم أثناء الاحتفالات والألعاب الألمبية ممنوعا، بل أنه كان يعتبر عارا.

في حقبة الألفي عام المنصرمة من عمر البشرية أي منذ عهد سيدنا عيسى (عليه السلام) إلى يومنا هذا ظل المسيحيون والمسلمون يسيطرون على الساحة. فكلاهما كانت له صولاته وجولاته في الساحة الدولية، بل وحق الفيتو في العالم!

تحوي فترة الألفي سنة هذه على تقويمين مقدسين للزمن: التقويم المسيحي وقد بلغ من العمر ألفي سنة، والتقويم الإسلامي وهو في العقود الأولى من القرن الخامس عشر من عمره!

كان على المسيحيين في فترة الألفي سنة هذه، كما كان على المسلمين منذ عام ٦٢٢م، أن يقوموا في الأرض بنشر التاريخ المقدس، كان على أولهم أن يفتحوا على صفحات التاريخ المقدس في الأرض عصر المحبة وعلى ثانهم عصر العدالة. وفعلا فقد تمكنوا في كثير من الأحيان من القيام بذلك، إلا أن كليهما، المسيحيين والمسلمين، أخذوا، مشيا نحو اليوم، يتصفحون صفحات التاريخ المقدس مخالفين أكثر فأكثر ذلك الزمن المسمى بالتاريخ العلماني أو بمعنى مبسط التاريخ المجرد.

ولكن الحق يقال إن المحبة والعدل ما كانا لينشرا في الأرض من دون السيف، فقد قال سيدنا عيسى عليه السلام (ما جئت لألقي السلام بل السيف)، وقال الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام (بعثت بين يدي الساعة بالسيف).

إذا كان القرآن والإنجيل يعترفان بالسيف لا يعني هذا بأي حال أن المسيحية والإسلام هما الذان اكتشفا الحرب!

نظرا إلى أن الحرب مغروسة في أعماق قدر الإنسان فقد كان من مهام هاتين الديانتين أن تقرباها ما استطاعتا من بعض سنن المحبة والعدالة والأحكام والبروتوكول...

ولذا فقد تم إقرار السيف كحد ومقياس معقول وعلامة من علامات التاريخ المقدس. ويا لسعادة الإنسانية لو ظلت عند سيف عيسى ومحمد عليهما السلام!

وعموما فإن السيف من أعز وأشرف الأسلحة التي استعملها الإنسان حتى اليوم، لأنه يسهل للجميع الحصول عليه لما حبى الله به الأرض من مناجم للحديد منتشرة في أرجائها.

ونظرا إلى ما ألم بنا في القرن العشرين من الشر والمآسي يكاد بإمكاننا أن نقول بأن السيف سلاح إنساني وأخلاقي. فللقتل بالسيف لا بد من أدنى حد من الشجاعة ولا بد من تجمع القوة والذكاء ولا بد من الاقتراب من الخصم على مد اليد حيث يصبح بالإمكان رؤية وجهه وسماع صوت خشخشته وذكر نظرته الأخيرة... وقد يؤدي هذا المنظر إلى ندامة القاتل على فعلته!

وذلك أن المسافة بين القتال بالسيف وبين المصالحة والمصافحة ليست كالتباعد بين القارات، فتلك المسافة لا تزيد عن طول سيف!

فلعلنا في الألفية الثالثة لميلاد المسيح عليه السلام نعيش في سعادة ووئام إذا جردت المسيحية والإسلام البشرية من جميع أنواع الأسلحة وأعادت إليها سيفها القديم!

وأما في حالة عدم توفيقهما في ذلك فيكون مستقبل البشرية فظيعا للغاية.

ضيم الزمان

يعيش الإنسان اليوم ناسيا أكثر فأكثر أوجه الزمن التي تتلقى عن طريق العين والأذن والعقل من صفحات الإنجيل والقرآن وتقرأ من عقارب الساعة السماوية ومن وراء آفاقها الزرقاء والأعماق البعيدة لها.

ففيما يخص الزمن، فإن الإنسان اليوم في تقويم زمني شبيه بالسلسلة المؤلفة من الوحدات الزمنية العشرية والمئوية والألفية.

و أما فيما يخص المساحة، فالإنسان اليوم في الجزيئات والذرات والنيوترونات...

إن التقاويم الزمنية التي قدمها العلم الحديث لا ترجع إلى ولادة الأنبياء والمرسلين ولا إلى هجراتهم!

إن عد الزمن بالوحدات العشرية والمئوية والألفية وحساب المادة بالجزيئات والذرات والنيوترونات قد وضعا الإنسان في وسط ظواهر لا ترى بالعين المجردة ولا تسمع بالأذن المجردة ولا تفهم بالعقل المجرد ولا تتحسس بأصابع اليد...

إنه قد تم اكتشاف أزمنة مرهبة مدوخة والتغلغل في ساحات مجهولة لا يمكن شق أي طريق آمن فيها.

إن عصر الاكتشافات العلمية الحديثة هو في الحقيقة عصر حجب عالم الطبيعة وجمال آفاقه. إن العلم الحديث خال من الصلاة، خال من التاريخ المقدس والجغرافية المقدسة، والدنيا في هذا العلم لا تدل على أي شيء - لا تدل على الله عز وجل ولا على الآخرة.

بعد كل ما تعلمته من معادلاته لا تجد نفسك في حاجة لرفع يديك نحو السماء!

عندما اختصر العلم الحديث معرفة الماء إلى معرفة معادلته الكيماوية ومعرفة الأرض إلى معرفة مكوناتها الكيماوية التي تتكون منها ومعرفة الرعد إلى معرفة سحبه المكهربة... عندها انخفض الإنسان إلى مجرد آلة من دون روح، من دون نفس، من دون الحياة الآخرة.

وبهذا السبب تحولت في القرن العشرين معاهد التعليم والجامعات وأكاديميات العلوم إلى أماكن تصميم غرف الغاز القاتل والمعتقلات الجماعية والتطهير العرقي...

إن العلم الحديث قد طبع وجند الكثير من هؤلاء الذين لم يعودوا يكترثون بلمعان القمر الفضي على قمم الجبال واحمرار الأفق عند مغيب الشمس بالغروب وتلاطم الأمواج عند الشواطئ الصخرية...

العلم الحديث يقرأ العالم باتجاه: الكون - الفوضى - الجحيم، في حين أن الإنجيل والقرآن يقرئان العالم باتجاه: الفوضى - الكون - الجنة!

نظرا إلى ما اقترفه الإنسان من الشر في القرن العشرين، فليس هناك شيء نعلق به آمالنا فيما بعد العام الألفين.

وأما إذا تمسكنا بأسباب الأمل والتفاؤل الذي علمنا إياه الإيمان بالله، فإن الكثير من الناس فيما بعد العام الألفين سيموت أيضا موتا طبيعيا!

اللهم يا عزيز يا جبار انعم على البشرية في الألفية القادمة بالولادة بطريقة طبيعية!

جمال الموت

إن الموت في الثقافة الإسلامية لم يأخذ قط معنى أمر مقزز ومرعب. أما الإسلام ذاته فقد كان الكتّاب من المسلمين التقليديين يصفونه بأنه فرحة الحياة، تمجيد الحياة، ابتهاج لا يتناهى لدورة الحياة المرئية وغير المرئية. وهكذا فمما نجده في المنمنمات الفارسية من النصف الأول للقرن الثامن الميلادي (القرن الهجري الثاني)، أن الموت تم تصويره بشكل بوابة مزخرفة تكاد لا تلحظ. وعلى كلا طرفي البوابة تجري الحياة نهرا أخضر مزرقا وغير ذي قعر، يجري في جميع الاتجاهات، وقطراته تنفر بعيدا للأعلى، نحو العمق اللامحدود لزرقة السماء... قال نقاد هذه المنمنمات مؤخرا إن بوابة الموت هذه، والتي تكاد أن لا تلحظ، شبيهة بجسر اشرئب للحظة وبطريقة ما إلى ما فوق النهر، بحيث يمكن القول دون خوف كبير من الخطأ، بأن ذلك الجسر في الحقيقة ليس إلا رغوة مؤقتة للنهر نفسه نتجت عن اصطدام موجتين له!

في الحقيقة لا يوجد في العلوم الإسلامية ما يسمونه في الغرب «علم الموت» وحتى إذا وجد فإنه علم يناقض نفسه! نلاحظ ذلك في الكثير من الرسائل عن الموت والولادة، هذا الموضوع المثير الذي استهلك الكثير من المداد ولفافات البردي. يقول أحد المجهولين البغداديين، نهاية القرن التاسع الميلادي، المدعو بالبغدادي، وهو يفسّر الآية القرآنية الشهيرة التي تتحدث عن

تجمع أرواح البشر قبل الخلق حيث أكدت أمام الله سبحانه بأنهم مخلوقاته، وأن الله هو الرب الأوحد، يقول إن الإنسان كائن دهري بكلا الاتجاهين، اتجاه الأزل واتجاه الأبد، وبالطبع فليس دهريته تلك بمعنى الدهرية الإلهية، ولكن بمعنى تطلعه المزدوج إلى الدهر. الأول، تطلعه إلى ما قبل الزمن، أي قبل تخلقنا الإنساني في رحم الأم والذي نصل إليه حسب الشروح القديمة للنصوص المقدسة من ظهور آبائنا، والجميع من ظهر أبينا الأول آدم عليه السلام، والثاني، تطلعه إلى ما بعد زرعنا في القبور. (المسلمون والبوذيون وبعض أتباع النصرانية يغسلون أمواتهم، إذ أن الميت حين إرقاده في الأرض يجب أن يكون طاهر البدن واللباس والوجه!).

ويقول صاحبنا البغدادي: إن قذف المني وسقوط قطرة منه على الغشاء الحار للرحم ـ لا يعني فقط بداية الحمل للكائن الجديد واتحاد تلك الروح الدهرية مع هذه المادة الأرضية، بل نستطيع القول أنه نزول الروح الى موقع نوع من الموت، والذي في الحقيقة هو الحياة. إنه لا تغلب علينا عادة تشبيه رحم الأم بالقبر في أمنا الأرض، إلا أن ذلك الأمر ذاته هو ما أراد قوله والاشارة إليه كاتبنا المجهول، إذ يقول: إنكم موضوعون في الرحم مثل وضعكم في القبر، ويتم القرار لكليهما من دون الإرادة من قبلكم، فإما أن تم قبلكم وإما أنه سيتم بعدكم... إن الأول والثاني هما مدخل لحياة واسعة جديدة، لطلوعات جديدة للشمس... أنتم لا تؤمنون بهذا! ها أنتم الآن لا تؤمنون بوجود العالم الآخر، وبذلك تؤكدون بأنكم في مستوى ذلك الجنين البشري، العلقة بلا شكل! واذا أتيحت لكم فرصة الهمس بطريقة ما الى ذلك الجنين بأنه سيولد، وبأنه سينظر الى النجوم وهي تحلق في الأفق اللامحدود

للسماء، وبأنه ستنشأ منه وبسببه أجنة جديدة ـ لو تمكنكم من إعلامه بهذا، فما كان ليصدق! وذلك لأنه مثبت بذلك الحبل السري، تماما كارتباطنا بالعديد من الحبال السرية ورسونا على هذا العالم! ويتسائل صاحبنا المجهول: كيف ستحس بتلك الحبال السرية الكثيرة؟ ثم يجيب: عندما تنظر إلى أصيص الورد فإنك ستكتشف الجمال، وعند نظرك إلى فتاة حسناء، أو عندما تنظر فتاة حسناء إليك أيها الشاب الوسيم، فإن نظرة الجمال تلك تحدث عبر واحد من تلك الحبال السرية الكثيرة الأشكال. لكن، في كل مرة تشعر فيها عدم رؤيتك للجمال في الجمال، والماء في الماء، والحياة في الحياة... فاعلم بأنك واقع في شباك الحبال السرية تلك!

يسرد كاتبنا البغدادي بعدها أبياتا من شعره المنظوم ـ كما يقول ـ في لحظات الوجد، التي تعرف فيها بجلاء على الحبال السرية لهذا العالم، وعندما التزم بحبل الله:

فأية بذرة عند بذارها لا تنبت؟! إذا، لماذا الشك في بذرة الإنسان؟!

ثم يتابع بعد ذلك، كيف أنه من المفيد أن ينظر الرجل إلى بذوره في كفه، وهذا ما يطالب به القرآن الكريم من الانسان كذلك! أيها الإنسان، انظر إلى بذورك، وشاهد هل أنك حقيقة ترى؟! فبذور الياسمين والخزامى مثلا، تحمل في طياتها زهور المستقبل في الربيع، والألوان التي لا تراها العين، والتي تطل يمنة ويسرى... فيوجد الكثير من هذا هناك، وعلينا بذل جهد لدعوة ذلك الى هنا، وغالبا ما نكون شهودا على ذلك بسهولة. ويقول

البغدادي: في المنام مثلا، عندما ترتخي الحبال السرية لهذه الحياة الدنيا، كثيرا ما نرى زيارة فتاة حسناء لنا، أو أن الفتاة النائمة ترى زيارة شاب لها. فلا تقل أنك لم تر ولم تذق ولم ترتو في المنام، ذلك أنه:

لله كنوز كثيرة مخفية حتى على العقلاء يصعب إدراكها!

بعد هذه الكلمات من مقالة صديقنا البغدادي، ندرك كيف أنه لا يمكن معرفة لحظة حدوث الحمل حقيقة، تماما كعدم معرفة وقت الموت المحتوم، إذا كان هناك موت أصلا! عند العارفين بالقوانين أجوبة لا تروق لصديقنا، ربما لأنهم يتركزون على ما هو جسدي. (ومما يجب القول هنا أن الجسدي عند كاتبنا هو روحي أيضا، هو روحي في منزلة أدنى، درجة بطيئة ومرة للروح التي هي حجاب لا يتحرك بنفسه، وإنما يجب إزاحته أو حتى تمزيقه مثل إزاحة الحجاب عن العروس في الليلة الأولى لزفافها.) لأنه كما يقول بغدادينا، لا أحد يعلم لحظة الحمل، سوى الله سبحانه وتعالى على كل حال! ومن الصواب القول كذلك أن الحمل حدث في روحي الزوجين، فبالنظر التقت روحاهما، وكل ما تبع ذلك من أعمال الجسد ليس في الحقيقة سوى نتيجة. لأنه حسب قول البغدادي المجهول:

ليس القفاز ذلك الذي يمسك، بل هي اليد!
وليست اليد هي التي تحس، بل هي الروح!

بناء على ذلك يمكننا القول بأن الحمل يحصل في تفكير الزوجين، فأفكارهما قررت، وأفكارهما تعانقت، وتلاطفت، وقبّلت... فهناك أنتشت البذرة! يمعن كاتبنا إلى العالم بنظرات

كثيرة، فيقول بأن الحمل في أحد منازله يحدث أيضا بالتقاء واختلاط الجسدين، ولكن وبكل تأكيد، لا أحد غير الله سبحانه وتعالى يعلم الحدود في ما سماه الناس بالجسد والروح والفكر والنفس... ويذكر البغدادي بشكل عارض، بأن أجسادنا ليست قديمة بمقدار حسابنا لها عند قولنا بأننا في عمر السابعة عشرة، السابعة والعشرين أو السابعة والسبعين! إنما نعبر عندها ـ كما يقول ـ فقط عن عدد السنين التي مرت على ما نتذكره من الأزمنة الماضية، وبالحقيقة، فعظامنا والتي بإمكاننا أن نلمسها التماسا حقيقيا بيدنا، قديمة مقدار قدم جبال الهند الشاهقة،أو صخور تدمر... ويستطرد، وهو يقول أنه إنما يذكر ذلك عرضا، ومرورنا خلال هذا العالم بممرات ضيقة، مهما اعتقدنا بأننا نخطو في ميادين عريضة! إن الساحات والميادين عريضة فعلا، لكن بصر القلوب في صدورنا ضيق، إذ قال الله سبحانه وتعالى:«فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» (الحج ٤٦)، ثم يذكر بيتا من الشعر موضحا:

لا تسع عين معرفتنا إلا سعة كفنا

ولأنها ناعسة لا بد من كثرة طرفها

ومثلما لا يعرف متى يحدث الحمل الحقيقي (فكثيرا ما يتمنى الزوجان الحمل وعملا ما عليهما عمله من أجل حصوله، لكنه لم يحدث، أو أنهما لا يرغبان حصوله، لكنه يحدث!) كذلك لا يعرف موعد حلول الموت، أي لا يعرف موعد تواجدنا عند تلك البوابة المرسومة في المنمنمة التي ذكرتها في مطلع هذا النص. في الحقيقة، إن كاتبنا لا ينكر حقيقة الموت إنكارا

صريحاو إنما يطرح الأسئلة: إذا كان الميت ميتا ، فبم يفسر نمو أظافره ؟! ونمو لحيته وشعره ، وعند النساء نمو الحواجب والرموش ؟! فجسده ينمو باتجاه ما ويتحول إلى شئ آخر! والحياة تغير اتجاهها . إن عيننا تبصر تحلل الجسد ، لكن صاحبنا البغدادي يقول: إن أي تحلل ، إذا كان النظر إليه بطريقة مناسبة ، عبارة عن النشوء والولادة! وإضافة إلى ذلك ، فما الذي يموت في الإنسان؟ هل هي جميع أبعاد الإنسان المرئية منها وغير المرئية ، المعروفة والمجهولة ؟! ومرة أخرى يستشهد كاتبنا ببيت من الشعر:

لاتقل : كم هو خافت!
بل قل: نحن لا نسمع شيئا!

مع ذلك فإن كاتبنا ، كما نرى ، يطرح أسئلة أكثر من الإجابات التي يقدمها . لقد نبّه هو نفسه في إحدى رسائله وتحت عنوان «عن التعجب وفوائده» إلى أن العالم في حركة دائبة ، لكن هذه الحركة لا تعني التغير الحاد للاتجاه ، لأن العالم يتحرك في جميع الاتجاهات ، والموت كذلك ، مثل الحياة ، لا تعني التغير الحاد للاتجاه ، فلا يمكن قول شيء مؤكد بشكل حتمي . وإضافة إلى ذلك فإن وجهة نظرنا كذلك لا يعول عليها ،لأنها هي الأخرى محمولة من قبل العالم كالكل . (يسأل البغدادي: لماذا يقال تقريبا في جميع لغات العالم «حملته أمه ، الأم الحامل» ؟ أولا ، لأن هذا صحيح ، وثانيا ، لأن أمنا الأرض تحملنا أيضا فيما بعد ، وعموما فإن العالم بأكمله محمول إلى مكان ما وبطريقة عجيبة جدا ، حيث لا تعلم هل هناك فيما خارج العالم يغلب الفراغ أم ما هو مليء...) . يضيف البغدادي قائلا بأننا لن نتمكن مطلقا

معرفة مقرنا النهائي بعد ولادتنا الجديدة بعد الموت، ذلك أن خالقنا نفسه غير محدود، فهو يهب مخلوقاته عددا غير محدود من الاحتمالات. الانسان لا يعلم جميع تلك الاحتمالات، وذلك هو سبب بكاء الوليد لحظة الولادة، عندما يضرب برأسه الأرض لأول مرة!

ومما ورد في بعض تفاسير القرآن أن أهل الجنة سيبكون عند رؤيتهم الطيبات التي تنتظرهم فيها...

في نهاية هذه المناقشة يصف البغدادي المجهول المظهر المناسب للقبور والمقابر، وكأن البوسنة ومقابرها كانت موجودة وقتها، وكأنه كان قد أقام في تلك الأرض العجيبة! فيقول ناصحا: لتكن شواهد القبور متواضعة، ملونة بألوان صخور وجبال البلد نفسه... لتكن الحشائش المغطية للمقابر خضراء غامقة حتى تكون موافقة لأعماق السماء... ولتكن المقابر بين البيوت... وليلعب الأطفال فوقها ولا يخافوا منها... وليكن في المقابر دروب جميلة كالرياض... ولتكن المقابر جزءا من عمارة هذه الأرض...

يطول احصاء جدول مطالبه حول كيفية انشاء المقابر ورعايتها، يتضح منه بكل جلاء كيف أنه لايضع المقابر واللحود في منطقة الموت، بل في منطقة الحياة!

بلاد إلهامات لا تنضب

(مقطع من احدى المقالات الصوفية المنشورة عام ٢٠٠٢)

كانت البوسنة والهرسك فيما قبل العام ١٩٩٢م، وعلى مدى ما يقرب من عشرة قرون، مصدرا لمختلف أنواع الإلهامات. وقد تغنى الكثير من الشعراء بمناظرها الخلابة. وبفضل البوسنة نال أحد الكتاب جائزة نوبل. أما الباحثون في مجال المقارنة بين الأديان فقد كانوا يصفون البوسنة بأنها مثل حديقة من حدائق ابراهيم (عليه السلام) استمتع فيها بنوه أكثر مما عانوا. كانت البوسنة يجري فيها يوميا حساب الأوقات بأربعة من التقاويم ذات الأصول السماوية. لقد تفضل الله سبحانه وتعالى على البوسنة من وافر كنوز رحمته. لقد كان بإمكانك، وأنت واقف على باب بيتك، رؤية ثلثين من الفسيفساء الديني الموجود في المعمورة. كانت البوسنة بلدا يتصف بكثرة الينابيع، وحلاوة فصول الربيع وجمال الأزهار...

ولكن، منذ عام ١٩٩٢م أصبحت البوسنة، ولأول مرة في تاريخها، موطنا لمختلف أنواع الشر والتعاسة. ومنذ ذلك العام باستطاعتكم أن ترتووا منها بالشر، وأن تحصلوا فيها على المئات من إلهامات الشر دون أي عناء أو صعوبة أو معوقات. وكأنه بدلا من مياه الينابيع والعيون الصافية اشرأبت من الأرض البوسنية كثير من رؤوس الشر. قال العالم كله في ذلك الوقت بأن الذين

تحملوا ذلك الشر كله على أكتافهم، وزرعوه بأيديهم في أنحاء البوسنة، هم قوم من بني ابراهيم يدّعون بأنهم أرثوذوكس. ولكن، لماذا حصل هذا ؟ وهل أن الأمر كان كذلك بالتمام؟ وفيما يلي من صفحات هذه المقالة الجواب عن هذين السؤالين.

إنني بمقالتي هذه لست الوحيد الذي يدعي بأن مسلمي البوسنة من ذلك الزمن كانوا محاصرين لفترة طويلة في العديد من المدن، وإنما قد سجل ذلك العديد من الكتّاب الأجانب (مما يعني أنه بإمكانكم قراءة حقيقة ذلك هناك أيضا). أثبت الأرثوذوكس من بني ابراهيم، كما يسمون أنفسهم، ومنذ ذلك الزمن بأنهم صنّاع بارعون للشر. تصوّروا وضعية نملة صغيرة واقفة داخل خاتم ملتهب، حيث لا ينجيها من الموت إلا تواجدها المستمر في مركز الخاتم، إذ أنها إن تحركت فإنها ستتعرض لموت محقق، وبشكل خاص إن حاولت المبل إلى هذا الطرف أوذاك! نعم، فهكذا كان حال المسلمين في الحقيقة في ذلك الزمان...

لقد كتب الرحّالة من أطراف الأرض الغربية الكثير من الكتب عن المسلمات الضحايا في البوسنة والهرسك. فأجاب واحد من كتّاب تلك الكتب وهو يرد على سؤال: كيف استطاع كتابة عمل جيد كهذا، قائلا: «اذهبوا إلى البوسنة! فهناك تحصلون على الإلهام، حتى ذلك الذي لم يكن يمتلك أي إلهام!» باع هذا المؤلف عشرات الآلاف من نسخ كتابه. يقولون بأنه وفي حالة سكر شكر في أحد المقاهي الباريسية مأساة مسلمي البوسنة. لأنها لو لم تكن موجودة لما كان بإمكانه أن يصبح كاتبا لامعا هكذا! وقد أكد كثير من المنظّرين الغربيين للحرب في البوسنة والهرسك، بأنها لم تكن ذات وجه سيء فقط، بل كان لها وجهها الحسن أيضا، فلم تكن حرب الاغتصاب معروفة قبلها لو لم تنشب الحرب في البوسنة، ولو لم

يخطط بنو إبراهيم المدعوون بالأرثوذوكس مثل هذه الاستراتيجية الحربية الشريرة، لكانت نظرية الحروب أكثر فقرا! حتى واقعة البوسنة عام ١٩٩٢ لم يكن الهجوم على الحياء وشرف النساء معروفا، بل كان احتلال الدول هو المعروف فقط، كما قام بذلك نابليون وجنكيز خان وقطز... لكن أن تصدر رئاسة الأركان أمرا بالهجوم على حياء نساء أحد الشعوب أمر لم يحصل إلا في البوسنة. وقد نشر ناقلوا الحروب هذه الاستراتيجية فيما بعد إلى مناطق أخرى من بقاع العالم. لأن اكتشاف أحد الشرور الذي لم يكن معروفا من قبل بهذه الطريقة يؤدي قبل كل شيء إلى مضاعفة ذلك الشر نفسه، ومن ثمّ الشرور المشابهة الأخرى. فاغتصاب واحدة من الأمهات أمام أبنائها، أدى إلى اغتصاب تلك الأم أمام والديها، ثم أمام زوجها... لقد أعلن الجنرالات: «اغتصبوها أولا أمام هؤلاء الذين أنجبتهم، وبعد ذلك أمام هؤلاء الذين أنجبوها، ثم أمام زوجها الذي أنجب الأطفال معها!»

لا يمكن توقع مسارات إلهامات الإنسان إلى الشر، كما صرّحت بذلك بعض الباحثات الغربيات عن المأساة البوسنية في الجامعات الغربية العريقة. بل يمكن القول بأن الإنسان فقط من بين سائر مخلوقات الله يستطيع أن يكون بارعا في الشر، وحتى أن الشيطان ذاته لم يعرف طريقة للتعامل مع مصدر الشر الإنساني الخصب في الأرض البوسنية.

حتى الآن، و بعد انقضاء عقد فقط على انتهاء المأساة البوسنية، تمّت مناقشة أكثر من مائة رسالة دكتوراة عنها؛ وقد حازت مشكلة تعذيب الناس بالماء مركز الصدارة في البحث والمناقشة، وكانت من جملة المواضيع الأكثر إلهاما والتي تهافت عليها الباحثون والمحللون الشباب للقضية البوسنية.

لقد أثبت أحد الطلبة الجامعيين الفرنسيين بأن تعذيب الناس في البوسنة بالماء، إنما هو نتيجة للحقد الديني. علما بأن الغرب قد أدرج غسل المقعد بالماء في آداب النظافة للعصر الحديث، فبعض الشعوب لا تلتزم بغسل المقعد فقط لأن تركه يعاقب عليه دينيا، كما في اليهودية والإسلام وما شابههما. الالتزام بهذه العادة يعني بأنك ستصبح ولو للحظة يهوديا أو مسلما. بالرغم من أن هذا يجري في المرحاض! (ويقولون بأن هذا الفرنسي صاحب رسالة الدكتوراه قد تم الثناء عليه من قبل رئيس اللجنة الفاحصة. ويقول هو بأنه يجب النظر إلى المأساة البوسنية من جميع جوانبها. بل أنه لا يجوز فيها تجاوز المقعد. على العموم، إن مشكلة البوسنة هي على هذا المستوى، أيها السادة).

لشهور بل لسنوات حمل الشعب في شوارع سراييفو الدلاء بتحد وعناد بحثا عن الماء بينما كان بنو إبراهيم المدعوون بالأرثوذوكس يصبون الحديد الملتهب من الجبال، ليبتر أرجل الناس وأيديهم ورؤوسهم... حدثني صديق من منطقة «تسيغلانا» بأنهم أمضوا قبل فترة عدة ساعات بحثا عن يد أحد الرجال؛ ذلك أن قطعة حديد ملتهبة بترت بكل سهولة يده وفصلتها ورمت بها إلى مكان ما في الحديقة العامة. لم يجدوها إلا في اليوم التالي، حيث انتزعوها وبصعوبة من فم أحد الكلاب الجائعة الذي عثر بدوره على تلك اليد صدفة... وخسر هذا الرجل حياته طلبا للماء، وخسر جسده الميت يده. هكذا أيها السادة، كان فن الموت فظيعا ولا يصدّق في البوسنة عام ١٩٩٢ وفي سراييفو وغوراجدة وموستار ويايتسا وسريبرينيتسا... كان علماء الموت الغربيون يفدون إلى البوسنة بعد عام ١٩٩٢ في بعثات (فقد نشر واحد منهم حتى الآن ثلاثة مجلدات ضخمة عن

خيال القتل في البوسنة، مع تنبيهه إلى أنه يمتلك أوراقا مخطوطة تعادل ثلاثة أخماس ما يمتلكه من الملاحظات، والتي سينشرها على الملأ على كل حال، فقط هو ينتظر رؤية إقبال القراء لمجلداته الثلاثة). لقد ألهمته البوسنة إلى الحد الذي أعجزه عن قوله وشرحه في المجلدات الثلاثة الأولى...

تبلغ حالات الموت في البوسنة مبلغا لا يصدق من أنواع الشر، فبإمكانكم هنا رؤية موت لاثنين من الأطفال في حافلة أصيبت بطلقات كبيرة لمدفع مضاد للطائرات. وتساءل القاتل بعد ذلك: هل تدلّت عيون الطفلين؟! نعم، نعم فإنه من المثير معرفة ذلك؛ لأن الخبراء يقولون بأن نسبة ٢٧ ,٩٣ بالمائة من هذه الحالات تشير إلى تدلي عيون الضحايا واستقرارها في أحضانهم...

يقولون عن وجود الكثير من الأسباب العقائدية التي بسببها أقدم الأرثوذوكس من بني إبراهيم على قتل عشرة آلاف مواطن في سراييفو وحدها خلال الشهور السبعة الأولى للمذبحة. فقبل كل شيء، حضرت في المنام إلى أحد الأرثوذوكس من بني ابراهيم هؤلاء مسألة مفادها: هل يستطيع الله إحياء الناس كما هم بالرغم من امتزاج عظامهم في القبر؟! (علما بأن هذه المسألة ناشئة على الأرجح من واقع ندرة الأماكن للمقابر في سراييفو، فيتم دفن الأموات في مقابر غير المتدينين بدينهم...) لذلك، أيها السادة، لن يوجد مكان أشد إثارة يوم القيامة كالبوسنة! فعندما يقع أمر الله: كن! عندها ستتطاير العظام من القبور الضيقة باتجاه أصحابها متضاربة مع العظام الغريبة عنها. وباستغراب يسأل المبعوثون الواحد منهم الآخر: «من أين لنا جميعا في قبر واحد؟ لماذا هذا الضيق أيها الناس؟ فأي منا نحن

الثلاثة كان الأول، ومن هذا الأخير المذبوح بالحديد الملتهب الساقط من الجبال؟» من الممكن رؤية حوار كهذا يوم القيامة في البوسنة فقط! لأن البوسنة هي بلد للإلهامات التي لا تنضب، وسهولة الموت بشكل لا يحتمل. حتى أن علماء الدين وقعوا مؤخرا في معضلة معقدة حول كيفية دفن رجل بعد أن أصبح بقعة دهنية على الخرسانة إثر إصابة مباشرة بإحدى القطع الحديدية الملتهبة الساقطة من الجبال عيار ١٢٠ملم! نعم، نعم إن البوسنة مصدر الإلهام حتى في علم الدين. وهذا العلم ذو عناصر جديدة وتعريفات جديدة للموت والقبر والدفن... لقد وعد بعض من علماء الدين بمجلدات ضخمة فيها أجوبة وفتاوى حكيمة...

ولكن، ومع ما سبق لنا من القول في هذه المقالة، فيجوز لنا القول كذلك أن الأرثوذوكس من بني إبراهيم، كما يسمون أنفسهم، قد ذكروا المسلمين المحاصرين بحضور الله الدائم والشامل وبأن الله سبحانه وتعالى أقرب إليهم من حبل الوريد! لقد حصد الموت قبل عدة أيام في حي «دوبرينيا» ربة بيت وهي تعد وجبة من حساء. ويوجد الكثير من أمثال هذه الحالة. إن البوسنة، بهذا المعنى، بلد غني جدا، يا سادتي!

ورد في احدى المأثورات الإسلامية أن الله يمسك قلب المؤمن بين أصبعين من أصابعه. فيجب عليك أن تؤمن بذلك وأنت تتجول في شوارع باريس ونيويورك وميونيخ... أما في البوسنة فالإيمان بهذا أمر سهل للغاية، فعندما تنظرون إلى جميع الأماكن التي يتساقط عليها الحديد الملتهب من الجبال، وعندما تتمددون في جلودكم تمددا كليا، عندها تدركون بأن طرق الله خفية، وأن البوسنة بلد إلهامات لا تنضب.

صور الإعدام العلني لسراييفو

تقول فلسفة النشوء البشري وذلك بالتطابق مع النصوص المقدسة إن الثقافة الإنسانية ناتجة ولو بشكل جزئي عن عدم استعداد جسم الإنسان للتلائم مع الطبيعة. فلا يوجد مولود أضعف من المولود الآدمي، فهو يولد دون وبر أو فرو أو ريش أو حراشف، وناهيك عن ذكر المخالب، أما الأسنان الإنسانية فتكاد وظيفتها تقتصر على تزيين ابتسامته، دون إيحاء بالعض والنهش وسحق الطعام! وبناء على ذلك فإن هناك حقا مشروعا للإشفاق عل الإنسان وتعريفه مع التعريفات الأخرى الكثيرة، بأنه كائن يرتدي لباسا! يحب علماء النشوء البشري الجدال طويلا وبلا حدود عن التخلف الجسدي لهذا المخلوق البشري العاقل الماشي على الرجلين. إن الإنسان، حالما يولد ويتلقى الابتسامة الأولى من أمه، يتلقى أيضا نوعا من الثقافة، ولو كان ذلك شيئا بسيطا مثل الحفاضات!

فالثقافة باختصار ودون الخوف من الوقوع في خطأ كبير هي ذلك الشيء الذي يبقى في عالم الإنسان عندما تجردونه من «البيولوجيا»، ولو أن الثقافة ذاتها بالطبع لا تقوم دون تلك الطبيعة، دون تلك «البيولوجيا». إن جميع الحقائق الثقافية، وكل مكونات الثقافة مرتبطة فقط بعالم الإنسان دون غيره من المخلوقات. فالحيوان لا يحاول الارتفاع إلى ما فوق العالم أو

النظر إلى العالم والتمعن فيه بشكل آخر. العنكبوت على سبيل المثال، ومنذ «نشأته الأولى» ينسج الشبكة على نفس المنوال، والنحلة أيضا، بغض النظر عن مصدرها، افريقية كانت أم أوربية، فهي تبني خلاياها بنفس الطريقة وتتجه إلى الحقول بذات الحركة، حيث ضوء الشمس والحرارة المثيرة لرحيق الزهور.

النصوص المقدسة، و تليها جميع اتجاهات علم الأجناس البشرية، منحت الثقافة مكانة مرموقة ومقدسة وعالية، ولايوجد كتاب مقدس لم يتحدث عن أن الخالق العظيم وهو الله سبحانه وتعالى ذاته، قد ألهم الإنسان كيفية التعرف على الحياء، ليواري بأوراق الشجر سوأة جسده العاري، وكيفية بناء مسكنه! وعلينا أن لا نتوقف أبدا عن شكر العلم المقدس على أنه لم يكن ليسكن الإنسان قط في الكهوف التي جهزتها له الطبيعة، وإنما كان يسكنه دائما في وسط المعابد التي تجذب بنداء أعماق الزرقة السماوية، بنداء ذلك البرقع العجيب، ولماذا لا نقول الألبسة، التي تكشف وتستر السر الأعظم في آن واحد!

يعد أمر الكساء من أسس فن العمارة ولذا فقد كان الكساء و بناء المساكن منذ القدم يعتبران أمرين متصلين اتصالا وثيقا بالثقافة المقدسة. ومما يرى البعض أن العمارة بمثابة ألبسة مطوّلة، فاللباس للإنسان بمنزلة الأبنية للمجتمع! فالشعوب ترتدي بعماراتها! ويكاد بالإمكان متابعة تعاقب أنواع الألبسة والأبنية أو الكساء والسكن. تشعرون في بعض المدن براحة، حيث تجدون فيها سعة لنظركم مثلما تجد السعة صدوركم وهي مرتدية قميصا منسوجا من قماش ناعم لطيف، كالقطن الأوزبكستاني على سبيل المثال...

٢

إن مثل هذه المقدمة ضرورية لنا في كل مرة نرغب فيها الحديث عن البوسنة، وعن سعة مجال التنوع فيها فيما يخص الملابس والمساكن والثقافة والعمران، ولا سيما وأن الكتاب الذي يمسكه القارئ بين يديه يصور البوسنة المدمّرة والمهشمة في منطقة سراييفو وغيرها من مناطق البوسنة والهرسك.

من المفيد بمثل هذه المناسبات إعادة شرح حقيقة البوسنة لغير المطلعين عليها، أو على الأقل، محاولة وصف الحال الذي كانت عليه البوسنة من قبل! هي بقعة من الأرض التقت فيها المبادئ والأديان العالمية الكبرى: الإسلام والنصرانية الكاثوليكية والأرثوذوكسية، واليهودية والمانوية، في فترات سلام طويلة بطريقة طبيعية ودون أمر من أحد! تلك البقعة جامعة حية للدراسات المقارنة لمعظم أنواع الأديان العالمية، مركز التقاء الشرق والغرب بواسطة واحد من العناصر الانسانية الأصلية المتشابهة فيما بينها! هي منطقة نادرة انتشرت الأديان في وديانها وهضابها بطريقة عشوائية (نحب الطريقة العشوائية، لأن الأنظمة البشرية غالبا ماتكون نتاجا للضغط والاضطهاد) مكونّة تلونا عجيبا، وروعة وعفوية وتناغما لا مثيل له.

ومما يؤكد إلى حد بعيد قولنا السابق نشأة معظم فنون العمارة في سراييفو على تقاليد هذه العقائد العالمية الكبرى. إنكم تستطيعون وبكل سهولة أن تقرأوا حتى من خلال العمارات المختلفة الموجودة في سراييفو تاريخ كل أولئك الذين عشقوا البوسنة كموطن لهم. كانت فنون العمارة تنتشر، أو بالأحرى، إنها كانت

منبثقة من ثقافات أولئك الذين أتوا البوسنة غازين، دون إلغاء ومسح ما وجد فيها قبلهم، وباختصار يمكن القول إن من حسن حظ سراييفو أنها كانت مدينة متصفة باستمرارية التنوع وأن التاريخ فيها ما كان مبتدئا من جديد مرات كثيرة، وإنما تم استقباله ومتابعته وتوديعه من خلال الاستمرارية!

لذلك فإن سراييفو لم تتحول قط لتصبح متحفا، ولايمكن فهم سراييفو إذا نظرنا إليها بعيون متحفية. إن نبض الأزمان المختلفة والتقاويم السنوية والساعات الموجودة على العمارات المقدسة المتنوعة لسراييفو ليست نواقيس كراهية بل هبة التلاقي الطبيعي الذي يبقى الجميع فيه كما هم. تبين البوسنة بأفضل شكل أن البشرية التي يكون فيها طريقة واحدة لاحتساب الزمن، وطريقة واحدة للنظر إلى مسارات النجوم ليست جيدة! هذه المدينة في الحقيقة هي الواقع والحياة وضفيرة الشرايين للأجزاء الكبرى للبشرية. ليست سراييفو مدينة مضبوطة لأعين غير أهلها ولم تكن قط موضع التعايش الكاذب ولا التسامح المخادع. هذا ما يشاهد في الأنواع المضفورة لأبنيتها وعمارتها المختلفة.

إن وقوع كل من مسجد الغازي خسروبك والكاتدرائية الكاثوليكية والكنيس اليهودي والكنيسة الأرثوذوكسية على مقربة بالغة من بعضها البعض يشهد بأن الثقافات الدينية أو الأديان الثقافية الخمسة الكبرى (المانوية والإسلام والكاثوليكية واليهودية والأرثوذوكسية) في البوسنة تعيش مدة زمنية طويلة بتبادل الأدوار بين بعضها بطريقة غير احتلالية. كانت الأديان في البوسنة تنتشر دون أن تأخذ لنفسها طابعا استعماريا، وهذا ما يدل عليه تنوع الثقافات والعمارات في سراييفو وغيرها من مدن البوسنة والهرسك!

(أي، إن البوسنة لم تصبح قط أرضا أو موطنا لدين واحد، بغض النظر عن طول المدى الزمني لحكم أي من الممالك للبوسنة، ولم تصبح البوسنة دولة أحادية الدين، ولم تصبح منطقة محكومة بدين أية امبراطورية حاكمة وحدها).

٣

إن أعوام ١٩٩٢ و١٩٩٣ و١٩٩٤، ولا يدري إلا الله ماذا ينتظرنا منها بعد، هي أزمنة تدمير البوسنة وسراييفو. وتلك الأزمنة إشارة سيئة قد لا نستطيع حتى الآن معرفة سوء دلالتها بصورة صحيحة. إلا أن ما لا شك فيه أن الدوس على الأنقاض والقطع المتساقطة من سقوف وجدران وأعمدة مباني سراييفو تتحول إلى الدوس والإلقاء تحت الأقدام كرامة البوسنة بقرونها العريقة ولمدة طويلة!

كانت البوسنة حتى الآن كذلك تتعرض للكثير من الحروب والغزاة، لكنهم ما كانوا قط يجتثون البوسنة من الجذور كما يفعل ذلك غزاة اليوم. إن عبارة «التنظيف العرقي» القذرة واللاأخلاقية والتي قد قبلتها أوروبا والغرب على اتساعهما هي بذاتها تحوي في طياتها نزعة الاجتثاث والتصفية والتنظيف القذر وابادة البوسنية.

إن آثار التدمير التي يمكن للقارئ رؤيتها في سراييفو هي شهادة على إبادة عمرانها وجمالها وثقافتها، إلا أن ذلك لا يعني فقط إبادة الحجر المنحوت والأبنية الحجرية الرائعة، والتي تذكر

الناظر إليها بالموسيقى المحولة إلى صورة قابلة للمشاهدة، بل هي الإبادة لفكرة سامية يعيش بها الإنسان عيشة كريمة بكل ما له، وبكليته، ولكن عيشته تلك تكون على مقربة تامة من كلية غيره المختلف عنه! و تلك باختصار هي فكرة سراييفو والعمران السراييفي، وفي نفس الوقت هي فكرة البوسنة!

وعلاوة على ذلك كله، فإن ما جرى في البوسنة من التدمير والإبادة هو الإعدام الحقيقي العلني الجاري أمام عدسات التصوير العالمية لفكرة البوسنة وفكرة سراييفو!

ربما أنه من غير اللائق القول بأنه كان من الممكن أن ينتهي كل هذا بسلام لو أن إعدام فكرة البوسنة انتهى في البوسنة دون أن يتجاوز حدودها! لكن البوسنة هي بشرية مصغرّة تنعكس إبادتها انعكاسا سيئا على أوروبا والعالم كله.

كيف نسيت الموسوعة البريطانية الإبادة بحق مسلمي البوسنة في طبعتها الجديدة؟

يقال إن البشرية خطت خطوة كبرى حين توصل الناس لفكرة كتابة وتصنيف الموسوعات. وبقيت مختلف الموسوعات في مختلف العصور شاهدا على كمية وسعة المعرفة العامة والحقائق التي كان يملكها الناس وأي نعمة على البشرية كانت تلك المعرفة التي حافظت على عقل وروح الإنسان في حالة من الثقة والوضوح إضافة الى انها كانت مضمونة ولو لبعض الوقت.

والمفروض في الموسوعات ان تقدم الحقائق والإجابات عن الأسئلة، من وماذا وأين ومتى وكيف وبماذا ولماذا. وعادة ما يقال ان النصوص الموسوعية ينبغي أن تقدم الإجابات الموضوعية لتلك الأسئلة.

ولكن كثيرا ما لا يكون الأمر كذلك. والواقع أن الموسوعات تتوخى الموضوعية بدرجة أكبر بكثير في فروع المعرفة التي تسمى بالعلوم الطبيعية. أما حين يتعلق الأمر بالعلوم الاجتماعية، فإن الموسوعات تكون في خدمة التوجيه الأيديولوجي. ولكن، حتى في العلوم الطبيعية والتقنية يكون التوجيه الأيديولوجي أو تكوين أيديولوجية الفلسفة الفردية أو العرقية في تفسير التاريخ أو الغاية

من العالم ككل، هو الذي يملي محتويات الموسوعات. وبعبارة أخرى، تلجم الأيديولوجية الموسوعية الحقيقة باللجام الأيديولوجي وتكبحها.

ولنتذكر في سياق المغالاة في إضفاء الطابع الأيديولوجي على محتويات الموسوعات، الفيلسوف البولندي ليشيك كولاكوفسكي ونقده للموسوعة السوفييتية الكبرى. فكولاكوفسكي يؤكد ان تفسير مادة «السيارة» في هذه الموسوعة الرنانة العنوان، تبدأ بالرواية التالية، «قام الفلاح الريفي ليونتيه شامشيوغيينكوف سنتي ١٧٥١ - ١٧٥٢ (تصور) بتركيب سيارة تسير بدفع ذاتي، يتم تحريكها بقوة شخصين».

فمن الجائز ان يكون الفلاح شامشوغيينكوف قد اخترع بالفعل عربة فلاحية يجرها حصان، لكن أيديولوجية الموسوعة السوفييتية الكبرى شاءت ان تجعل تلك العربة الفلاحية أول عربة في تاريخ البشرية واعلنت انها تسير «بدفع ذاتي»، مع آن تحريكها كان يتم «بواسطة شخصين»!!

و طبعا، لا يحسن بنا أن نذكر الموسوعة السوفييتية الكبرى مرتبطة بأي شكل من الأشكال بالموسوعة البريطانية ذات الشهرة المتألقة، كما لا نحتاج إلى أن نبرز بصفة خاصة أن دائرة المعارف البريطانية من اشهر المؤلفات الموسوعية في الأزمنة الحديثة و انها موسوعة عالية الصيت. فمنذ بداية ظهورها سنة ١٧٦٨م، مرورا بطبعات عديدة إلى يومنا هذا، حيث أصبحت مطبوعة على القرص المرئي تحتل دائرة المعارف البريطانية مكانا بارزا في المكتبات العامة والخاصة ويستخدمها الكثيرون اليوم كمصدر موثوق للمعلومات.

ومع ذلك يخيم على هذا العمل أيضا ظل واسع من الشك. لماذا ؟

نود بهذه المناسبة أن نضع علامة استفهام كبيرة أمام هذه المناعـــة والموضوعية للمؤلف المكون من عدة مجلدات تحت الاسم الكبير الموسوعة البريطانية الصادرة صيف ١٩٩٨م أو بالأحرى على تلك المحتويات من الموسوعة التي تتعلق بالبوسنة والتي كتبت منذ سنة ١٩٩٢م. فقد تعثرت الموسوعة البريطانية الشهيرة بصورة مخجلة عند مادة البوسنة والهرسك والكثير من المواد الأخرى ذات الصلة بهذا البلد.

لا وجود للبوشناق

ان الموسوعة البريطانية المطبوعة كما قلنا على الـ CD هذه السنة وبالتالي في آخر طبعة لها تتحدث عن البوسنة أيضا. فتحت العنوان الجانبي «الجغرافيا الطبيعيـة والبشرية Physical and human geography الذي يتحدث عن الصفات المميزة الرئيسية لأرض وسكان البوسنـة والهرسك، لا يوجد - هكذا ببساطة - شعب البوشناق، أكبر شعوب البوسنة والهرسك عددا. ومع ان اتفاقية دايتـون، وقبلها اتفاقيتا واشنطن وفيينا تذكر البوشناق كواحد من شعوب البوسنـــة والهرسك، تكرر الموسوعة البريطانية بصورة دائبة، وهكذا الحال أيضا مع جميع البرامج الإعلامية لهيئة الإذاعة البريطانية BBC أيضا، اسمنا اللاتاريخـــي واللاقومي - المسلمين. وبالطبع فان الإصرار الإعلامي والموسوعي لزمن طويل على استعمال تسمية المسلمين يأتي من جراء الإصرار على اظهار المسلمين كمجموعة دينية.

ويتبع ذلك حقن المنطق إياه في تلافيف الدماغ: إذا كان لا يوجد بوشناق ولو كان البوشناق هم المسلمون – بمعنى انه مجموعة دينية، فان لهم حقوقا دينية (فقط)! انهم لا يسمون البوشناق باسمهم القومي – البوشناق، لأن هذا الشعب لا وجود له في المخططات الجارية للأمور لدى الدوائر التي تصاغ فيها أيديولوجية الموسوعة البريطانيـة؛ ولا دولة له ومن ثم لا وجود له على خارطة أوروبا في المستقبل.

لقد طرد نظام بلغراد وأيديولوجية الأكاديميين الصرب البوشناق من مدنـهم وقراهم وها هي الموسوعة البريطانية تطردهم من صفحاتها!

والموسوعة البريطانية بالطبع لا تسمينا بالأتراك؛ فذلك أمر يفوق الحدود بالنسبة لهذا المؤلف، بل تسمينا بالمسلمين الذين يعود أصلهم الى السلاف الذين اعتنقوا الإسلام (نورد ذلك بالنص: المسلمون ينحدرون من السلاف الذين اعتنقوا الإسلام...The Muslims are descended from Slavs who converted to Islam. .). أما كوننا سلاف، فذلك صحيح؛ ولكن لماذا لا تقول الموسوعة البريطانية الأشياء الصحيحة الأخرى أيضا؛ لماذا لا تقول الجملة التالية مثلا:

«الارثودكس ينحدرون من السلاف الذين اعتنقوا المسيحية»
The Orthodox Descende from Slavs / who converted to Christianity.

ان الموسوعة البريطانية لا تقول شيئا من هذا القبيل، لأن الأيديولوجية المفروضة عليها والتي أقل ما توصف به أنها مفرطة

في الجلافة جدا، ناهيك عن القول انها تحمل طابع الابادة تجاه البوشناق، هذه الايديولوجية تملي على الموسوعة البريطانية تحت عنوان البوسنة، أن تعامل مسلمي البوسنة والهرسك وحدهم معاملة دينية وبتسمية دينية. فهذه المعاملة برمتها تتميز بطابع تحريضي لا يصدق ومع أن أولئك المسلمين هم نوع من السلاف، فهم، مهما يكن من أمر وتحسبا للأمور، مجموعة دينية اهتدت إلى الإسلام بالتحديد.

وبإبراز أولئك السلاف من البوسنة الذين اعتنقوا الإسلام فقط، دون ذكر اعتناق الكاثوليكية والارثودكثية، انما يوحون لقراء هذا السفر بصورة ماكرة جدا أن المسلمين خونة وجسم غريب في البوسنة والهرسك وهكذا دواليك.

ان غياب تسمية البوشناق لا يشرف هذه الموسوعة اطلاقا. والواقع أن البوشناق يعاملون على صفحات الموسوعة البريطانية تماما كما تعاملهم وثائق مذكرة أكاديمية العلوم والفنون في صربيا. ففي كل سطر تحس بنفس الروح ونفس المشروع ونفس الخطورة.

تزوير التاريخ القريب

وفيما يتعلق بالمادة الخاصة بالبوسنة والهرسك، كثيرا جدا ما تتردد في الموسوعة البريطانية عبارة «الحرب الأهلية» Civil War. فقد جاء في ختام تلك المادة عن البوسنة والهرسك ان البوسنة والهرسك اجتاحتها الحرب الأهلية التي قام فيها كل شعب «بتطهير» المناطق التي استولى عليها من جميع السكان الذين لا ينتمون اليه. فقد استولى الصرب على الجزء الأكبر من

الشمال والشرق واستولى الكروات على الغرب، بينما احتفظ المسلمون بالمدن في الوسط والشمال الغربي.

وتتكرر عبارة «الحرب الأهلية» عدة مرات بطريقة غادرة تفوق حد التصور؛ و هي تذكر وكأنها قوة رعناء اندفعت من مكان ما الى البوسنة وهي المسؤولة ولا أحد غيرها له اسم ولقب عن الجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبت في البوسنة. ونفس الشيء بالضبط مع التعبير اللطيف الشهير عن شيء كريه - تعبير (التطهير العرقي Ethnic Cleannsing) الذي كثيرا ما تكرر في هذا السياق. والكارثة التي تسمى «التطهير العرقي» كأنما حلت بالبوسنة من لا شيء؛ فليس هنالك ذكر لمفكري ومصممي ومنفذي الإبادة ضد البوشناق في البوسنة والهرسك.

ماذا نقرأ من هنا مباشرة؟ نقرأ قبل كل شيء فرض مخطط المسؤولية المتساوية في هذه «الحرب الأهلية» المزعومة. والشيء الثاني الذي نشهده هو هذا السخف المتعجرف القائل بأن الجميع في البوسنة والهرسك مارسوا التطهير العرقي! حقا لقد تعدت الموسوعة البريطانية بمجلداتها الضخمة الفاخرة كل الحدود! كأنما المؤلفون في دائرة المعارف البريطانية لا يعرفون مجلس الأمن الدولي؛ كأنهم لم يسمعوا مجرد السمع بمؤتمر لندن حول البوسنة وكأنهم لم يقرءوا أي وثيقة من الوثائق التي اصدرتها الدول الغربية (حيث ظهرت هذه الموسوعة) حول البوسنة والهرسك ابان العدوان. ولم يحدث قط ان سمي العدوان على البوسنة بالحرب الأهلية في أي وثيقة من وثائق مجلس الأمن الدولي.

إن هذه الموسوعة ستجد نفسها أمام صعوبات جمة وهي

تعتمد منطق «الجميع في البوسنة مذنبون»، بل والمنطق الأخطر «المذنبون ليسوا مذنبين». وسيكون حسنا جدا أن نرى مثلا في مرة قادمة بماذا تفسر الموسوعة البريطانية في المواد الخاصة بيوغسلافيا أسباب العقوبات التي يعيش في ظلها ذلك البلد، طالما كانت في البوسنة حرب أهلية أو قل طالما أن كل ما جرى هناك كان بفعل قوى تاريخية لا ترى شيئا؟

بماذا تفسر هذه الموسوعة كل ذلك العدد من المجرمين بأسماء وألقاب صربية التي تذكرها في المادة المتعلقة بمحكمة لاهاي؟!

والحقيقة أنه تظهر اليوم عن البوسنة نصوص موسوعية لا عقلانية وضد العقل ومتناقضة له حتى في نظر الطفل، ناهيك عن كونها هجوما فظا على العقل؛ وذلك في بلد علماء المنطق والفلسفة النابهين الممتازين من امثال جون لوك وديفيد هيوم وبرتراند رسل.

ولا يمكننا أن نصدق ما نرى على صفحات هذه الموسوعة المرموقة من سيناريو كان خير من وصفه جورج اورويل في كتابه بعنوان (العام ١٩٨٤م). أن بوسع الشقيق الكبير أن يفعل كل شيء، وخاصة أن يغير ما حدث، أي التاريخ؛ يمكنه أن يغير حتى التاريخ القريب حتى لو كان الجميع - الجميع بمعنى الكلمة، بين أقوى أقوياء هذا العالم من أهل القرار، قد شاهدوا ودونوا كل ما حدث فعلا في البوسنة.

إننا نرى التأثير الفعلي لأيديولوجية الشقيق الكبير على سياسة تحرير الموسوعة البريطانية، من خلال عدد كبير من الأمثلة. فقد جاء في المادة التي تتحدث عن بانيا لوكا، المكتوبة سنة

١٩٩٤م: ان هنالك جوامع تركية كثيرة وخاصة جامع فرهاديا الجميل / The are many Turkish mosques, notably the beautiful Ferhadija...

إنها لسخرية كبرى لا تصدق تمارس أمامنا. فقبل كل شيء، ومما يأسف له كل من يحبون الجمال وكل من يؤمنون بالأديان وخاصة المسلمين، لم يكن جامع فرهاديا الجميل موجودا في بانيا لوكا سنة ١٩٩٤م! فقد هدم قبل ذلك بوقت طويل، ومكانه الآن فسحة لا يقوم عليها شيء. ثانيا، الجوامع السابقة في بانيا لوكا ليست تركية على الاطلاق، بل هي دور عبادة للمسلمين، جوامع للمسلمين.

والمثال الثاني الذي تقدمه لنا هذه الموسوعة هو ايضا مثال غير مهذب، يشبه البصق على العقول. ففي الجزء الخاص بسراييفو من الموسوعة البريطانية ادعاء لا يصدق، بان الصرب حاصروا المدينة سنة ١٩٩٣م!!! «تكبدت سراييفو الكثير من الخراب من جراء حصار القوات الصربية للعاصمة البوسنية سنة ١٩٩٣م» / Sarajevo suffered considerable damage as Serb forces encircled the Bosnian Capital 1993.

مثل هذا القول يتساوى مع إنكار الفاشيست والنازيين للمحرقة. وإلا، فمن الذي يحتاج إلى أن نحدثه اليوم عن المعاناة القاسية والموت في سراييفو جوعا وعطشا وخوفا من القناصة والقذائف منذ صيف سنة ١٩٩٢م... ومنذ نهاية سنة ١٩٩٢م بدأت الصحف تسجل أنه في سراييفو المحاصرة لا توجد أماكن

للموتى في بعض المقابر مما يستدعي دفن الموتى في مقابر الآخرين الخ، الخ.

إن ما جاء بالموسوعة البريطانية لم يأت عن جهل وعدم اطلاع، بل هو تزوير في منتهي الفظاظة للتاريخ، على يد الشقيق الكبير.

وما أكثر الأمثلة الاخرى طبعا. ولنأخذ ما جاء بالموسوعة عن سريبرينيتسا. فهي تذكر تحت هذا العنوان أن (الجنود الصرب ذبحوا وطردوا آلاف المسلمين...) لكنها لا تردف فورا بالقول بأن سريبرنيتسا تم الاستيلاء عليها، بل تقول ان سريبرينيتسا «ضمت إلى الأراضي التي يسيطر عليها الصرب» / ..included in Serb-held territory.... ثم تواصل هذا النص قائلة إن ذلك تم بعد تقسيم البوسنة والهرسك سنة ١٩٩٥م (..1995 partition of Bosnia and Herzegovina). فالموسوعة البريطانية تورد هنا خطأين فادحين على الأقل، أولهما من خلال التأكيد بأن «سريبرينيتسا ضمت»، بدلا من القول انها تم الاستيلاء عليها عن طريق الجريمة وإراقة الدماء. والقول بأن «شيئا ضم (بضم الضاد) الى شيء» يعني إيحاء عابرا بأن ذلك الشيء كان ينتمي دائما لذلك الشيء الآخر. ومن ثم، كانت سريبرينيتسا دائما للصرب؛ فلماذا يعتبر ما حدث فيها جريمة؟!

والخطأ الثاني الذي ترتكبه هذه الموسوعة في هذا الموضع هو ادعاؤها لتقسيم البوسنة والهرسك. ولا تكترث الموسوعة لكون اتفاقية دايتون السلمية حول البوسنة تنص على أن البوسنة دولة (ومن ثم بلد واحد)، بل تردد ببرود وعناد عبارة «تقسيم البوسنة والهرسك».

و ماذا نقول في النهاية، لو كانت لكل هذا نهاية على الاطلاق؟! جورج اورول يقول ان الشقيق الكبير كثيرا ما يعلن شعارات «الحب كراهية» و«الحقيقة كـذب» و«الحرب سلام». و ليس من الصعب ان نتصور أي اشياء مظلمة لا تزال في انتظارنـا، لو استمرت الموسوعة البريطانية، كوصية للشقيق الكبير في مثل هذا التبديل للتاريخ!!! ان من يكتب عن البوسنة والهرسك بهذه الطريقة، انما يسير وفق منطق «المجرمون ابطال» و«الضحايا مذنبون» و«المدينة التي استولى عليها، ضمت»... الخ.

لقد كان جلال الدين الرومي يقول ان المفكر الذي لا اخلاق له، مخلوق جد خطر. فمعرفته لا يتطرق اليها الشك، لكنها اشبه بالشمعة في يد اللص، الذي سيسـرق ويزور المزيد على ضوئها!

هل في أوروبا ديانات وطنية وأخرى دخيلة؟

انتشرت في أواخر السبعينات من هذا القرن في المجلات الوطنية والأدبية في صربيا نظرية تقول بأن في أوروبا ولا سيما البلقان ديانات وطنية أصلية وأخرى دخيلة وذلك لادعاء بأن منطقة البلقان مسيحية فقط, وأن الإسلام واليهودية دخيلان عليها، وليس لهما فيها شيء مشترك. فهذه النظرية التي يروج لها في البلقان ليست صحيحة بل هي نظرية فاشية جعلت الإسلام المتجذر في هذه المنطقة دخيلا ومستوردا, وما على هؤلاء الدخلاء إلا الرحيل من المنطقة أو الموت.

لماذا قتلوا؟

لم تحظ فكرة الديانات الوطنية والدخيلة بالبوسنة والبلقان بأي نوع من الاهتمام إلا بعد أن حركت القوى الظالمة البركان الهائل من الدمار الموجه لا ضد مسلمي البوسنة والهرسك فحسب، بل ضد كل العناصر الإسلامية الأخرى بالبلقان (الألبان وغيرهم) إذ إن ما يقرب من ألف مسجد وما شابهها من المباني الدينية الأخرى دكت ودمرت حتى الآن. وكذلك هدم أيضا كثير من الكنائس والأديرة, ولا سيما الكاثوليكية منها.

تكمن حقيقة المأساة في موت الرجال والنساء والأطفال, كما حدث في البوسنة وكوسوفو, حيث قتل منهم ما يربو على مائتي ألف,

أغلبهم من المسلمين, من دون ذنب جنوه. وما دام الأمر كذلك فينبغي أن نعلم: لماذا قتل هؤلاء بالبوسنة وكوسوفو, ولماذا هدم أكثر من ألفين من المساجد والكنائس؟ مع أننا نرى أن ذلك لا يحتاج إلى تعريف وتخصيص لأن ذلك شيء معروف.

نسيان الهولوكست

لا تزال مسألة البوسنة والهرسك وكوسوفو أيضا وعامة المسلمين بالبلقان كائنة وستظل كذلك إلى الأبد، لأن الداعمين لنظرية الديانات «الوطنية» و«الدخيلة» بالبلقان وأوروبا ما زالوا يتحكمون بقوة في مصير هذه المنطقة، ولاسيما بلاد البوسنة والهرسك, ويعملون على تقسيمها ويهدمون تقاليدها التي تمتعت وتميزت بها في أوروبا.

وهؤلاء الداعمون ليسوا موجودين في البوسنة فقط، بل هم موجودون ومعروفون أيضا بمحكمة العدل الدولية بلاهاي؛ فضلا عن وجودهم معنا - يا للأسف - في وطننا المشترك أوروبا فتردد أوروبا في تقديم العون السريع للبوسنة والهرسك، بمختلف سكانها من المسلمين والكاثوليك والبروتستانت واليهود وغيرهم من الجنسيات الأخرى يجعلنا نعتقد أنها ربما نسيت بسرعة فائقة المأساة المسماة (الهولوكست)، والتي كانت نتيجة لنظرية الديانات المحلية والدخيلة بأوروبا. وأرجو أن تسمحوا لي بأن أعلق على تلك النظرية لكوني من البوسنة، مما يتيح لي أن أتحدث عن مواجهاتها الدينية التقليدية ودوافعها.

آسيا موطن الديانات

عندما نتمعن في فسيفساء أوربا الحالية نسأل بادئ ذي بدء: متى اعتنق الأوربيون دياناتهم؟ فمما يرد على الخاطر أن أغلبية أوربا كانت في المنظور الديني، مدة ألفي سنة، قارة «محتلة» أو«مستعمرة». إن ما ورد بدائرة المعارف الدينية الكبرى والتي أعدها الكاتب بيرجي اليادي يظهر بوضوح أن أوربا لم تكن وطناً أما لأي من الديانات العالمية.

إن كل الديانات العريقة الموجودة حالياً بأوربا وهي اليهودية والمسيحية والإسلام أتت من الشرق وبالتحديد من آسيا، من ذلك الكم الهائل من الديانات والكم الهائل من الشعوب. فالبلاد المقدسة والمدن المقدسة للديانات الحالية المعتنقة بأوربا، ليست بأوربا بل هي في آسيا. وكذلك الأنهار المقدسة والأحجار المقدسة والمؤلفات المقدسة للديانات العالمية الكبرى التي غزت أوربا، والتي استجاب لها الإنسان الأوربي وأعطاها ثقة روحية كلها ليست مولودة في قارته بل في آسيا.

إن الاعتقاد السائد بأن دور أوربا الديني حدد بطريقة أو بأخرى تاريخها هو اعتقاد لم يبن على أساس. ويمكن القول دون خشية الوقوع في خطأ كبير: إن أوربا أخرى حددت تاريخ أوربا. وفي سياق آخر إن أوربا ليست سوى النصف الثاني المهم من غرب شبه الجزيرة الأسيوية كما قال إديقار مورن.

اختلاف النظرية

إن الفروع الدينية الكبيرة وأمهاتها وتموجاتها التاريخية أخذتها أوربا في الغالب من الجانب الأسيوي . يقول في ذلك اللغويون: إن التجمع الأندوأوربي هو حقيقة العمود الفقري الذي نرى من خلاله كيف أن الشعوب الأوربية في الغالب تدين، حتى في تكوين جذورها البيولوجية الفقيرة ونهضتها التاريخية لشجرة الشعوب الأسيوية، ومن هنا ينبغي لنا أن نؤمن باختلاف نظرية الوطنية والدخيلة من الأديان بأوربا أو في أي مكان آخر.

من يؤمن بنظرية كهذه لا يمكنه التوقف أبداً بل سيبدأ التحدث في اللغات الأوربية المحلية والدخيلة والشعوب المحلية والدخيلة أيضاً... الخ. وأعتقد أنكم رأيتم من خلال كلماتي أساس تلك المعايير التي صارت البوسنة والهرسك من أجلها ضحية الداعمين للتمييز العنصري، الديني واللغوي... الخ . تلك المخططات الهدامة تجب معارضتها بل إيقاف نموها، وفي البوسنة ـ كما تعلمون ـ وقفنا في منتصف الطريق. إن تلك النظرية بالبوسنة لم يكن من السهل محاربتها وإيقافها ولو مؤقتاً بالقلم والمداد ؟ لقد رأيتم جميعاً كيف تحتم على العالم وقف بحار الدماء في الواقع الذي بني على فكرة الوطني والدخيل. ونحن نصف ما جرى لنعطي للعالم صورة واضحة.

أنا مسلم بوسني الهوية أود أن أقول: إن أوربا لا يختلف مسير معتقدها القديم والمؤسس روحياً عن أمها آسيا وهذا يعني أن أوربا كأمها آسيا قارة للإسلام والبروتستانت والكاثوليك وفي

المستقبل من المحتمل للبوذيين فالورقة لا بد لها من فرع والفرع لا بد له من الشجرة والشجرة لا بد لها من جذور!!

كانت آسيا قارة مسيحية حتى ظهر الإسلام. وبعد ظهوره انتشر بسرعة فائقة بأوربا وظل الحال كذلك إلى ظهور ما يسمى بأسبانيا المسلمة (الأندلس) وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تريد أوربا أن تحتفظ لنفسها بوضع القارة المسيحية الفريدة على الرغم من أن شعوبها ذات الأصول الأوربية من أمثال البوسنيين والألبان والبوماكيين عاشت بأرضها وهم يدينون ـ في الغالب ـ بثقافتهم ومعتقداتهم لدين واحد ومحدد ذي نغم روحاني بسماته الأوربية الإسلامية، هذا الدين الذي كيف نفسه بمرور القرون للعيش تحت شمس أوربا. إن الذي ينظر إلى أوربا نظرة المسيحية فقط أي أن الأوربي يساوي مسيحي) لا شك أنه يخالف تاريخها في كثير من الحقائق، بل يخالف كذلك جل تاريخها الحديث فهذا الشخص يتصرف مثل المؤرخين الراديكاليين المسلمين الذين يتجاهلون وجود أكثر من عشرين مليون عربي مسيحي، وهذا يعني أن كونك عربياً لا يعني أبداً أنك مسلم.

أرجو السماح لي بأن أطرح عليكم حقيقة واحدة عن القرآن وترجمة القرآن بأوربا.

اتجاهان غير متعاكسين

منذ أن ترجم روبرت تون معاني القرآن الكريم للمرة الأولى باللغة اللاتينية عام ١١٤٣م وكان هدف ترجمته التضليل ظل القرآن أكثر الكتب ترجمة في العالم ووجدت عشرات الترجمات للقرآن من إنجليزية وألمانية وفرنسية وإسبانية وبوسنية ...الخ .

ومنها ما أعيد طبعه عدة مرات مما يبرهن على أن أوربا لا يمكن أن تفارق الإسلام والإسلام لا يمكن أن يفارق أوربا كما لا يمكن فصلهما عن البحر الأبيض المتوسط ولا فصل البحر الأبيض المتوسط عنهما.

تدل تلك الترجمات على شغف أوربا المنقطع النظير بالإسلام الذي سجل حضوره وأثبت وجوده بحيث لا يمكن وصفه بالديانة الدخيلة في أوربا.

فالكثير من تلك الأعمال يتحدث عن أن أوربا كظاهرة جغرافية والإسلام كظاهرة دينية لا يقعان في اتجاهين متعاكسين وهما لم يكونا كذلك حتى في التاريخ ، فأوربا هي وطن المسلمين بغض النظر عن تسميتهم (مسلمي أوربا الإسلامية المسلمين بأوربا) وبغض النظر عن تسمية أوربا لهم في هذا المفهوم (المسلمين في أوربا ، أوربا الإسلامية ، وطن الإسلام الأوربي).

ويجب علينا أن نعود لنرى الكثير من الشرقي والكثير من الغربي في وقت واحد في جميع أنحاء العالم .يجب علينا تطبيق ذلك الضمير الحواري النير من أجل عمل مستقبلي جيد لأن الشرق المسلم لا يعني نفي الشرق المسيحي والشرق اليهودي ولا من المفترض أن عقيدة الغرب المسيحي تؤكد نفي الإسلام الغربي ولا يهودية الغرب .الأديان العالمية ذات الصلة أيضاً يتحتم عليها المثول بوضوح في المجالات المخصصة دينياً وصفحات العالم المخصصة دينياً أيضاً. لماذا أصر على ذلك لأن هنالك كثيراً من القصور في ترجمة اليوم والأهم من ذلك ممارسة عالمية أوربا والغرب. وهذه العالمية تعني للبعض (شخصاً آخر ، وشيئاً آخر) داخل ما

يسمى (الدائرة الأوربية العالمية) المسيحية في تلك المجالات العالمية تحسب ديانة أوربية يدين بها الأوربيون والغربيون .

ألاحظ بوصفي مسلماً أن تلك الأفكار والمخططات هي موجهة قبل كل شيء ضد المسيحيين ومن الخطر الوقوف ضد حقيقة صحة عالمية روحها.

النظرية والواقع

إذا أخذ في الحسبان عمر الإنسان في الأرض أمكن القول بأن الإسلام دخل أوربا بالأمس وهذا لا يعنى أي شيء آخر غير أن المسيحية في أوربا جاءت قبله بيوم واحد (أي قبل البارحة) هذه هي بطريقة مبسطة مسيحية القرن العشرين وإسلام القرن الرابع عشر كما يمكن أن يكون ، نأمل أن ينتفع بها أولئك الذين لا يؤيدون طاردي الأديان الذين يؤمنون بأن المجال لا يسع إلا ديناً واحداً فقط.

أوربا الحديثة ، وبالأخص أوربا خلال الحرب العالمية الثانية ، أسست مخططاتها للنمو والتقدم على العالمية التي يفهم منها : تعددية الأجناس ، وتعددية الأديان ، وتعددية الثقافات، وباختصار تعددية مطلقة ومعلنة في كل المجالات تجري وراء سعادة الإنسانية التي يتطلع إنسان اليوم إلى المشاركة فيها. ولكن استئصال البوسنة التقليدية من قلب أوربا لا تراه عملاً عدوانياً ومخالفاً لإعلاناتها الحديثة ومبادئها ، ولا سيما أساس قواعدها اليوم. وهو بالفعل يمثل عدم فهم حقيقة العالمية. ونحن نفهم أن حقيقة

معنى العالمية هي الوجود الجماعي المشترك لتلك الديانات والثقافات التي لا تنتمي إليها، هي ملازمة لديانتنا وثقافتنا. لتكون ذا نظرة عالمية دينية ينبغي أن تعيش محترماً لنظرة الآخرين واعتقادهم معترفاً لهم بحقهم في السعي للسعادة في هذا العالم والعالم الآخر .

التنبؤ (بصراع الحضارات) يجب أن يستبدل به مفهوم التعايش الجماعي السلمي بالأرض . ملايين المسيحيين بمصر والعراق ولبنان وسوريا وشمال أفريقية وملايين المسلمين في فرنسا وبريطانيا العظمى والبوسنة والهرسك ..الخ يتوقعون من حوار البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي حماية حق عبادة الله ـ عز وجل ـ من قبل مختلف شعوب الأرض .

هل «الإسلام الأوروبي» أمر مثالي غير قابل للتطبيق، أم أنه فرصة واقعية للإسلام ولأوروبا؟

تعتبر عبارة «الإسلام الأوروبي»، حديثة عهد بالاستخدام في اللغة الإنكليزية وغيرها من اللغات الأوروبية، ومن النادر أن نجدها في مؤلفات المستشرقين وخاصة القديمة منها، بينما نجد في المؤلفات القديمة أحيانا عبارات بالإنكليزية أو الألمانية مثل: «أسبانيا المسلمة» (The Moslem Spain) و(Die Muslimische Spanien)، أو «أسبانيا الإسلامية» (The Islamic Spain) و(Die Islamische Spanien). كذلك من النادر جدا أن نجد عبارة «الإسلام الأوروبي» في اللغة العربية، وإنما نجدها تحت تأثير المؤلفات الأوروبية كترجمة حرفية لعبارة «أورو إسلام»، مما يشير إلى مصدرها الأجنبي.

غير أن عبارة «الإسلام الأوروبي» ليست مجرد مسألة اصطلاحية، كما أنها ليست مصطلحا ذا صبغة سياسية أو أيديولوجية أو دينية أو غيرها. ربما يكون من الأفضل القول بأن الشكوك والغموض حول عبارة «الإسلام الأوروبي» تدل، في البداية، على حيرة أولئك المسؤولين عن إيجاد التعريف الأوروبي أو التعريف للاستخدام الأوروبي، لظاهرة يتزايد ظهورها اليوم بشكل لم يسبق له مثيل، كيفاً وكمّاً، ألا وهي ظاهرة الإسلام في أوروبا.

وعليه فإن «الإسلام الأورو بي» يعتبر قضية سياسةٍ وأيديولوجيةٍ، وثقافةٍ وحضارةٍ، بل هو أيضا مسألة الحياة الاجتماعيةً في أوروبا.

من هنا، فإن من أهم الأسئلة المطروحة أمام العلوم الاجتماعية الأوروبية هو، هل سيحصل «الإسلام الأوروبي» على مكانته وحقوقه المدنية، ليس داخل تلك العلوم فحسب، بل وفي الحياة الأوروبية الواقعية؟ وما الوسائل لحصوله على تلك المكانة؟ وهناك أيضا مشكلة العقبات التي تعيق حصول «الإسلام الأوروبي» على حقوقه المدنية.

وموضوعنا هذا مخصص فقط لبعض جوانب الفهم للظاهرة الْمُسَمَّاة ـ بحق أو بدون حق ـ «بالإسلام الأوروبي»، ولما يتبع هذه الظاهرةَ. وبعبارة أخرى خُصِّصَ هذا المقال للمنادين «بالإسلام الأوروبي» وتطبيقاته وبرامجه ومعانيه.

ما «الإسلام الأوروبي»؟

هناك عدة تعريفات «للإسلام الأوروبي»، ويكمن سبب عدم وجود تعريف واحد يتبناه المسلمون، وتتقبله الحكومات الأوروبية، في اختلاف الفئات المهتمة بتعريف «الإسلام الأوروبي».

الأوربيون النصارى، العاملون في الدوائر الحكومية التي تشرف على شؤون المسلمين الأجانب، يرون «الإسلام الأوروبي» مشروعا لأوْرَبَة الإسلام والمسلمين بصورة إنتاج شكل من «الإسلام المدني»، «الإسَلام العَلْمَاني»، «الإسلام الذي يُطَبَّق» على مستوى الثقافة

اللادينية... وباختصار يتمثل هدفهم في صياغة الإسلام على طريقة «الإسلام الأوروبي»، أي إيجاد إسلام مظهري كما يرغبه المجتمع الأوروبي، بحيث لا يزعج عيون أوروبا.

ومن هذا المنطلق تم التعامل مع «الإسلام الأوروبي» بصورة نفعية أدت إلى ظهور العديد من التعريفات «للإسلام الأوروبي».

أنوه بداية بأن هذا البحث لن يعالج التاريخ، لأن موضوع «الإسلام الأوروبي» غير مخصص للبحث في قضية وجود الإسلام طوال ثمانية قرون، في أسبانيا مثلا، (كحضارة ومجتمع وثقافة ودين وقوانين...)، رغم أن هذا في الحقيقة كان «إسلاما أوروبيا»؛ بحيث يعتبر الكثير من علماء التاريخ وبلا استثناء تلك الحقبة، إضافة إلى الخبرة الإسلامية في البوسنة والبلقان، بأنها تمثل التجربة الوحيدة للتطبيق الحقيقي والوجود الحضاري والثقافي «للإسلام الأوربي».

ولكن تلك الصفحة البعيدة من «الإسلام الأوروبي» قد طويت، والكتاب الذي توجد فيه هذه الصفحة قد انطوى أيضا منذ أمد بعيد.

وعلى كل حال، فإننا هنا سوف نستخدم عبارة «الإسلام الأوروبي» في صورة مختزلة من حيث التعريف النظري للوجود الحاضر المتعدد الطبقات للإسلام في القارة الأوروبية.

الإسلام الأوروبي ليس مجرد مسألة جغرافية

من المفيد عند الحديث عن «الإسلام الأوروبي»، أن نطلع على شيء من المعلومات حول عدد المسلمين في أوروبا. (هذه

المعلومات أخذت عن نشرة: الإسلام في أوروبا، نيويورك، ١٩٩٧م)، والأرقام بين الأقواس تمثل السنة التي تم فيها تقدير عدد المسلمين في أوروبا:

ألبانيا (١٩٩٠)	١٧٥٠٠٠
النمسا (١٩٩٠)	٦٢٠٠٠
بلجيكا (١٩٩٠)	٢٤٤٠٠٠
بلغاريا (١٩٧٨)	٧٥٠٠٠٠
الدنمرك (١٩٩٠)	٦٠٠٠٠
الجزء الأوروبي للاتحاد السوفييتي السابق (١٩٨٥)	١١٥٠٠٠٠٠
فنلندا (١٩٨٠)	١٥٠٠
فرنسا (١٩٩٠)	٢٦١٩٠٠٠
اليونان (١٩٨١)	١٤٠٠٠٠
هولندا (١٩٩٠)	٤٤١٩٠٠
إيطاليا (١٩٩١)	٢٥٠٠٠٠
يوغسلافيا السابقة (١٩٨٨)	٢٤٥٠٠٠٠
المجر (١٩٧٧)	٣٠٠٠٠
النرويج (١٩٩٠)	٢٠٠٠٠
ألمانيا (١٩٩٠)	٢٠١٢٢٠٠
بولندا (١٩٧٧)	١٥٠٠٠
البرتغال (١٩٧٥)	٣٠٠٠٠
رومانيا (١٩٧٩)	٣٥٠٠٠
أسبانيا (١٩٩٠)	٤٠٠٠٠
السويد (١٩٨٩)	٦٠٠٠٠
سويسرا (١٩٩٠)	٧٨٠٠٠
بريطانيا العظمى (١٩٩١)	١٠٠٠٠٠٠

وعليه فإن إجمالي تعداد المسلمين في تلك الفترة، أي حتى سنة (١٩٩١م) يبلغ حوالي ٢٣ مليونا و٦٠٠ ألف مسلم.

وستكون هذه الأرقام ذات أهمية بالنسبة لعلم الإحصاء فيما لو أضيفت إليها المؤشرات الأخرى الخاصة بالمسلمين في أوروبا مثل: بلد المنشأ، العمر، المؤهل العلمي، الانتماء السياسي، درجة الالتزام بالدين، الحالة الاقتصادية وغيرها من المؤشرات ... ومع الأسف لا توجد معلومات دقيقة عن هذه المؤشرات على صعيد القارة الأوروبية بأكملها.

وسيمر الكثير من الوقت قبل أن تعرف الحقائق الأولية عن سكان أوروبا من المسلمين. ويستطيع المسلمون أن يتعلموا الكثير من يهود أوروبا، ولو من جانب «السهر الإحصائي» على متغيرات الهجرة والسكان بين صفوف أتباع شريعتهم. ولكن هذا موضوع مستقل نتركه لمناسبة أخرى.

ولقد أوردنا الأرقام السابقة (والقديمة) كمعلومة مجردة، إذ أنها لا تفيد الكثير في غياب المؤشرات الأخرى.

لكن، عند النظر في عبارة «الإسلام الأوروبي» من حيث المبدأ، فإن أول ما يخطر ببالنا هو مشروع «وضع الإسلام في إطار القارة الأوروبية» وبعبارة أخرى، «فالإسلام الأوروبي» يمثل مشروعا يُعرِّف ويصف ويحدد ويجسد الإسلام ضمن نطاق المفهوم الأوروبي القاري والثقافي والسياسي الخاص، هذا من جهة، ومن الجهة الثانية، «الإسلام الأوروبي» يمثل ـ في نفس الوقت ـ مشروع «أسلمة» خاصة لأوروبا، بغض النظر عما توحيه كلمة «الأسلمة» للسامع من ضخامة وخطورة. ويبدو بوضوح تام أن عبارة «الإسلام الأوروبي» صيغت على «التفرع» من اسم القارةِ الأوروبية

التي بدأت في القرنين السابع عشر والثامن عشر لميلاد عيسى عليه السلام، تأخذ الموقع المركزي في تاريخ العالم سياسيا وثقافيا وحضاريا. وتشتمل العبارة أيضا على اسم دين، وهو الإسلام. ودين الإسلام بحد ذاته غير مرتبط بقارة بعينها، ولا تحدده قارة من القارات، حتى ولا الشعب الذي حمله إلى سدة التاريخ، أو الشخص الذي أقامه، كما أن الإسلام، إضافة إلى جميع ما ذكرناه غير محدد بأي من المضامين التاريخية والجغرافية الأخرى. فالإسلام (الخضوع والاستسلام لله) بداية ـ وعلى مستوى علم المصطلحات ـ يشع بالوظائف الكونية. فإذا قارنَّا عبارة «الإسلام الأوروبي» مع عبارة «الهندوسية الأوروبية» مثلا، سنجد بأن العبارة الأولى «الإسلام الأوروبي» تضعنا أمام الإسلام كدين شامل يسعى ليجد مكانه ويحقق شموليته في البيئة الأوروبية المعاصرة، وهذا يعني بأن هذه شمولية (إسلامية) تحظى بتحقيق وتطبيق (أوربي).

ويختلف الحال ـ افتراضيا ـ مع «الهندوسية الأوروبية»، إذ يصعب علينا توضيح ماهيتها، وتتمثل هذه الصعوبة وكأننا نحاول نقل القارة الهندية ومطابقتَها على القارة الأوروبية، ولهذا السبب لا يوجد «هندوسية أوربية» وهي أمر غير ممكن، بينما من الممكن جدا وجود «إسلام أوروبي».

من هذا المنطلق تبرز من عدة جوانب أهمية مشروع «الإسلام الأوروبي»، الذي ما يزال في المراحل الأولى من نشأته، ولكنه في الدراسات والأبحاث الجديدة يحظى بالكثير من الاهتمام والتحليل المصبوغين بمختلف أنواع الصبغة والشروح.

ومنذ أن ولدت هذه العبارة قبل أعوام قليلة، استقطبت اهتماما كبيرا لدى مختلف الجهات وخاصة عند جهتين في منطقة حوض

البحر الأبيض المتوسط، أولاهما الجهة المسلمة العربية التركية، والثانية الغربية النصرانية ولا سيما في فرنسا وألمانيا وبريطانيا العظمى.

وفي الجانبين الأوروبي والإسلامي يوجد شروح «للإسلام الأوربي» تتميز بالحيوية والنشاط بل وبالانشراح أيضا، ولكن يوجد في كلا الطرفين أيضا أناس يرفضون مشروع «الإسلام الأوروبي» ويرون فيه نوايا خفية وينظرون إليه بأنه عمل تآمري، ومن هؤلاء مَن يرى «الإسلام الأوربي» مؤامرة موجهة ضد أوروبا، بينما يراه البعض تآمرا على الإسلام ومحاولة لتحريفه.

لكن «الإسلام الأوروبي» لا ينحصر في «جغرافيته»، بل هو ظاهرة شاملة عامة تتعلق قبل كل شيء بالدين والإيديولوجية في أوروبا، وبالثقافة والحضارة، والأفضل أن نقول بأنه ظاهرة تتعلق بالثقافات المختلفة والحضارات المتنوعة في أوروبا، وخاصة بحضارة التعايش المشترك بين العديد من الأديان في مدينة أوروبية واحدة، بل في قطر واحد على أرض القارة الأوروبية...

لقد بينا ـ إلى حد كبير ـ فيما سبق حجم ونوع العقبات التي نواجهها عند رغبتنا أن نتحدث بمصداقية وجدية عن تعريف «الإسلام الأوروبي»، و خاصة عن التباين في شرح «الإسلام الأوروبي» في حالات الضرورة القصوى.

إن أوروبا اليوم مهتمة بالتعددية، وخاصة ذلك الجزء من أوروبا الذي يرغب بالقضاء على الفاشية والشيوعية، ومما يبعث على السرور بأن قضية «الإسلام الأوربي» أصبحت موضع الاهتمام والدراسة الجادة في العديد من الجامعات الأوروبية، لاسيما وأن أوروبا في تاريخها الطويل عانت كثيرا من تنافر الأديان على أرضها باستثناء

بعض الأجزاء من القارة الأوروبية مثل أسبانيا حتى سنة ١٤٩٢م، ومن ثم البوسنة ومناطق أخرى من البلقان التي أوجدت فيها الإمبراطورية العثمانية ظاهرة يمكن تسميتها بالحلف العثماني.

الكثير من الخبراء والعلماء المهتمين بظاهرة العلاقة بين الإسلام والغرب، يقدمون الأسباب التي منعت أوروبا من أن يكون لها خبرات طويلة الأمد بالعيش في جو من التعدد الديني. ويقول أكمل الدين إحسان أوغلو: «عبر التاريخ، امتاز الشمال الأفريقي ودول شرق المتوسط والأناضول بسكان السواحل المحبين للكون بكافة عوالمه، بينما كانت مناطقها الداخلية مكان التقاء للشعوب من الرحَّل والحضر الذين اختلفت أصولهم الثقافية والدينية. والحال نفسه نجده في شرق وجنوب شرق آسيا. وأوروبا من جهتها، حافظت على سِمَتها النصرانية خلال معظم تاريخها. والاحتكاك الأوروبي المباشر مَعَ باقي العالم كان في الغالب يحدث خارج القارة الأوروبية. لهذا السبب، كان الأوربيون تاريخيا أقل تعودا على التأقلم في بلادهم مع الأجانب».

والأستاذ أكمل الدين إحسان أوغلو محق فيما يقول، لأننا اليوم نجد الرفض «للإسلام الأوروبي» يأتي من تلك الدوائر في أوروبا التي لم تتعود على الغير والمختلف. واستنادا إلى الكم الضخم من المنشورات والمطبوعات والكتب وغيرها، المعادية للمسلمين والإسلام في أوروبا في العقدين الأخيرين نجد أن المعادين «للإسلام الأوروبي» هم من المواطنين الأوروبيين الذين لم يتحولوا إلى مواطنين كونيين، بل هم مصرون على المركزية الأوروبية في جميع جوانب الحياة السياسية والفلسفية والثقافية... والحضارية.

وللتوضيح سنأتي ببعض الأمثلة للعبارات الأوروبية الحديثة

المعادية للإسلام والمسلمين، منها ما صرح به وينستون تشرتشل عضو البرلمان البريطاني (وهو حفيد وينستون تشرتشل رئيس الوزراء البريطاني الشهير) لصحيفة الغارديان إذ قال إنه بعد خمسين عاما «سيدعو المؤذن المؤمنين بالله من على مآذن المساجد في شارع هاي ستريت»، مشيرا بذلك إلى هجرة المسلمين «غير المحدودة» إلى بريطانيا.

كذلك جان ماري ليبين الذي يقود حزبا نازيا يدعى (الجبهة القومية) في فرنسا فإنه ينادي «بإيقاف أسلمة فرنسا». أما زميله في الاعتقادات المناهضة للإسلام فرانس شون هوبر (وهو قائد للجناح اليميني في الحزب الجمهوري) في ألمانيا فإنه يقول: «لن ترفرف راية الإسلام الخضراء أبدا في سماء ألمانيا». وهذا المعنى يتضمنه الشعار الانتخابي للحزب التقدمي الدنمركي ونصه: «الدانمارك بدون مسلمين». إنه بإمكاننا أن نورد الكثير من هذه الأمثلة ولكن هذا ليس هدف هذا البحث.

وفي معرض دراسته للحملة المعادية للإسلام والمسلمين في أوروبا، اكتشف هنري لويس غيتس أن كلمات «الدليل على العامل المسلم تعيد إلى الذاكرة لغة النقاش والحوار حول (المسألة اليهودية) في إنكلترا قبل قرن ونصف من الزمن».

بشكل عام نجد وضع الإسلام في وسائل الإعلام الغربية سيئاً للغاية، «في وسائل الإعلام يوجد انتشار واسع للصورة السلبية للإسلام». وقد ألف الكاتب الشهير إدوارد سعيد حول التغطية الإعلامية للإسلام كتابا سماه «تغطية الإسلام» (كيف تتحدث وسائل الإعلام عن الإسلام).

هناك عدة أسباب قام إدوارد سعيد بتحليلها في معرض شرحه للتهويش وإضرام نار المواقف السلبية من الإسلام والمسلمين في أوروبا، ولكن من الأهمية بمكان أن ننوه بأنه في هذا يرى فقط شكلا جديدا للاستشراق، فحسب رأيه إن الاستشراق عبارة عن «نظرية أوروبية تخدم وتبرر السيطرة الأوروبية والغربية على الشرق». والشرق في سياسة وأيديولوجية الاستشراق هو عبارة عن شرق اصطناعي تم إنتاجه لتلبية الأغراض الأوروبية (الاستعمارية وما بعد الاستعمارية).

ولذلك يؤكد سعيد على أن عرض الإسلام والمسلمين في الغرب اليوم ليس إلا نتيجة لصورة تم إنتاجها عن المسلمين وعن «الشرق» لتخدم المصالح المحلية.

مئات المجلات والمؤلفات عن الإسلام أدت إلى رد اسمه «الإسلام الأوروبي»

مما لا جدال فيه، يوجد اليوم المئات من المجلات والكتب والدراسات ومقالات الصحف التي تعالج قضية الإسلام في الغرب. وهذا يشير بوضوح تام إلى أن قضية الإسلام في الغرب ليست مجرد مسألة جغرافية متمثلة في عبارة «الإسلام الأوروبي»، بل هي عند الكثيرين تمثل مضمونا جديا ـ عاجلا عند الكثيرين ـ ينبغي تعريفه وتحديده بشكل صحيح ومتابعته ـ كظاهرة ـ وتقديم التفسير الملائم والسليم لها.

ويمكننا القول بأن لهذه المئات من المؤلفات عن الإسلام في الغرب دوافع مباشرة، كانت منها فضيحة «سلمان رشدي» التي

أنتجت المئات من الكتب المعادية للإسلام، وعندما أحرق بعض المعارضين لسلمان رشدي كتابه في مدينة برادفورد، (وهذا بالطبع كان فعلا غير لائق يستحق الإدانة)، امتلأ الغرب بالألفاظ النابية المتهمة للمسلمين، حتى وصل بهم الأمر إلى تشبيه المسلمين بالنازيين.

في تلك الآونة كان المسلمون يوصفون بالتخلف والتعصب، وفي أكثر الأحيان كانت توجه إليهم التهم المعروفة بأن ذلك «ناجم عن طبيعة دينهم».

وإذا كانت البلاد المتحدثة بالإنكليزية بشكل خاص قد اجتاحتها حملة شديدة معادية للإسلام بسبب فضيحة سلمان رشدي، فإن البلاد المتحدثة بالفرنسية قد عادلت ذلك في عامي ١٩٩٤م و١٩٩٥م بحملة «المناديل» التي ضخمتها وسائل الإعلام بشدة، بحيث اتخذت المئات من المدارس في فرنسا موقفا معاديا ضد الطالبات المسلمات اللواتي يرتدين الحجاب، حتى وصل بهم الحال في بعض الأماكن إلى إصدار أوامر تحظر ارتداء الحجاب في المدارس.

وفي كتابه (الأقلية المسلمة في الغرب ـ لندن ١٩٩٥) يهزأ ضياء الدين سردار من قضية «المناديل» في فرنسا، ويشير بشيء من السخرية إلى الآتي:

«وحسب رأيهم، فالمرأة الفرنسية تبرز أناقتها عندما تضع المنديل على رأسها، ولكن المرأة المسلمة عندما تغطي رأسها بنفس المنديل فإنها تمثل خطرا يهدد الحضارة».

لقد حذر الكثير من أصحاب الرأي، سواء من النصارى أو اليهود أو المسلمين في الغرب، من الأضرار التي يمكن أن تلحق بالديموقراطية الفرنسية العريقة بسبب ما يسمى «بفضيحة المناديل».

قبل عدة أعوام، وخاصة في خضم الأحداث التي جعلت هاتين الفضيحتين تملآن أعمدة الصحف وصفحات المجلات، في نفس الوقت صدر المئات من الكتب ونُشرت الآلاف من المقالات وبُثَّت المئات من البرامج التلفزيونية، جميعها هدفت إلى إظهار المسلمين في أوروبا بصورة قاتمة سيئة منبوذة وبأنهم «عنصر غير أوروبي».

بالطبع يوجد عدد كبير من الصحفيين الغربيين الذين كانوا وما زالوا يعارضون الهجمة الإعلامية المعادية للإسلام. مثلا، في مقدمة جريدة الإندبندنت البريطانية بتاريخ ١٩/٦/١٩٩٣م، كتبت تلك الجريدة عبارة: «ليس من السهل اليوم أن يكون المرء مسلما في أوروبا»، وكما نرى فإن تلك الجملة كتبتها الصحيفة سنة ١٩٩٣، عندما كانت الصحف الأوروبية مليئة بالأخبار التي تتحدث عن (الطريق المسدود الذي يعيش فيه مسلمو البوسنة).

وكتب «جيل كبل» عن الكثير من المتناقضات للفضائح المعادية للإسلام والمسلمين في الغرب، وكذلك عن القضايا المعادية للغرب التي أنتجها المسلمون في المهجر. وفي كتابه «الله في الغرب» الذي صدر بالفرنسية وترجم إلى الإنكليزية وصدر في ستانفورد سنة ١٩٩٧، يركز على الحركات الإسلامية في أمريكا وأوروبا، و يتحدث أيضا عن الكثير من المشاكل التي تواجه المسلمين في الغرب، وعن المشاكل التي يعاني منها الغرب في احتكاكه بالمسلمين.

ونضيف أيضا بأن الإسلام ـ استنادا إلى الشكل الذي يتعامل به معه عدد كبير من المؤسسات الغربية ـ يُعرض بأنه «العدو الجديد

للديموقراطيات الليبرالية في الغرب»، وبلغ ذلك ذروته في الدراسة السخيفة التي قدمها صموئيل هنتنجتون بعنوان (صدام الحضارات) الذي كثر الحديث عنه في بلادنا.

الثورة الإسلامية في إيران، المشاعر المناهضة للغرب بعد الأحداث الدامية في الجزائر، الصراع بين اليهود والفلسطينيين، ازدياد عدد المهاجرين المسلمين إلى أوروبا (تفيد أحدث الإحصائيات بأن عدد المسلمين في أوروبا من الأصليين والوافدين قد بلغ حوالي ٢٥ مليونا)، الإبادة العرقية الجماعية التي تعرض لها مسلمو البوسنة، بالإضافة إلى كثير من البرامج الإعلامية المعادية التي يتم تضخيمها على الدوام، والتي مثلا تظهر المسلمين بأنهم «ذباحون يذبحون النعاج والماعز في عيد الأضحى»... كل هذا كان أحداثا مصيرية دفعت جماعات المسلمين في أوروبا، والدول الأوروبية أيضا إلى التفكير بوضع المسلمين في أوروبا. ودفعتهم ليبحثوا عن «النظرية ـ المخرج» التي ستؤدي بأسلوب مقبول وذكي إلى صياغة مستقبل الإسلام والمسلمين في أوروبا، وكذلك مستقبل أوروبا مع المسلمين والإسلام باعتباره ثاني أكبر دين في تلك القارة.

وفي هذا الميدان يُقدَّم «الإسلام الأوروبي» كنظرية ومشروع يمتلك كافة عوامل النجاح.

ويلاحظ في جانب المسلمين الأوروبيين تغير في الوعي، حيث أن المأزق الذي وقع فيه المسلمون الأوروبيون تمخض عن «الوعي الذاتي الجديد للمسلمين الأوروبيين» وهذا يبدو من خلال العديد من المؤلفات، وهذه الظاهرة غالبا ما تحدث في أوقات الشدة.

المسلمون في أوروبا، في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، أخذوا على عاتقهم مهمة تحديد وضعهم الأوروبي. وهذا الوضع لا يمكن تحديده في غياب الهوية الواضحة. وقد أطلق الكثيرون عبارة «الإسلام الأوروبي» على تحديد وتبرير تلك الهوية، وهذا يدل على الآمال التي تتضمنها هذه العبارة.

إثبات الهوية الأوروبية المسلمة هي حسب رأي الكثيرين المهمة الرئيسية للإسلام الأوروبي

إن قضية الحفاظ على الهوية الإسلامية، بل والقومية والثقافية للمسلمين في أوروبا، تعتبر الموضوع المحوري البالغ الأهمية خاصة للجيلين الثاني والثالث من أبناء المسلمين في تلك القارة. وهي كذلك المسألة الجوهرية في كافة النقاشات حول «الإسلام الأوروبي».

على سبيل المثال، هل الطلاب المسلمون المولودون في بريطانيا ويحملون جنسية بريطانية، وآباؤهم باكستانيون أو بنغلادشيون، هل هؤلاء الفتيان والفتيات بريطانيون، أم أنهم بطبيعة الحال مسلمون أوروبيون؟ لأن لغتهم إنكليزية، ونادرا ما يتقنون لغات آبائهم وأجدادهم كالأوردو والبشتو والبنغالية وغيرها.

والأمر نفسه ينطبق على الأجيال الشابة المسلمة من أصول تونسية أو مغربية في فرنسا. إنهم مسلمون بالانتماء الديني وفرنسيون باللغة، بل نجد في بريطانيا وفرنسا أعمالا أدبية ممتازة لأبناء الجيلين الثاني والثالث.

كل هذه الأمور تعتبر أجزاء هامة في مسألة الهوية، وموضوع البحث عن الهوية عند الأوروبيين المسلمين اليوم، يضع البصمات الأخيرة على قضية تعريف «الإسلام الأوروبي».

هناك قضايا كثيرة مطروحة للبحث أمام الشباب من الأوروبيين المسلمين، وخاصة المشاكل الظاهرية «لإسلامهم الأوربي». وسنعرض هنا أهم تلك المشاكل:

- الاندماج الفعال للمسلمين في المجتمعات الأوروبية؛
- مشاركة المسلمين في دائرة الحياة العامة؛
- مشاركة المسلمين في العمل السياسي؛
- المشاركة في الإدارة المحلية والوطنية (هنا نواجه السؤال المحرج حول التمثيل الديموقراطي، بمعنى أي الفئات سيمثلها المسلمون المنتخَبون؟ هل سيمثلون المسلمين فقط أم عامة المواطنين؟)؛
- المشاركة المتساوية في التعليم (كمدرسين وطلاب وغيرهم)؛
- الحَيِّز الملائم والحقيقي في وسائل الإعلام؛
- المدارس والمؤسسات الثقافية المستقلة؛
- الخدمات الغذائية، ومتاجر اللحوم (الغذاء واللحم الحلال)؛
- المقابر المستقلة وغيرها من المواضيع ذات الأهمية لحياة المسلمين في أوروبا.

من البديهي أن إنشاء وفتح المساجد، وبجانبها المكتبات الإسلامية ومتاجر الكتب والأندية وغيرها، يعتبر واحدة من أهم المشاكل التي يواجهها المسلمون الأوروبيون. فالمسجد مع البيت

المسلم يعتبر من أهم وسائل بناء الهوية الثقافية الإسلامية. ولكن مسألة المسجد ومكانته في القارة الأوروبية تحتاج إلى نظرة خاصة.

بينما المسلمون الأوروبيون الأصليون (البوشناقيون والألبانيون والتربشيون والبوماكيون) لا يعانون من مشكلة الهوية القومية والثقافية كأهم أولوياتهم، (إنهم يعانون من مشاكل هامة أخرى، وعلى رأسها مشكلة الدولة، ومعها مسألة البقاء)، نجد المسلمين الأوروبيين في الغرب، وخاصة منهم المهاجرين سعيا وراء لقمة العيش، يمرون عبر ما يمكن تسميته بالمرحلة اليهودية في أوروبا، تلك المرحلة التي ناضل فيها اليهود الأوروبيون من أجل المؤسسات التي يحفظون من خلالها هويتهم الدينية والثقافية.

الحكومات في أوربا الغربية كانت غالبا ما تقع في الحيرة والدهشة بسبب مطالب المهاجرين المسلمين، سواء المتعلقة منها بالعمل، أو تلك المطالب ذات الطبيعة الثقافية والسياسية (اللباس والطعام الإسلامي والتعليم والمشاركة في السياسية والحيز الإعلامي، وغيره).

وبسبب احتكاكها الحي مع الجاليات المسلمة والجماعات الإسلامية في أوروبا، عمدت الحكومات الأوربية الغربية منذ أمد بعيد إلى إيجاد حل «للمسألة الإسلامية» ضمن إطار صلاحياتها، ولكن عددا كبيرا من تلك الحكومات كان يصبو إلى أن تحصل في أرضها على شريك واحد (بمعنى: هيئة إسلامية مُوَحَّدَة) الأمر الذي لم يتحقق أبدا بسبب قدرة المسلمين الخارقة على عدم التوحد.

كذلك، الهيئات والجماعات الإسلامية في أوروبا كانت كثيرا ما توجه الاتهامات ضد الدول الأوربية الغربية وحكوماتها متهمة

إياها بأنها تشجع على الفرقة والانشقاق بين تلك الجماعات الإسلامية. (وهي في ذلك محقة بصورة كبيرة). وغالبا ما يعبر المسلمون بصراحة عن عدم ثقتهم بمشروع «الإسلام الأوروبي» وذلك بسبب شكوكهم في نتائجه النهائية.

في منتصف التسعينات كثر استخدام عبارة «الإسلام الأوروبي»، وبدأ بالظهور المشروع الذي يحاول صياغة الرأي العام المسلم المستقل في أوروبا، إلى جانب وسائل الإعلام المسلمة والإسلامية المنظمة التي ستحترم أوروبا وتقدمها للمسلمين الأوروبيين كوطن مسلم لهم وقارة تضمن لهم مستقبلهم، وكبيئة تضمن للمسلمين والإسلام تطورا آمنا ومتساويا، حسب ما تكفله الإنجازات الديموقراطية الإيجابية السائدة والمؤسسات الثقافية المنفتحة، وكذلك الجمعيات والهيئات المختلفة (الدينية والثقافية والعلمية والتعليمية).

لقد حصل مشروع «الإسلام الأوروبي» على القبول عند الطبقة المتوسطة من المسلمين (رجال الأعمال، المحامون، مصممو الأزياء، أساتذة الجامعة، والتجار). ولكن التوصل إلى صياغة ذلك «الإسلام الأوروبي» الذي سيحقق الفوائد المتنوعة للمسلمين في أوروبا ولأوروبا ذاتها، ما يزال أمرا بعيد المنال.

«الإسلام الأوروبي» الذي يدعو له ويحاول صياغته المسلمون الأوربيون المتعلمون والمثقفون، يصرّ على جوانب الإسلام الكونية. وهم يؤكدون في مؤلفاتهم وكتاباتهم على أن خطوط الوطن المسلم (بنغلادش، باكستان، أفريقيا، تركيا، البوسنة...) ينبغي أن يكون لها دور ثانوي، وأن تبقى ضمن حدود الحياة الخاصة والجو

العائلي. «الإسلام الأوروبي» حسب وجهة نظرهم سيكون الإسلام المفسَّر كونيا، الذي سيحرر المسلمين والإسلام من العزلة والتقوقع في أوروبا الغربية.

ومهما كان الأمر عجيبا، فإن الجماعات والهيئات الإسلامية في أوروبا تمثل عقبة خاصة تقف أمام المسلمين في الإثبات المفيد «للإسلام الأوروبي». ولكن الجماعات الإسلامية متفرقة على أسس عرقية، ومحددة بالتحيز والنزاع المذهبي، والمشكلة الكبرى لتلك الجماعات الإسلامية كونها تعتمد على دول المنشأ التي وفد منها المسلمون الأوربيون (الهند، باكستان، تركيا، مصر، تونس، الجزائر، المغرب..).

ولنقل في الختام بأن عقبة كبيرة تقف أمام الإثبات الكامل «للإسلام الأوروبي» متمثلة بأن المسلمين الأوربيين يفتقرون إلى جماعة إسلامية أوروبية موحدة.

لأن المسلمين في أوروبا لا يظهرون أبدا بانتماء «قاري»، وهم حتى لا يفكرون بهذا الأمر، مما يشكل مأساة بحد ذاتها.

لا ينبغي أن يكون هناك أي خوف من «الإسلام الأوروبي»، لأن مشروع «الإسلام الأوروبي» ليس حصان طروادة، أو نظرية مخادعة. وإذا عمل الأوروبيون المسلمون على تعريفه مهتمين بالإسلام وبوطنهم أوروبا، فإن «الإسلام الأوروبي» سيأتي لأبنائنا الشباب من الأوروبيين المسلمين بثمار البقاء الشريف.

الحوار الفلسفي بين الأديان بدلاً من صراع الحضارات

اسمحوا لي في البداية، بشيء من الانفعال، أن أقول على الفور: إنني مسرور لكون منظم هذا اللقاء* اختار هذا الموضوع بالذات. ولو أتيح لي شخصياً اختيار موضوع هذه الندوة لاخترت موضوعاً كهذا أو مشابهاً له. وبالطبع فإن لسروري بهذا الموضوع بضعة أسباب، لعل أهمها تجربة وطني، التي لم يمض عليها وقت طويل، أو تلك التجربة التي ظل يحملها هذا البلد في ذاكرته منذ ما يقرب من ألف عام.[١]

والسبب الثاني الذي سأذكره هنا فوراً (والذي ستعالجه هذه الورقة بالتفصيل) يكمن في القنابل الذرية والهيدروجينية وغيرها

* هذه المقالة كانت محاضرة ألقاها الكاتب في هانوفر بألمانيا. وكثير من الآراء التي احتوتها موجهة للقارىء الغربي على وجه الخصوص. [مجلة الفيصل]

١ - دائماً أحب أن أقول عن البوسنة والهرسك: إنه البلد الذي ولد من صفحات الإنجيل والقرآن. وحقيقة مثل ذلك الانطلاق الروحي هي التي منحت وطني البوسنة والهرسك مزيداً من السعادة أكثر مما جلبت عليه من الشقاء، فالحرب التي كادت تدمر وطني تماماً بين عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٦م، كانت ضد العولمة من جوانبها كافة، وللأسف فقد تعامل صمويل هنتينغتون مع الحرب في البوسنة ببساطة وكأنها مجرد دليل آخر وملاحظة هامشية إضافية في «بحثه» حول ما يسمى بصراع الحضارات. ولكن كما اختفت سخافة ما يسمى «بالصراع الطبقي» من صفحات الصحف، ستصبح السخافة المسماة «بصراع الحضارات» أيضاً طي النسيان.

من القنابل التي لا تحصى. إن كل أصحاب الأديان والعقائد يملكون اليوم كل تلك الأنواع من القنابل: يملكها المسيحيون واليهود والبوذيون والمسلمون، وعليه ينبغي النظر إلى موجة العولمة اليوم ضمن سياق أيديولوجية عالمية للتفاهم والحوار الذي يمكنه تقديم تطلع نحو «مولد المنقذ». وإن صح فهمي لإحدى قصائد الشاعر هيلدرين، فإن ذلك «المنقذ» موجود اليوم بمحاذاة المخاطر المختلفة التي تهدد عالمنا المعاصر. وينبغي ترسيخ هذا المنقذ ودعمه ليكتسب شرعيته التامة.

ميلاد المنقذ

إن نجاح عملية العولمة الحالية مرتبط بكونها رسالة من أجل «ميلاد المنقذ» لجميع معادن الأرض وأنواع نباتاتها ودوابها المختلفة، وبالطبع للبشرية جمعاء، بل وأجرؤ على القول: إن عملية العولمة اليوم عليها أن تهتم بوقاية القمر والفضاء القريب من الكرة الأرضية.[٢] فذلك المفهوم للعولمة الذي يأخذ في حسبانه الكل، هو وحده الذي يملك فرص النجاح. بينما العولمة التي يخطط لها لتكون عولمة للسيطرة والقوة محكوم عليها بالإخفاق منذ البداية. وعلى الرغم من المبدأ الأساسي في الإنجيل «إذا رماك أحد بحجر فارمه بالخبز»، فقد كان الإنسان دائما عبر التاريخ يرد على الحجر بالحجر!

٢ - أستطيع القول بأننا في وقايتنا للقمر والفضاء القريب من الكرة الأرضية سوف نترك لأحفادنا بقية طبقات السماء الزرقاء الصافية نظيفة وسليمة.

وإذا تمت عولمة السيطرة والقوة من أية جهة كانت في العالم، فستندلع الانتفاضات والحروب ضد تلك العولمة، وسيكون الرد على الحرب بالحرب، وستمنى عولمة السيطرة والقوة بالإخفاق الذريع تماماً كما حدث مع الاستعمار الذي كان مشروعاً لعولمة السيطرة والقوة بتدبير خاطىء ومركزية أوربية.[٣]

الدين حوار داخلي بين الإنسان وربه

قبل كل شيء، اسمحوا لي اليوم أن أحلل بمفردي عبارة «الحوار الفلسفي بين الأديان بدلاً من صراع الحضارات في عملية العولمة». وأفعل هذا من أجلنا جميعاً، لنكون على بيّنة مما نعنيه ونحن ننطق عنوان الموضوع الذي نتحدث عنه في اليومين الأخيرين؛ فالكلمات والتعابير الأساسية في ندوتنا هذه هي: «الحوار الفلسفي»، «الدين»، «صراع الحضارات»، «العولمة». ولدي انطباع أن أهم كلمة بينها جميعاً هي كلمة «الحوار». وفي هذا الصدد أود أن أشير إلى أن أهم حوار هو ذلك الحوار الذي يدور بين الله والإنسان. فما الأديان، إن لم تكن أولاً وآخراً، أعمق وأخفى وأكثر أوجه الحوار شفافية، بل قل لقاءات بين الله الخالق والإنسان المخلوق؟[٤]

---

٣ – لقد كتب عن هذا بمزيد من التفصيل أدوارد سعيد في كتابه «الثقافة والإمبريالية – Culture and Imperialism» وكذلك في مؤلفه «الاستشراق – Orientalism»

٤ – المسلمون الصوفيون غالباً ما يعرفون الإسلام بأنه «لقاء بين الله الخالق وبين الإنسان المخلوق».

فالله سبحانه وتعالى هو أول وأهم من تكلم مع الإنسان، بل إن الله – خالق الإنسان – هو المتحدث المُخْلِصُ الوحيد مع الإنسان.

وحوار الإنسان مع الله يوجد في أساس كل علاقة سليمة وحوار صادق بين الإنسان وأخيه الإنسان، بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والتاريخ. ومنذ القدم ظلت الديانات الكبيرة تعلم البشر – قبل كل شيء – ذلك الحوار مع الله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ مع الطبيعة والتاريخ.

والإسلام منذ القدم جاء ليذكر الإنسان بالله، وليذكره بالحوار مع الله خالقنا جميعاً.

وكما قلنا، إن الحوار بين الله سبحانه وتعالى والإنسان يعطي القاعدة الصحيحة والمعنى والفحوى السليمين لأي حوار آخر، حتى بين الإنسان والنبتة الصغيرة الضعيفة. والإنسان الذي ليس في حوار مع الله يواجه خطورة اعتقاده بأنه إن لم يكن خالقاً فإنه سيد متصرف في تلك النبتة الضعيفة، ولذا فإن الإسلام يعدّ الإنسان مسؤولاً عن طبيعة الحوار بين البشرية والله عز وجل. وبهذا يكون الإسلام الرقيب الدائم الذي يسهر على حوار الإنسان مع الله عز وجل، وهذا يوضح اهتمام القرآن الكريم في كثير من المواضع بدعوة الإنسان إلى التفكر في الآيات الإلهية في آفاق الكون الظاهرة والباطنة وفي آفاق التاريخ، وكل هذا من أجل إعداده ليكون له حوار صحيح مع خالقه سبحانه وتعالى.

ومن يقرأ آيات الكون قراءة صحيحة، فسيتمكن بشكل سليم من الدخول في حوار ليس فقط مع الله سبحانه وتعالى، بل مع الآخرين من بشر وأديان وحضارات وتراث، وسيدخل في حوار

شريف مع الطبيعة، حوار يحفظ للطبيعة عفتها وشرفها (وخاصة في عصرنا الذي تعاني فيه العلاقة بين الإنسان والطبيعة من أزمات ومشكلات كثيرة).

عندما ذكرت الحوار مع الطبيعة، لا بد لي من الإشارة إلى أن العلوم الحديثة التي تشارك في تحديد ما يدعى بالرؤية العلمية للكون، تلك العلوم قد قامت على أساس من نسيان الإنسان للحوار مع الله تعالى ولحواره مع عوالم الطبيعة المحيطة به. والعلوم الحديثة برؤيتها العلمانية للكون تمثل بحد ذاتها حواراً فردياً مخيفاً، إنه حوار مستبد يتحول إلى صراخ وعصيان للأوامر السماوية الربانية. وفي كل مكان نرى اليوم النتائج المروّعة لتأثير العقل العلماني الفردي المستبد.[٥]

إننا نواجه اليوم سوالاً كبيراً: هل ستُطَبَّقُ العولمة اليوم بواسطة تلك العلوم الحديثة العلمانية التي لا تعترف بالله ولا بالحوار، أم إن عملية العولمة اليوم ستحظى بعنصر روحاني من كنوز الديانات العريقة كاليهودية والنصرانية والإسلام والبوذية...؟

وتقول العرب «اللبيب تكفيه الإشارة»، فلا حاجة هنا إلى الاسترسال في الحديث عن حوار الفردي المستبد للعلمانية الحديثة ومخاطرها التي تهدد بها سلامة عملية العولمة الجارية اليوم.

---

٥ - حول أزمة العلاقة بين الإنسان والطبيعة راجع كتاب: «الإنسان والطبيعة - Men and Nature» للمؤلف سيد حسين نصر، من منشورات: Allen and Unwin - London, 1968.

لماذا الحوار الفلسفي وليس اللاهوتي بين الأديان؟

لنواصل التفكير في عنوان ندوتنا ونتساءل: ماذا يعني الحوار الفلسفي بين الأديان؟ فهناك فلسفات كثيرة ومتنوعة، بما فيها تلك التي لا تعرف الحوار فيما بينها، فضلاً عن كونها قادرة على المساعدة على جمع الأديان إلى مائدة الحوار.

إنني على يقين عميق بأن الحوار الفلسفي بين الأديان – والذي نحن بصدد معالجته في لقائنا هذا – ينبثق من أجود فروع الفلسفات الأوربية والعالمية اليهودية والنصرانية والإسلامية التقليدية. ومن المستحيل على الفلسفات الإلحادية أن تقدم للبشرية أي دروس، ولا سيما دروس في الحوار.

في حين أن الفلسفات المعتمدة على الديانات تقدم ذلك لأنها تؤمن بالله تعالى خالقنا جميعاً. والفلسفة الحقيقية كانت دائماً تؤمن بالله سبحانه وتعالى. وجميع الفلاسفة – من عهد بارمنيد إلى يومنا هذا – يقرون بأن الله بطبيعة الحال واحد. وبناء عليه فالإسلام (ذلك الذي أحمله في قلبي وعقلي) يرحب «بالحوار الفلسفي» أو بالأحرى «بالحوار الفلسفي بين الأديان» ويتقبله بيدين مبسوطتين. وسأبين فيما يأتي أسباب تأييد الإسلام وقبوله الصادق لهذا الحوار.

ومن خلال «الحوار الفلسفي بين الأديان» يبدو الاعتقاد بأن الفهم الأفضل للأديان ربما يكون عبر فلسفات تلك الأديان، أو على الأقل من خلال الحوار الفلسفي، وفي هذا الكثير من الحقيقة، فالأديان تُفهم عبر الفلسفات التي تنبثق تقليدياً منها بصورة

أفضل من فهمها عن طريق أنظمتها اللاهوتية. فالأنظمة اللاهوتية غالباً ما تحبس الإيمان بالله، بل تحبس الله في نظام لا حياة فيه! (وفي هذا المنظور يعدّ هيغل مؤسساً لنظام لاهوتي أكثر منه مؤسساً لنظام فلسفي، فالله في فلسفته محبوس في نظام، أو بعبارة أصح، أصبح النظام في فلسفة هيغل إلهاً).

ولم يكن الأمر كذلك مع الكيانات الفلسفية التقليدية الكبرى، فتلك الكيانات لم تصبح أسيرة الأنظمة، وأعني أن الإنسان في الفلسفة التقليدية، منذ عهود لاوتس وبارمنيد ومايمونيدس وأغسطينو والغزالي... كان أكثر حرية منه في الأنظمة اللاهوتية، وإذا غابت حرية الإنسان، يغيب معها الإيمان بالله تعالى.

ولأضف إلى ذلك أن النظرة للذات الإلهية في صفحات الفلسفات التقليدية الحقيقية، كانت دائماً أفضل منها في مؤلفات الأنظمة اللاهوتية الجامدة.

وبما أن مهمتي هنا أن أقدم رؤية مستقبلية لهذا الموضوع العام للحوار بين الأديان العالمية في ظل عملية العولمة، أود القول مباشرة: إنه كان سهلاً على الإسلام كدين، وكذلك على جميع فروع الإسلام الفلسفية التقليدية، وعلى أكثر المذاهب الشرعية واللاهوتية (العقدية) الإسلامية، أن تدخل في حوار مع التقاليد الفلسفية الأخرى، كاليهودية والمسيحية والبوذية والهندوسية. فالإسلام ليس إلا امتداداً تصحيحياً ضمن سياق التاريخ الديني للبشرية، وبذلك أصبح ظهور الإسلام على مسرح الأحداث محط اهتمام الأديان العالمية الكبيرة.

دعوة عالمية

و قد كانت للإسلام - في الكثير من مراحل تاريخه - مشروعات ناجحة للعولمة الروحية والثقافة والحضارة، لأن الحكمة الخالدة Philosophia Perenis كانت دائما حية في النظرة الإسلامية للعالم. ومنذ بدايته كان الإسلام يحمل دعوة شاملة ونظرة عالمية شمولية. وكان ذلك ممكناً لأن الإسلام ظهر في مناطق كانت هي الأشْهَر من حيث وجود الإنسان فيها. فالإنسان في مناطق الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى، كان ذا تجربة طويلة وعميقة لا تقتصر على التجربة الدينية فقط. وجاء الإسلام ليقدم إلى هذه التجربة البشرية المكتسبة خلال حقب تاريخية طويلة رؤيته للعالم التي تحمل في طياتها قراءة مبسطة عن الله الواحد الأحد. ومن ذلك المبدأ الإيماني انطلقت العولمة بإلهام إسلامي، لأن الله واحد، وسعت قدرته كل شيء، وهو يحيط بكل شيء؛ أو كما جاء في القرآن الكريم: **وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم** (الزخرف: ٨٤). فالإيمان بالله، ربِّ كل شيء، هو الذي حرك لدى البشرية المسلمة مشروعات العولمة.

وفي عصر العولمة المستلهمة من الإسلام، كانت رسالة العلم العالمية من الشرق إلى الغرب تكتب بعدد من اللغات، كالعربية والإغريقية والعبرية والفارسية والتركية. ولا تزال الآلاف القيمة من نسخ المؤلفات والترجمات محفوظة. وعلى سبيل المثال أشير إلى أن كاتب الوحي زيد بن ثابت رضي الله عنه (ت ٤٥ هـ) كان واحداً من الكثيرين من المسلمين الذين كانوا في صدر الإسلام

يكتبون بالعبرية. كذلك أشير إلى أنه بعد عدة قرون من ذلك، وفي إطار الحضارة الإسلامية الكبرى، كان الفيلسوف اليهودي مايموندس (ابن ميمون) يكتب باللغة العربية، وأن البيرُوني (ت ٤٤٠ هـ) كان يكتب ويترجم من السنسكريتية (لغة الهَند الأدبية القديمة)، وحركات الترجمة في بغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية وغرناطة وإشبيلية وطهران وسمرقند، كانت حركات يمكن بكل ثقة أن توصف بأنها عولمة تحققت بفضل الإسلام. ويقول فيليب حتي: إن الإسلام كان باعثاً لأوسع العمليات المعرفية والعلمية المعروفة حتى ذلك الوقت.[٦] ولا حاجة إلى أن نذكر بصفة خاصة أن عهد العولمة المستلهمة من الإسلام كان مُنطلَقها لظهور أوربا نفسها كعامل جغرافي وثقافي. وبذلك انضمت ثقافة الحضارة الإسلامية إلى الإنجيل والحضارة اليونانية القديمة لتصبح الأساس الثالث لأوربا.

وبهذه المشاركة الفكرية أثبتت الحضارة الإسلامية ميلها العظيم إلى الحوار. فقد تم ترجمة وشرح جميع التراث الفلسفي الفكري لليونان القديم وفارس والهند والصين، دون خوف، بوصفه تراثاً قيماً. وفي تراث الثقافات الأخرى كان المسلمون يكتشفون ويتعرفون على الكثير مما يتوافق مع الإسلام فيتقبلونه ويتبنونه.

---

٦ - يقول فيليب حتي في كتابه: تاريخ العرب - History of the Arabs, Macmillan International College Editions, London, 1981 «... لكن ما جعل هذا عصراً بارزاً بصفة خاصة في سجلات التاريخ في العالم هو حقيقة أنه شهد أهم صحوة فكرية في تاريخ الإسلام وواحدة من أبرز الصحوات الفكرية في كل تاريخ الفكر والثقافة» (ص ٣٠٦).

وليست رغبتي أن أكثر من الرجوع إلى التاريخ، ولكن هناك الكثير من الأسباب التي جعلت الإسلام يدخل - دون رهبة وكراهية للجديد المجلوب - في حوار مع الديانات والحضارات الأخرى.

حري بنا في هذا المقام أن نعيد إلى الأذهان القول المأثور للمؤلفين المسلمين التقليديين: «القرآن هو الكون الناطق، والكون هو القرآن الصامت»، وهذا القول يعني أول ما يعني: ما يوجد في صحائف القرآن سيكون في صحائف العالم إلى يوم الدين! وبالفعل، لو أخذنا في الحسبان ما يمكن أن نسميه - وبتحفظ شديد «بالجغرافيا الدينية» على صحائف العالم في القرن السابع الميلادي، عندما وصلت شعلة الإسلام من الأزل إلى عالم الواقع التاريخي، لرأينا بكل وضوح أن القرآن في صفحاته غالباً ما يخاطب أتباع الأديان المختلفة اليهود والنصارى والدهريين والمجوس، والمشركين... ونشهد على صفحات القرآن الكريم حدوث حشد ديني ضخم، ذلك حشد يجمع ولا يشتت. إن موسى وعيسى عليهما السلام ليسا «أجنبيين» في صفحات القرآن، بل على العَكس هما «ظاهرتان مسلمتان» أيضا. والشيء نفسه مع آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام وكان بعض المسلمين ينطقون اسم إبراهيم (أبراهام) ك«براهمان» فقط لتقريب الديانة الهندوسية إلى العقيدة الإسلامية.

هذا كله يمثل سبب كون الإسلام يسير وبعمق في سياق الأديان العالمية، ليس فقط السياق الجغرافي، بل السياق الروحي على حد سواء.

فالقرآن الكريم يحاور جميع الفرق الدينية العالمية، وأحياناً

يدخل هذا الكتاب، من خلال التعبير عن موقفه، في مناقشة حامية حول الآراء عن الله في الأنظمة اللاهوتية عند اليهود والنصارى والمجوس والماديين والدهريين... لكن القرآن حين تقرؤه يترك لديك انطباعاً قوياً كبير الأهمية بالنسبة إلى تاريخ البشرية منذ القرن السابع الميلادي، وهو أن الذي يخاطب الناس على صفحات القرآن ليس «إله المسلمين»، ولن تجد قط في القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو الفكر الفلسفي الإسلامي القديم، أو حتى في مدارس التشريع الأساسية في الإسلام عبارة «إله المسلمين». فالقول بأن الله هو إله المسلمين وحدهم يعدّ إثماً في مرتبة أكبر الآثام في الإسلام وهو الشرك، بمعنى أنه يحد من مطلقية المطلق وينسب إليه ما ليس من صفاته، وهذا المبدأ الإسلامي يمكن - من دون أدنى شك - أن يساعدنا على توجيه عملية العولمة المعاصرة وإغنائها توجهاً وإغناء روحيًا.

فالذي يتكلم في القرآن، هو المولى الذي يعترف بنفسه ويأمر الاعتراف به واتخاذه ليس إلهاً للمسلمين فقط، بل هو ربّ للنصارى واليهود وعبدة النجوم. وباختصار، فإن الإله في القرآن هو رب الناس أجمعين! ونحن نرى ذلك - قبل كل شيء - في روح القرآن، ونراه في جميع القرآن، كما نراه في أجزائه، مثل قوله تعالى: **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنَّصارى والصّابئين مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلهم أجرُهُم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** (البقرة: ٦٢).

وأكثر من ذلك، فإن الله في القرآن الكريم هو رب العالمين، الظاهر منها والباطن. والقرآن بتنزيه الله عن تحديده وإلحاقه إلى

فئة معينة من البشر، إنما يحرر البشرية من مفهوم «الشعب المختار» وهذه الحقيقة كانت ولا تزال تفيد أن القرآن الكريم يعول على البلوغ والرشد الكاملين للإنسان والبشرية.

وبقوة شديدة نشر الإسلام فكرته أن الله سبحانه وتعالى هو ربنا جميعاً، ويترتب على هذا أننا جميعاً متساوون أمام الله عز وجل.

تلك الحقيقة كانت في الماضي حاسمة الأهمية لجميع مشروعات العولمة المستلهمة من الإسلام، وهي اليوم بالغة الأهمية لمشروع العولمة المعاصر الذي لا يقوم على أسس دين بعينه. ولكن لا بد لمشروع العولمة الحديث أن يأخذ في حسبانه جميع الأديان بما فيها الإسلام.

حين يتعلق الأمر بنظرة الإسلام إلى العولمة، فإنني أود أن أضيف شيئاً مثيراً: فالإسلام اسماً ومفهوماً يجذب الاهتمام قطعاً. والإسلام يعني التسليم لله عز وجل، وكما يبدو ذلك شمولياً وعالمياً. فاسم الإسلام - أي التسليم لله تعالى - لا يرتبط باسم شخص، فالاسم ليس محمدية. واسم الإسلام لا يرتبط بالموطن الذي ظهر فيه، فالإسلام ليس عروبة، وأعتقد بأن مستمعي يدرك بوضوح تام هذه الأفكار البعيدة الأثر التي تنبع من هذا الفهم للإسلام لترفد تيار العولمة المعاصر.

ويرمي تحرير البشرية من طبقة «الشعب المختار»، إلى دعم الإسلام مشروعاته للعولمة الروحية حينذاك، وتزويدها بمختلف الآليات المهمة، التي منها المساواة بين بني البشر، لأن الإسلام توّج المساواة بين جميع الألسن والقبائل والشعوب على قاعدة

التفاهم والتعارف فيما بينهما،[٧] والقرآن يعلن عن هذه الفكرة بوضوح: **يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** (الحجرات: ١٣).

نحن مقسمون قبائل وشعوباً لكي نتعارف بصورة أسهل من خلال اختلافاتنا. فالاختلافات نعمة، وليست حجر عثرة. ولو كان سكان الأرض بيضاً فقط لما كانت البشرية شبيهة بجميع ألوان تربة الأرض. إن اختلافي عنك هو في الحقيقة تلك المسافة التي بإمكانك أن تقطعها لتصل إلي، والعكس صحيح! هذه هي بداية التفاهم، إنها البداية التي تتيحها اختلافاتنا.

لقد كان الإسلام في مشروعاته العولمية دائما يحترم ويقدر الاختلافات. فالعولمة بمنظور الإسلام ينبغي ألاّ تعني بحال من الأحوال الاتحاد والتماثل، وعبر صفحات القرآن الكريم، وكذلك عبر أطراف البشرية التي طبعها الإسلام بطابعه الحضاري يدوي التسبيح بحمد الله الذي خلق البشرية متنوعة الألسن والألوان، بل إن اختلاف ألسنتنا وألواننا إن هو إلا آية إلهية عظيمة في آفاق الكون: **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالِمين** (الروم: ٢٢).

---

٧ – للمزيد من الاطلاع على مفهوم التعارف والتفاهم بين مختلف الشعوب، الذي هو شيء أساسي في القرآن الكريم، راجع مناقشة تشاند مظفر بعنوان: العولمة والعدالة الشاملة – Globalization and Global Equity المنشورة في تعقيب Commentary الحركة الدولية من أجل عالم عادل International Movement for a Just Word، العدد ٣٧ – سيلانغور Selangor، يونيو ٢٠٠٠م.

إننا لم نأت إلى هنا لندعو إلى الإسلام، وليس هدفنا أن نذكر الآيات القرآنية الكثيرة التي مكنت للإسلام عبر العصور، وجعلت منه ديناً كونياً قوياً. لكنني أود القول بأن جميع البلاغات القرآنية موجودة في أساس مشروعات العولمة إسلامياً. أما فيما يتعلق بالأنماط الثقافية، فقد شكّل الإسلام، في حينه، الشرق الإسلامي والغرب الإسلامي، ولكن هذا لم يكن يعني إنكار الشرق والغرب اليهوديين ومسحهما، ولا إنكار الشرق والغرب النصرانيين ومسحهما، ولا داعي للإشارة بصفة خاصة إلى أن المسيحيين واليهود وكثيرين غيرهم من أتباع الملل الدينية الموحدة يعدون في نظر الإسلام أصحاب ديانات سماوية - أي ديانات معترف بها - وقد أعلن الإسلام منذ زمن بعيد مبدأ التعايش مع الديانات الأخرى، وفي مدن الشرق الإسلامي اليوم توجد آلاف من أبراج الكنائس التي تزين المدن إلى جانب مآذن المساجد. ولم يتعرض اليهود قط في العالم المُعَوْلَم إسلامياً لأي محرقة، كما كانت لليهود، ولكثير من الطوائف المسيحية في إمبراطوريات المسلمين مشروعاتهم الخاصة للعولمة، والتي وضعوها طبقاً لحاجتهم الذاتية.

وأعتقد أنني لست الوحيد في هذه القاعة الذي يعرف أنه قبل الثورة الفرنسية التي رفعت شعارات «الحرية، الإخاء، المساواة» كانت في العالم حرية، وكان الناس يعدون إخوة، وكانوا متساوين في فرص الحياة. ومن الخطر الكبير أن تنسى عولمة اليوم هذه الحقيقة، وأن تكتفي بالاعتماد على قائمة الحريات التي ظهرت منذ عهد غير بعيد في إعصار الثورة الفرنسية.

لا نجاة بعيداً عن الله Extra Deum nulla Salus

أعتقد أنني طرحت في خطوط عريضة الأسس التي انطلقت منها الفلسفات والتعاليم الإسلامية المتنوعة التي يمكن أن تكون اليوم ذات فائدة كبيرة لنا في تعريف العولمة الحاضرة، ولا تزال أمامنا مسائل كثيرة، أهمها مسألة النجاة والفلاح.

ويجدر بنا جميعاً أن نتسابق في هذه الدنيا من أجل الخلاص. حتى العولمة التي نتحدث عنها ينبغي ألاّ تكون مادية صرفاً وجرياً عديم الشفقة وراء الثراء. وينبغي أن تكون العولمة على صلة بالنجاة، لأن نوع النجاة في الآخرة يعتمد - إلى حد كبير - على طريقة الحياة في الدنيا.

لكن يمكنني القول بأن الإسلام سهّل عملية النجاة؛ فبقدر ما نادى الإسلام بالتحرر من حالة «الشعب المختار»، وبقدر ما نادى بالتحرر من الهيمنة الرهبانية والقبلية والقومية والعنصرية واللغوية لفئة على فئة أخرى، بالقدر نفسه نادى الإسلام أيضاً بالتحرر من الوساطة بين الإنسان وربه. ومن أول صفحة إلى آخر صفحة في القرآن الكريم يتردد صدى ما يمكن أن أعبر عنه باللاتينية بعبارة: Extra Deum nulla Salus - لا نجاة بعيداً عن الله!

ومن تلك الفكرة وتفسيرها الصحيح يمكننا اليوم أن نقدم الكثير للعمليات العالمية. وإذا كان الله ربنا جميعاً، فإن ما خلقه الله أيضاً، كالأرض مثلاً، مسخر لمنفعتنا جميعاً، (ولكن علينا نحن أن نقدم الخير للأرض والسماء). زد على ذلك أنه لا توجد في العقيدة الإسلامية قارة مقتصرة على المسيحية وحدها، ولا قارة مقتصرة على الإسلام وحده ولا قارة مقتصرة على البوذية وحدها!

و من ثم، فالإسلام لا يقسم العالم أقاليم مقدسة وأخرى مدنسة، لأننا عند كل موضع قدم في منطقة مقدسة، ومملكة الله في كل مكان. وتبعاً لذلك لا يوجد غرب مقصور على المسيحية، كما لا يوجد شرق مقصور على الإسلام! فكل الأديان تجد الترحيب في كل بقعة على أرض الله، لتعيش معاً حيث يكون ذلك ممكناً، ومتجاورة حيث يتوجب ذلك! وهذا يجب أن يصبح مبدأ مهماً من مبادىء العولمة المعاصرة.

ويمكن للعملية العالمية المعاصرة أن تستفيد من كثير من التعاليم الإسلامية الخالدة، وكذلك من التعاليم الخالدة للأديان الأخرى، وأن تعلن خلق القدس وسرايفو في كل أنحاء العالم. فقد التقت في القدس وسرايفو اليهودية والمسيحية والإسلام، وكان ذلك اللقاء نتيجة عمل جيد مقدم ضمن تصور عَولَمي. وهناك تقف المساجد والكنائس والصوامع جنباً إلى جنب، ولا ضير في أن يقيم البوذيون معابدهم في القدس وسرايفو، لو شاءت إرادة الله أن يقطن في هاتين المدينتين عدد من البوذيين أيضاً.

أما إذا لم تأخذ العملية المعاصرة للعولمة في الحساب مفاهيم الماضي للعولمة، ولم تستفد من جوانبها الخيرة، فإن لنا أن نتوقع هلاك القدس وسرايفو.

العولمة مقابل صراع الحضارات

إننا نلاحظ اليوم مفهومين متباينين في وسائل الإعلام الكبرى في الغرب والشرق على حد سواء، وهما العولمة وصراع الحضارات.

وهذان المفهومان، مع تعارضهما، مرتبطان فيما بينهما كالماء في أوعية متصلة. ونجد أقوى الأصوات المؤيدة للعولمة ولصراع الحضارات في الغرب، وهي قوى بوجه خاص في الغرب الأمريكي، وفي الغرب الناطق بالإنجليزية. وهذا يدل على أن الغرب يواجه معضلات كبرى، قد تكون كتلك التي تنبأ بها أوزوالد شبنغلر في مؤلفاته. ومن المؤكد أن انهيار الغرب أو انهيار أي جزء من البشرية لن يجلب اليوم حصاداً مربحاً لأي جهة كانت، والعالم منذ القدم كان كُلاً واحداً، لا سيما عالم اليوم.

لقد صاغت وسائل الإعلام في الدول العربية لفظ العولمة من خلال تحليلها لهذه الظاهرة كتسمية محلية لها، وبداهة تطرح من الناحية الأخرى تخوفات حول إن كانت للعولمة غايات خفية شريرة، أم إنها طريق أهدأ، أو طريق احتياطي يسير عليه «صراع الحضارات».

ولذلك، اسمحوا لي أن أطرح بعض المعضلات الماثلة في كتابات المسلمين حول عملية العولمة من جهة، والشكوك التي تحيط بصراع الحضارات من جهة أخرى.

ولا أدري أكان الحضور يعرفون أن عبارة «صراع الحضارات» استخدمت قبل ما يقرب من سبعين عاماً. فقد استخدم بازل ماثيوز عبارة صراع الحضارات في كتاب له بعنوان: A Study in the Clash of Civilisations: Young Islam on Trek (الإسلام الفتي في رحلة شاقة: دراسة في صراع الحضارات)، الذي صدر سنة ١٩٢٦ في لندن، فقد استعمل ماثيوز هذا المصطلح في عنوان الكتاب نفسه. ومما يثير اهتماماً خاصاً عند المسلمين أن ناشر هذا الكتاب هو Church

Missionary Society (جمعية التبشير المسيحي، أو الجمعية التبشيرية الكنسية) في لندن، ولذا فإن هنتيجتون لم يأت بجديد، ولعله ينتمي إلى الحلقة نفسها أو النمط الفكري نفسه.

لكن الملاحظ بصفة خاصة في كل ما يسمى بنظريات «صراع الحضارات» اتخاذ الإسلام عدواً، كوجه آخر، كوجه مضاد ونقيض.

والمشكلة مع نظرية صراع الحضارات أن لها أطروحة وأطروحة مضادة ولكن ليس لها تركيبة، وما أحوج سبعة مليارات من البشر اليوم إلى التركيبة بالمعنى المذكور في عنوان هذه المقالة. أما عملية العولمة فيجب أن ننظر إليها نظرتنا إلى عملية تركيبية مرنة تناسب جميع الأديان والثقافات العالمية الكبرى.

وأما الملاحظة المهمة الثانية، فتتعلق بالترويج القسري لعملية العولمة. وهذا القسر يعطي صورة سيئة للعولمة، مما يجعل الناس في العالم الإسلامي ينظرون إلى العولمة في أحيان كثيرة – محقين أو مخطئين – بأنها تَغريبٌ مُقَنَّعٌ.

والمشكلة الأساسية هنا هي مسألة العلمانية، فإذا اختارت عملية العولمة المعاصرة الاتجاه العلماني، فإن استغلال الشمال للجنوب اقتصادياً سيكون مجرد مرافق أو نتاج ثانوي للاستغلال الروحي.[٨]

وحقاً، إذا كان الغرب العلماني الذي يمثل أقوى حضارة تقنية

٨ – حول مخاطر الاستغلال الاقتصادي راجع تشاندرا مظفر The Global Rich and the Global Poor - Seeking the Middle Path تعليق: الحركة الدولية من أجل عالم أفضل – العدد ٤٠ – سيلانغور – سبتمبر ٢٠٠٠م.

اليوم هو حامل راية تيار العولمة المعاصرة، فإن وسائل الإعلام والمثقفين المسلمين يتساءلون هل رسالة تيار العولمة هذا ستتمخض عن علمنة البشرية المسلمة والطاوية والبوذية؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فإنهم يعبرون عن اعتراضهم وتحفظاتهم إزاء هذه العولمة. فعولمة كهذه لا تختلف عن الاستعمار، غير أن الاستعمار كان يفرض المسيحية، وما زال يعلن عن ديانة واحدة في الأفق، أما العولمة - في نظر الكثيرين - فإنها تفرض العلمنة من دون أي إشارة إلى الإيمان بالله. ويعبر المؤلفون المسلمون عن تخوفهم الشديد إزاء ذلك التطور المحتمل والتفسير لمفهوم العولمة.

وعليه، فإنه توجد مخاوف أكيدة من أن العولمة هي مرادف لعملية علمنة العالم؛ ولذلك، كثيراً ما يفسر «صراع الحضارات» في العالم الإسلامي بأنه وجه آخر أكثر خشونة لعملية العولمة. لذلك يجب على زملائنا النصارى في الغرب أن يبذلوا المزيد من الجهد لإضفاء الجانب الروحاني على عملية العولمة المعاصرة. فالعولمة إذا نسيت الله سبحانه وتعالى فإنها لن تنجح في أي مكان. وفي عصر تعرضت فيه البشرية لأنواع مختلفة من القنابل وذاقت فيه ويلات الحروب في القرن العشرين خلال عدة سنوات من الديكتاتورية النازية والشيوعية، فنحن أحوج ما نكون إلى الله عز وجل. ويوصينا هايدجر بأنه «لا منقذ لنا سوى الله الواحد الأحد». وأنا لا أذكر النازية والشيوعية هنا اعتباطاً لأن النازية والشيوعية كانتا أيضاً محاولتين غربيتين للعولمة.

وما لم نقبل القيم الروحية لأديانا على أنها قيم لا تتجزأ من العولمة، وما لم يقبل الله سبحانه وتعالى بوصفه منقذاً لنا، «فسينقذنا» مرة أخرى هتلر وستالين! والقرن العشرون قد أثبت

لنا أنه لا يوجد أمامنا خيار ثالث. وتجربة أوربا في هذا الشأن واضحة وضوح النهار. وهذا ما يدفعني لأكرر مرة أخرى أنه على زملائنا المسيحيين أن يضاعفوا من مشاركتهم في ادخال العناصر الروحية في عملية العولمة التي نحن بصددها اليوم.

وأود في ختام محاضرتي أن أذكر معضلة أخرى تتعلق بالتقنية وبالسؤال المطروح: هل عملية العولمة تمثل في حقيقتها عملية نشر التقنية والعقلية التقنية في العالم أجمع؟ أو بعبارة أخرى، هل العولمة تعني تقنية العالم؟

لقد أصبحت التقنية اليوم كائناً قائماً بذاته، وفي كل مكان تعاني البشرية من لامسؤولية العقلية التقنية، ولكن، بما أن العالم واحد، فإن تصدير لامسؤولية العقلية التقنية لن يجلب السعادة ولا الحصاد الوافر لأحد، بما فيهم المصدرون لتلك اللامسؤولية.

كل هذه المعضلات تلتقي عند نقطة واحدة، أو على سؤال واحد: هل يمكن أن تنجح عملية العولمة إذا لم ترافقها دعوة روحية صادقة وإيمان عميق بالله عز وجل؟

أعتقد أن الإسلام يجيب عن هذا السؤال بالنفي. فقد أثبت القرن العشرون بشكل نهائي أن الإنسان لا يستطيع أن يكون بديلا عن الله عز وجل.

الإسلام في البوسنة المعاصرة

١) إن البوسنيين شعب أوروبي أصيل وهم اليوم أقرب الشعوب المسلمة إلى الغرب وفي نفس الوقت هم أقرب المسلمين الأوروبيين إلى الشرق. إن كونهم جسرا حيا بين مختلف الطموحات الشرقية منها والغربية والزلازل الإجتماعية قد أدخل في وجودهم الكثير من التناقضات. فنظرا إلى لغتهم ولون بشرتهم وأصلهم السلافي ووطنهم فإن البوسنيين أوربيون. وأما إذا نظرنا إلى ديانتهم وشعورهم الحضاري وما يتحملونه من أوروبا من المعاناة فإنهم ـ بطريقة أو بأخرى وبالرغم من كل شيء مسلمون.

إن المتعصبين والمتطرفين من الأوروبيين يعتبرون البوسنيين جسما غريبا بأوربا وذلك بسبب إسلامهم. إلا أن هؤلاء المتعصبين ينسون أن المسيحية والإسلام كليهما دخلا أوربا من الشرق، وأن أوروبا ـ نظرا إلى الأديان الحالية ـ فرع روحي لآسيا.

وعليه فان للبوسنيين كمسلمين الحق في الانتماء إلى هذه البقعة من الأرض أسوة بجيرانهم من الاورثدوكس الصرب والكاثوليك الكروات وكذلك حقوق متساوية في كل ما يترتب نتيجة على ذلك. وأخيرا فإن ذلك من حقهم لكونهم بشرا. ويا له من خطر محدق بالبوسنيين وأوروبا إذا أنكرت أوروبا عليهم ذلك؟!.

إلا أن البوسنيين اليوم شعب أوروبي وحيد يتهدده الفناء والقضاء عليه. وهذا أمر نعيه وعيا مؤلما بعد عشر حملات إبادية نكلت بنا في الغالب من قبل الصرب الاورثدوكس المفطورين على التعصب. في الحقيقة فان تاريخ البوسنيين الحديث كله عبارة عن استراحات قصيرة بين عمليات التشريد والطرد والإبادة والتطهير العرقي.

هذا كله يظهر جلياً خلال أدبنا وذاكرتنا التاريخية. إن تاريخ البوسنيين هو في نفس الوقت تاريخ كفاح مستمر من اجل البقاء. إنه رغم كل شيء لكفاح لا مثيل له، حيث لم يستسلموا في اشد لحظات الحصار والهجوم المكثف المنهمر من أعالي الجبال ومن كل جهة. ولذا فإن للبوسنيين تاريخا هو أكثر التواريخ تضادا في قارة أوربا. إن البوسنيين حقاً أشهر وأمجد المنشقين روحيا في أوربا!؟

٢) الإسلام ليس هو فقط أهم نقطة تحول في تاريخ البوسنيين، بل هو أيضا نقطة تحول محوري في تاريخ البوسنة والهرسك.

الإسلام في البوسنة سني وقد كان هذا الدين ينتشر في أرجائها انتشارا حرا كغيره من الأديان الأخرى. وإن حرية انتشار الأديان من خصائص البوسنة فهي في الغالب لا تعرف الأسلمة أو النصرنة.!! والآن كذلك، ومع ما حدث فيها من الوقائع الدامية من ١٩٩٢ حتى ١٩٩٥م، يعيش في كثير من أجزائها البوشناق، جنباً إلى جنب مع الصرب والكروات، عيشة اجتماعية تتصف بالتعدد الديني والثقافي. إن الأوضاع الدينية في البوسنة ليست بأوضاع دينية قديمة، متحجرة ومتحفية، من عهد الإمبراطورية العثمانية أو النمساوية مخصصة للعرض على السواح الغربيين.

إن الباحثين في تاريخ الأديان بالبوسنة في مقدورهم أن يميزوا بسهولة، وفي كل حقب التاريخ منذ القرن الخامس عشر، فسيفساء رائعا متماسكا لا يتجزأ وهو مؤلف من أربعة مجتمعات مختلطة ـ إسلامي وكاثوليكي وأرثذكسي ويهودي. وأؤكد هنا ـ وليس فقط لأني مسلم ـ بأن الإسلام وهب البوسنة أعلى مستويات من التسامح الديني. وبالطبع فقد ساهم في ذلك في بعض الحقب الزمنية الكاثوليك ولا سيما الرهبان البوسنيون منهم ثم الأرثدوكس واليهود.

للأسف، بهذه الحملة الإبادية الأخيرة على البوشناق يتلاشى في كثير من أنحاء البوسنة والهرسك الروح التقليدية للتعددية العرقية والثقافية والتسامح. على أوربا والمجتمع العالمي ليس فقط صرف المزيد من الأموال لرأب الصدع بل الكثير من الحب والوئام لإعادة بناء البوسنة التقليدية.

وقد أدخل الإسلام التقليدي البوشناق إلى التاريخ العالمي، ومما نراه اليوم أيضا أن دخولهم في الإسلام كان خطوة لها أهمية حاسمة قدرت مصيرهم.

وبمجيء الإسلام إلى البوسنة نشأت بها مدن جديدة ونمت المدن الموجودة، وبنيت في قلوبها الجوامع والكنائس والمعابد. حيث لا تخلو البوسنة التقليدية من المدن التي تكاد سقوف المساجد والكنائس فيها تتماس ببعضها البعض. وبفضل الكثير من الأسباب، و التي في مقدمتها الأشكال التقليدية للإسلام والكاثوليكية والأورثذوكسية واليهودية، أصبحت البوسنة مجتمعا من سلالة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث يمارس كل شعب عبادته ومعتقداته بالتوافق وهو ينظر إلى السماء الواسعة عابداً الله

الواحد القهار وفقا لتقاليده الدينية. ولم لا نقول بإنها الدولة الوحيدة بأوروبا التي ولدت من صفحات الإنجيل والقرآن.

وفي ثقافتهم السكنية وبناء المنازل بالنوافذ والأروقة المشمسة وطريقة استعمال الماء بنوع من التكريم والاقتصاد في الطعام وفقا لتعاليم الدين الإسلامي وتربية الزهور والعمران الذي يذكر الإنسان بالجنة والآخرة وتصميم الجوامع وأسقفها في التوافق مع الألوان التي تظهر من أبعد أعماق زرقة السماء الصافية، حيث تتحول الطبيعة بطريقة تدريجية غير محسوسة إلي حضارة وتتحول الحضارة إلى طبيعة، هذا كله إضافة إلى الكثير من دونه يعيش البوشناق فيه ومن خلاله إسلامهم على مدى القرون.

ولنذكر هنا بأن التصوف في البوسنة قد ساهم مساهمة بعيدة في خلق التسامح الإسلامي فيها وذلك في اتجاهين: الأول أن يتسامح المسلمون فيما بينهم والثاني أن يتسامحوا مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى!!؟

وتعود الآثار الأولى للتصوف في البوسنة إلى ما قبل سبعة قرون وقد أتى الصوفيون البقوميليون من الشرق بينما جاءهم المنصرون المسيحيون من الغرب. ومن البوشناق كثيرون ممن صنفوا مؤلفاتهم القيمة في مجال التصوف حيث تشهد بذلك المئات من المخطوطات والعشرات من الزوايا أو النصوص التي تذكرها إضافة إلى الطرق الصوفية الموجودة حتى اليوم، ولا تزال مجالس الذكر ظاهرة يومية في مساجد البوسنة على امتدادها. وهذا هو الأمر الذي نجد فيه فضل المذاهب الصوفية الحية في التراث البوسني الإسلامي.

وقد كان من عادة الصوفيين أن يبنوا زواياهم في أجمل أماكن البوسنة، عند منابع الأنهار وأوديتها الخضراء ذات الأشجار الشاهقة و السهول المنبسطة. إن الأدب المستلهم من الإلهام الصوفي، ولا سيما من عدد من المصنفات الصوفية المعينة، قد أثر كثيرا في نشأة ما يسمى في الثقافة الإسلامية بالآداب في معاملة الناس بعضهم البعض ومعاملتهم الطبيعة.

كان البوقوميليون في البوسنة لا يبنون لأنفسهم المعابد وإنما كانت لهم أماكن في الطبيعة، وهي في أغلب الأحيان ذات جمال بالغ، يتخذونها مصليات لهم. والصوفية يعود إليها الفضل الأكبر في احتفاظ البوسنيين بهده العادة، المصبوغة فيما بعد ـ بطبيعة الحال ـ بصبغة إسلامية محضة وهم يحولونها إلى مصليات تؤدى فيها الصلوات الإسلامية. ومن قديم الزمان إلى يومنا هذا يتبارى شعراء المسلمين البوسنيون في وصف الطبيعة الخلابة والتغنى بما فيها من الينابيع والأنهار والحدائق. لقد امتدت تلك الروح إلى يومنا هذا ـ حتى في أثناء الحرب ـ حيث ظهر ذلك جلياً في الشعر الحديث للشعراء الشباب من البوسنيين.

٣) منذ زمن ليس بقليل تتسائل الكثير من وسائل الإعلام، ولا سيما الغربية منها، هل يتطرف الإسلام في البلقان نتيجة للمذابح بحق البوسنيين؟

يجب أن نأخذ بعين الإعتبار بأن التطرف، إذا ظهر لا سمح الله، سينمو في اتجاهين: الأول يخص العلاقات الداخلية بين البوسنيين حول ما يسمى بالإسلام الصحيح. وموضوع الإسلام الصحيح موضوع ذو خطورة قصوى حيث يتقاتل حوله المسلمون في

الجزائر وأفغانستان. أعتقد بأن تنازع المسلمين حول موضوع «الإسلام الصحيح» هو اليوم من أخطر المشاكل في الكثير من المجتمعات الإسلامية وإن لم يتم توريده إلى البوسنة من الخارج ستبقى البوسنة آمنة مستقرة لأن الإسلام في البوسنة في الغالب إسلام معتدل.

ولحسن الحظ فإن المسلمين البوسنيين يسود بينهم التسامح منذ قرون طويلة، وعلى رجالات سياستهم وثقافتهم ودوائرهم ومراكزهم السائدة والمفكرة، وقبل كل شيء على الجمعية الإسلامية كمؤسستهم الرئيسية، أن يبذلوا كل جهودهم للحيلولة دون تجزئة عامة شعب المسلمين وتقسيمهم إلى ما يسمون بالمسلمين الأبرار والمسلمين الأشرار أو المسلمين الحقيقيين والمسلمين غير الحقيقيين. إن البوسنة والهرسك تربة أوروبية وإنه لمن المهم جدا أن مسلمي البوسنة قد اعتادوا منذ زمان على ممارسة وتطبيق وإظهار الإسلام في ظروف المجتمع المدني والدولة المدنية.

هذا المبدأ في السياق الأوروبي وفي الوقت الحالي ينفع ويخدم مصالح مسلمي البوسنة لأنه يضمن ممارسة الإسلام دون أي فرض أيديولوجي أو تسلط سياسي. إن الإسلام في البوسنة كنز مشترك لجميع سكانها المسلمين إنه لكنز ثمين يستلهمون منه إلهامهم الديني والثقافي والفني والأدبي والعمراني والتقليدي.

وبهذ المفهوم الذي تبناه البوسنيون من زمن بعيد، لن يصبح الإسلام ملكا أو حقا خاصا لأحد ولا موضوع تعديل يتماشى مع الأحداث السياسية اليومية وذلك لأن البوشناق يجب أن يحموا أنفسهم من أنفسهم ومن شتى أنواع التكفير الديني والتقليدي والسياسي والثقافي.

وعند ذلك يجب احترام القرار الإجماعي بأن يترك للجمعية الإسلامية البوسنية الدور الأشرف للسهر على كيان الشعب واستمراريته الروحانية. إن الجمعية الإسلامية راعية لهذه الاستمرارية ولا شك لدى البوشناق حول ضرورة منحها الاستقلالية في عملها.

إنه من المهم للغاية أن البوشناق يحترمون ويكرمون عباقرتهم سواء كانوا من الشعراء أوالفنانين أوالمؤلفين المسرحيين أوالصحفيين اللامعين أوالمفسرين من علماء الدين أو الشارحين من علماء الفلسفة أو الممثلين لمختلف الأحزاب السياسية. طبعا، الشرط الذي لا يستغني البوشناق عنه هو وحده يحدد أدنى سمة مشتركة للاحترام فيما بينهم وهذا الشرط هو البوسنة والبقاء الكريم للشعب.

٤) اتفق البوسنيون بالإجماع، وذلك منذ أكثر من قرن، حول طريقة تطبيق تعاليم الإسلام داخل المجتمع المدني. فالدولة التي يؤيدونها ليست منحازة لطائفة من غير الطوائف الأخرى حيث لا تعرف قوانينها ما يسمى بالديانات المعترف بها وغير المعترف بها إنما تكون الحقوق وحرية الدين منطقة غير محددة، أي هي عبارة عن كون لا يتناهى وهو معزز باحترام وممارسة ووقاية حقوق الإنسان والحريات المدنية.

وبالطبع فإن الذي يفكر فيه البوسنيون كثيرا سواء كانوا أدباء أو فلاسفة، ساسة أو علماء دين هو الإسلام الناجح، الإسلام الذي سيمكنهم من أن يكونوا مثقفين وأقوياء وآمنين ومحترمين في الدنيا أيضا، وفي هذه البقعة الأوروبية بالأخص ـ وإضافة إلى ذلك ـ أن يبقوا على قيد الحياة!

وقد عدد مؤرخونا عشر محاولات بشعة لإبادة مسلمي البوسنة وذلك في القرون الماضية الأخيرة القليلة فقط. لكن مسألة هذا العدد من محاولات الإبادة الجماعية ليست فقط مسألة المجرمين والقصابين البلقانيين المعادين للبوشناق. هذه المشكلة يجب أن تصبح مشكلة بوشناقية! قال مرة قائل بأن حفر الخندق حول المدينة من قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) مع صحبه للحماية من المعتدين كان عبارة عن الإسلام من الدرجة الأولى. أما إسلام المسلمين في البوسنة فيجب أن يكون فعالا ناجحا وذلك معناه أن ينجينا ليس فقط في الآخرة بل في الدنيا أيضا.

إذا التفتنا إلى القرنين الماضيين من تاريخنا على الأقل سنلاحظ من خلال الكتب والصحف أن العلماء من رجال الدين والعلماء من رجال الطبقة المثقفة لم يهتموا بمسألة البقاء الكريم للشعب البوسني المسلم من خلال برنامج مرسوم أوبطريقة منظمة أو من خلال مؤسسة معينة، وذلك مع أن هذه الفترة من التاريخ لم تكن مدللة تجاه الشعب البوسني المسلم على الإطلاق، وعلاوة على ذلك فقد كانوا يقطنون المناطق التي تحمل أكبر زلازل اجتماعية بشكل ممارسة الإجرام التاريخي ضدهم.

ولهذا السبب بالذات فقد كان من المفروض عليهم أن يكونوا واعين على الأقل بمصيرهم المرير إن لم يكن بوسعهم تغييره وكان يجب أن يرفعوا وضعهم على مستوى الكلمة ونشر الشعور بالخوف لدى الشعب من العدوان والإبادات الجماعية المستقبلية من قبل الصرب الشوفينيين وبناء هذا الشعور ضمن برامجهم ومناهجهم التربوية والتعليمية.

والآن، بعد أن عرفنا ما يقف على البوسنة من الأخطار، فإن التربية والتعليم، ولا سيما التعليم المقاوم للعدوان، من أهم الواجبات الإسلامية على البوشناق، كما أن تعلم العربية والإنكليزية والألمانية والفرنسية والخبرة المتفوقة في علم الفيزياء وتأليف كتاب جيد عن مصير البوسنة... هذا كله يعد من إسلام الجيل الحديث من البوشناق إذا كان عملهم مستهدفا إلى الحفاظ على شعب البوسنة!

بدأ مصير البوشناق في أوروبا يشبه إلى حد بعيد مصير اليهود فيها وليس ذلك فقط بالمعتقلات والإبادة الجماعية في حقهم ولا بكثرة عدد المهاجرين منها، حيث يزيد هذا العدد عدة مرات عن عدد الباقين داخل البوسنة، وإنما بأن دولة البوسنة الصغيرة أصبحت «إسرائيل الإسلامية» أي المنطقة الممنوعة المخصصة للبوشناق.

إلا أن التاريخ، ولحسن الحظ، لا يعلمه إلا الله وهو وحده يعلم أسباب اندلاع الحرب في البوسنة عام ١٩٩٢م وذلك بتمام نصف ألفية من الزمان مضت على طرد وتهجير المسلمين واليهود من الأندلس، حيث نرجو أن هذا الاتفاق لن يكون إشارة سيئة لتاريخ أوروبا المقبل.

مثل مسلمي البوسنة والهرسك ليس كمثل المسلمين ببنغلاديش، فلو غرق في فيضان من الفيضانات الموسمية مائتا الف مسلم في بنغلاديش لكان ذلك دون شك خبرا حزينا، لكن مائتي ألف غريق في بنغلاديش، نسبة إلى عشرات الملايين من المسلمين الآخرين فيها، عدد لا يكاد يلحظ. وأما القضاء على

مائتي ألف مسلم من مسلمي البوسنة والهرسك فذلك بداية يوم القيامة لهم، ولذا فعلينا أن نعمل كل ما في وسعنا حتى نكون واعين بذلك ويكون الآخرون في أوروبا وفي المحيط الإسلامي النائم واعين به.

وختاما فلا شك أن الإسلام هنا سيكون في القرون المقبلة أيضا مثل الجمرة في الكف، إن أمسكتها تحرق وإن تركتها تنطفئ!

وإن انطفأت هذه الجمرة، لا سمح الله، لانقضى أمر المسلمين في البوسنة والهرسك.

المسلمون في البلقان

حلف الناتو يدخل منطقة البلقان لأول مرة بعد تكوينه في أعقاب الحرب العالمية الثانية. فقد وجد الفرصة متاحة له بعد أن انسحب السوفيت من المنطقة. إنه حدث تاريخي مهم في سجل تاريخ البلقان.

إن دخول هذه القوة العسكرية الإمبريالية في منطقة دول البلقان ليس حدثا هاما بالنسبة للبلقان وأوروبا فحسب بل للعالم بأجمعه. إلا أن أهميته تبلغ ذروتها بالنسبة للأوربيين المسلمين الأصليين. لماذا..؟؟

الجواب عن ذلك لا يحتاج إلى فلسفة أو ذكاء خارق وهو إن حلف الناتو أنقذ المسلمين الأوربيين الأصليين من الدمار والهلاك الأبدي!! وهذا هو واقع المسلمين عندما ينظر إليهم من زاوية مدنهم المدمرة وقراهم المحرقة وبواديهم المهدمة في نطاق البوسنة والهرسك وكوسوفو في الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٩م.

إنه لمن العبث الاعتقاد أو التفكير بأن غير الناتو، في وقتنا الحاضر، من يستطيع بمقدرة فائقة وقوة هائلة أن يتصدى لجبروت ميلوشفتش. وإنه أيضا من العبث التفكير بأن غيره فكر علناً في إيقاف مخطط المعتدى المسمى بدولة صربيا الكبرى.

الشيء الذي يكمن في مضمون تلك المناقشات أن مسلمي أوربا تم إنقاذهم من الإبادة الكاملة. من الحقيقة البيلوجية المجردة يأتي بعد ذلك كل شئ، حتى الوصول إلى الهدف المنشود وهو مستقبل زاهر لمسلمي أوروبا.

وبغض النظر عن كل الإخفاقات الملازمة لذلك من المهم جداً التحدث عن معنى دخول حلف الناتو منطقة البلقان وأهمية ذلك على مستقبل مسلمي أوروبا، ولفت أنظارهم إلى الفرص المتاحة لهم بدخول هذه العناصر الإمبريالية المغتربة. وفى نفس الوقت الإشارة والتنبيه إلى المخاطر الناتجة عن عدم انتهاز تلك الفرص.

عالمية الناتو، فرصة لمسلمي أوروبا!

انطلاقاً من حقيقة أن حلف الناتو هيأ فرصة الوجود البيولوجى لمسلمي أوروبا مع آمالهم العريضة في أن تهيئ لهم هذه القوة الإمبريالية حياة حرة سعيدة وليس حياة بيولوجية فقط. وتبدوآمال المسلمين معقولة وذات أساس انطلاقا من ان حلف الناتو أتى من بلاد تحترم حقوق الإنسان وتقدرها، كما أنها بلغت من مستوى المعيشة أعلاه. وبلغت من مناهل العلوم والثقافة والتربية ما لم تبلغه أي دول أخرى بالعالم. وبلغت من حرية العقيدة في التدين مما جعل الثقافة الفردية تسير مع الثقافة الجماعية يداً على يد. وبلغت من الديمقراطية والحرية السياسية التي يشارك فيها الجزء الأكبر من الإنسانية.

حلف الناتو برز وظهر كقوة إمبريالية لحماية الحريات العامة وحرية الاعتقاد والحق وسيادة القانون والقيم الإنسانية في أوطانهم، ومما لا شك فيه انهم سيحمون تلك القيم في بلاد البلقان.

إذا لم يكن حلف الناتو دكتاتوراً في عقر داره فلماذا يكون كذلك وهو ضيف خارج وطنه!!؟ بهذا المستوى الرفيع من التفكير يأمل مسلمو أوروبا ويعتقدون أنها فرصة عظيمة بل هي فرصة العمر لسكان هذا الجزء من أوروبا! السؤال الذي يطرح نفسه ما تلك الفرصة؟؟ وما معنى إتاحة هذه الفرصة؟؟ والفرصة في حد ذاتها لا تعمل ولا تتفاعل، ولا تأتي بنتائج!! ويمكن أن لا تعنى شيئاً قط! خاصة إذا كان من يحتاج إليها لا يعرف قيمتها وكنهها وطريقة الاستفادة منها!

مصمم هذه الفرصة لمسلمي أوروبا حلف الناتو، يرى في المنطقة الأيديلوجية العالمية التي أسس نفسه عليها. هذا الحلف الإمبريالي يتكون من الأمريكان والأوربيين من الكاثوليك والبروتستانت والإغريق المسيحيين والأتراك المسلمين.

حلف الناتو هو فرصة المسلمين لأنه أتى إلى أرض التخلف والتناحر والقتال الإقليمي المخطط بالبلقان بأيديلوجية الحرية العالمية. الحرية العالمية التي تحول دون العزلة الفردية من ناحية بل إنها تحول أيضا دون أن يعزل الآخرين!! البلقان الآن يعيش أطول فترة استقرار في حياته منذ أن وطأت القوى الإمبريالية أرضه.

البوسنة والهرسك وما فيها من ديانات بسنوية متعددة وما نتج من اختلاف الثقافات والهوية صانها الحلف وحافظ عليها بروحه الإمبريالية التي سادت المنطقة.

الإمبراطوريتان العثمانية والنمساوية بروحهما العالمية الخاصة، صانتا كل على طريقته، حرية الأديان المتعددة بالبوسنة وحسن

التعامل والتعاون العرقي بينهم بالبوسنة والبلقان. لذا فإن مهمة حلف الناتو بالبلقان مشابهة لتلك التى قامت بها الإمبراطوريتان النمساوية والعثمانية العالميتان الوطنيتان. في كلتا الإمبراطوريتين عاش الصرب والكروات والبوشناق بكل ثقافاتهم ودياناتهم المختلفة ولم يعرفوا قط التطهير العرقي في حياتهم.

كيف نكون مواطنين عالميين؟

ليعرف مسلمو أوروبا أن العالمية ليست من السهل إدراكها في يوم وليلة وأنها ليست شيئا جاهزا مصنعا كالهواء البارد يمكن استنشاقه أنى شاءوا. في مجتمعنا يوجد كثير من الغباء والعفوية في فهم العالمية ممن يعتقدون أن كل من ملأ فمه بشراب الكوكا كولا قد دخل جنة أوروبا العالمية وتفاعل معها!!

الحضارة الغربية الحالية فيها كثير من المعطيات المفيدة والمهمة للإنسانية في مسيرها نحو قيمها لذلك هنالك الكثير مما هو أحق أن نتعلمه ويمكننا تعلمه قبل أن نرتشف شراب الكوكا كولا؟؟!

لكن التأويل الساذج للعالمية أيضا موجه ضد التقاليد ومروجي تلك الأفكار الخاطئة وذات النظرة المزدوجة للعالمية والتي تدعو إلى الانضمام إلى العالمية والتخلى عن تقاليدهم وعاداتهم ودياناتهم، بل الانتماء المجرد من كل شيء «حافي حالق».

أبهذه النظرة ننظر!؟ وبهذا الفهم نتبصر في العالمية الحالية!؟ والتي تبدو لنا في الأفق كفرصة سانحة!! إن هذا الفهم خاطئ بالتمام؟؟

لا يستطيع اليهود الذين يسيطرون على رأس المال بالغرب في القرن العشرين أن يعلموا مسلمي أوروبا الكثير مما هو مفيد لعدم فهمهم الصحيح لعالمية اليوم!!

كثيراً ما عانى يهود أوروبا في هذا القرن المنصرم، ولكنهم في عالمية اليوم، وهم الذين غالباً ما كانوا من صناعها، حافظوا على دينهم وعقيدتهم وتقاليدهم مما جعل تأثيرهم واضحا وملموساً في كل مكان من عالمنا الحاضر. حقق اليهود ذلك بعملهم المتواصل وبثقافتهم ومحافظتهم على تقاليدهم ونشرهم لما يتماشى مع العالمية.

بالنسبة لنا اليوم فالأمر ضروري وذو أهمية خاصة، والحذر كبير ليتسنى لنا التمتع بعالمية منقذة والتفاعل معها لا يأتي إلا بالعمل الدؤوب المثمر وحسن التخطيط للمؤسسات الحكومية ولا سيما التعليمية والثقافية منها. لان عالمية اليوم ما هي إلا وسيلة لإتاحة الفرصة لنا للخروج من قيود وارتباطات هذا الحمل الثقيل الإقليمي الدامي بالبلقان.

إننا عندما نترجم هذه المعادلة الرائدة ونجعلها محسوسة نصل إلى الآتي: إذا لم يتفاعل أطفالنا مع العالمية، التي هي على أعتاب أبوابنا، كمسلمين أوربيين مسلحين بالتعليم ذي المستوى العالمي ومدبجين بعالمية تقليدهم، سيبقى هؤلاء الأطفال من دون فرصة للوجود مما يجعلهم مجرد حمالين لأوروبا في بداية القرن العشرين.

إن حلفنا ـ الناتو ـ ذو وضع قوى بالعالم اليوم، قوى لانه يعمل ويتعلم، يلتزم بالقانون ويتمتع بحكم ديمقراطي وجامعات

ومؤسسات تعليمية قوية. لذا فإن علينا كمحميين أن نتعلم الكثير من حامينا.!!

هنالك الكثير من الأسباب التي تشجعنا لاستيعاب خواص العالمية الإيجابية التي تطرق أبوابنا. تلك هي أسباب قروية وقبلية كمجاز يفصل بين نوعين من العقلية.

التفكير القبلي موجه للتطهير العرقي ضد البوشناق والألبان. عالمية الغرب عليها اجتثاث خاصية التطهير العرقي القبلي من جذوره. وماذا نعمل نحن للعقول القبلية المعوذة الفقيرة؟؟

بحلول العالمية يتحتم على القبلية التحرر من اللقمة الدموية الفقيرة التى ظلت تمضغها طيلة عشرات الأعوام الماضية.

هل ستبقى القرى للقرويين؟؟ والبوادي للقبائل؟؟ سرعان ما يعيد التاريخ نفسه بسرعة فائقة، ولكن في ثوب خشن.

الصراعات العرقية في البلقان

شبه الجزيرة التي تقع في جنوب شرق أوربا تسمى بالبلقان. وتعود تلك التسمية إلى جبال البلقان التي تقع في مثلث بلاد بلغاريا ورومانيا وصربيا.

وكلمة بلقان هي أصلاً تركية تعني جبال الغابات أوالجبال المرتفعة المرتبطة ببعض وباختصار فإن كلمة بلقان تعني سلسلة جبال.[١]

في العلوم الاجتماعية ولاسيما التاريخية والجيولوجية منها فإن كلمة البلقان تستعمل لتعني منطقة سياسية جغرافية بحد ذاتها لعبت دوراً هاماً في تاريخ جنوب شرق أوربا ولاسيما الإمبراطورية العثمانية سواء كان الحديث عن منطقة دانت لمدة طويلة من الزمان لحكم الإمبراطورية العثمانية أو بقوة تلك الإمبراطورية خضعت منطقة البلقان لسيطرة العثمانية.

اليوم تستعمل كلمة البلقان لتعني علي الخارطة السياسية الجغرافية البلاد الآتية: ألبانيا والبوسنة والهرسك وبلغاريا وماكدونيا واليونان (من دون الجزر التابعة لها) والجزء الأوربي من تركيا (تركيا الشرقية) وأجزاء من كرواتيا وأجزاء من سلوفينيا وأجزاء من يوغسلافيا.

(١) التأثير التركي في لغة الصرب والكروات للكاتب عبد الله سكاليتش، إصدار أسفتلوست ـ سراييفو ١٩٧٣م.

مساحة البلقان حوالي ٤٦٦٠٠٠ كيلومتر مربع. إن دول البلقان تقع أغلبها إلى جنوب نهر السافا والدانوب (في مجراه الأدنى). نهر السافا والدانوب في مجراهما الأسفل، يمثلانِ الحدود الشمالية لدول البلقان.

السافا والدانوب في مجراهما الأسفل يمثلان لفترة طويلة من الزمان الحد الفاصل بين أكبر إمبراطوريتين هما العثمانية والنمساوية.

البلقان في الشرق يمتد الي البحر الأسود ثم مضيق البسفور ثم بحر مرمرا والبحر الأبيض المتوسط وبحر أيجا ثم البحر الأدرياتيكي .

ويظهر لنا من ذلك أنه من السهولة حصر البلاد التي تقع الآن في بلاد البلقان جغرافيا. ولكن تاريخ البلقان هو الشئ الصعب بالبلقان ولاسيما في القرنين السابقين[٢] والآن البلقان في الدراسات الجغرافية السياسية يعتبر من المناطق التي صدرت ولا زالت تصدر تاريخاً أكثر مما تتحمل. هذه الحقيقة يجب أن تؤخذ في الاعتبار (أكاديميا)كلما دار القول عن التطهير العرقي بالبلقان.

التاريخ بالبلقان من المشاكل الصعبة جداً لان شعوب البلقان الحالية – الصرب والكروات والبوسنيين والألبان وسكان الجبل الأسود والمكدون والإغريق... الخ – لا يمكن اتحادهم في وحدة تاريخية بالبلقان إلا أن المراقبين من الخارج ـ مثلاً الإنجليز أو العرب ـ يمكنهم

(٢) كتاب أن تكون مسلماً بالطريقة البوسنية للكاتب توني برنقا الباحث النرويجي في علم الأجناس، إصدار مطبعة جامعة برنستون ـ نيوجرسي ١٩٩٥م.

بكل اعتدال كتابة تاريخ البلقان الموحد.[٣] في حين أن شعوب البلقان يمكنهم الكتابة عن تاريخ أنفسهم كل على حدة. ولكن هذه الشعوب لم تتوحد قط لكتابة تاريخ البلقان الموحد.

نحكم علي ذلك بكُتب التاريخ المدرسية الحالية المختلفة عن تاريخ البلقان . فإن حرب التحرير لبعض شعوب البلقان تعني في نفس الوقت للبعض الآخر حرب الاحتلال أو لفئة أخري الحرية أو لفئة ثالثة العبودية...الخ.[٤]

كل هذا يبرهن لنا أن منطقة البلقان تاريخياً معقدة جداً. بالرغم من فترات السلام والسيادة الطويلة إلا أن تاريخ البلقان الحديث مليء بفترات تاريخية مهينة للإنسانية. لذا فإن الكثير من المؤرخين الغربيين سموا تاريخ البلقان ببرميل البارود ومشكلة البلقان ببرميل البارود البلقاني.[٥]

---

(٣) نول مالكولم في كتابة عن البوسنة وكسوفو أوضح جلياً جهل وعدم فهم وتقييم السياسيين الأوربيين للبلقان. وأكد نول مالكولم أن البلقان لم يكن دائماً برميل بارود معد للانفجار ولم يكن منطقة محكوما عليها أبداً بالكراهية والبغضاء بين شعوبها. الكراهية والبغضاء وليدة الصراعات العرقية بالبلقان والسبب الرئيسي لتلك الصراعات هو سياسة صربيا العرقية الاستغلالية الكبرى.

(٤) مثال لذلك فإن حروب البلقان في ١٩١٢- ١٩١٣م والتي احتلت فيها صربيا كل من مكدونيا وألبانيا سميت في علم التاريخ الصربي بـ(حرب التحرير) وفي حين أن مؤرخي المكدون والألبان اعتبروا ذلك احتلالا صربياً لألبانيا ومكودنيا وكلاهما يدين بالديانة البرو تستانتية الا انهم لا يتفقون مما أدي الي حروب البلقان في عامي ١٩١٢- ١٩١٣م.

(٥) برناد لويس مؤلف كتاب المسلم اكتشاف أوربا، إصدار فنكس ـ لندن ١٩٩٤م صفحة ٢٩.

لذا فإن البلقان لا يمكن أن ينظر إليه من دون تاريخه مما يجعلنا في هذا التقديم المختصر نعرض أهم فتراته التاريخية .

هنالك أربع فترات تاريخية بالبلقان وبلاده وهي:

(أ) فترة العصور الوسطي:

في هذه الفترة جاء الأسلاف الجنوبيون للبلقان وكونوا بعض الدول المستقلة (بلغاريا، صربيا، بوسنيا، كرواتيا... الخ) في هذه الفترة منذ دخول الأسلاف البلقان والتي امتدت من القرن السابع من ميلاد المسيح إلى دخول الإمبراطورية العثمانية. في هذه الفترة انتشرت المسيحية وانقسمت إلي قسمين - البروتستانت (المسيحيين الشرقيين) والكاثوليك (المسيحيين الغربيين) الا أن البلقان في هذه الفترة عرف انتشار وسيادة ديانات أخري سميت بالعديد من الأسماء في علم التاريخ (البوقوميلا والباتارين والمانيهية).

هنالك سؤال يفرض نفسه وهو متى انتهت فترة دول البلقان المستقلة في القرون الوسطى؟ الكثير من المؤرخين يجيبون عن ذلك بأن النهاية كانت عندما دخلت الإمبراطورية العثمانية البلقان؟! أي بمعركة نهر ماريتسا في عام ١٣٧١م وفي الحقيقة المعركة المشهورة بمعركة الكوسفو في عام ١٣٨٩م. في تلكما المعركتين انتصر العثمانيون أي في معركتي ماريتسا والكوسفو حيث ثبت الحكم العثماني بالبلقان مما جعل دول البلقان تسقط في عام ١٤٥٩م وبلغاريا في ١٣٩٣م واليونان في ١٤٦٠م والبوسنة في١٤٦٤م ...الخ.

في هذا الوقت ارتفع صوت الإسلام عالياً وبقوة ولاسيما في المناطق الحالية للبوسنة والهرسك والسنجك وصربيا وصرناقورا وغيرها ؟ ؟

(ب) فترة الإمبراطورية العثمانية:

كما شاهدنا فإن فترة الإمبراطورية العثمانية بالبلقان جا ءت بعد اندثار دول البلقان في العصور الوسطي وفي هذه الفترة ينتقل البلقان الى أوضاع اجتماعية واقتصادية جديدة، ينتقل إلى حالة تطور الزراعة والحالة الاقتصادية بصورة عامة. لقد تحركت الإمبراطورية العثمانية في كثير من المجالات الحيوية كالمواصلات والطرق والكباري وباختصار فقد خطط البلقان وأسست المدن الثقافية وأصبحت الحضارة الإسلامية والقانون الإسلامي من مكونات الحياة العامة بالبلقان. ويلاحظ ذلك في كتابات الكثير من الكُتاب غير المسلمين من المستشرقين مثل برنارد لويس الذي قال (أوربا هي الحدود التي نظر إليها العثمانيون. وحقيقة كثير من المسلمين، بنفس النظرة التي نظر بها الأوربيون للأمريكتين في الفترة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر. خلف الحدود الشمالية والغربية للإمبراطورية العثمانية تقع أراض شاسعة مقابل مهد الرسالات السماوية وهو مما مهد لإبلاغ الرسالات السماوية ذات الحضارة والعدالة والحق والسلام.)

(ج) عهد الحكم النمساوي:

وبنهاية الحكم العثماني بالبوسنة والهرسك في عام ١٨٧٨م بدأ عهد الإمبراطورية النمساوية التي حكمت البوسنة والهرسك من ١٨٧٨م إلى عام ١٩١٨م. الإمبراطورية العثمانية تخلت عن آخر جزء من البلقان في عام ١٩١٢- ١٩١٣م (في عهد حرب البلقان) أو على الأصح في عام ١٩١٨م عندما انتهت الحرب العالمية الأولي.

في هذا الوقت ظهرت صربيا وأصبحت دولة مسيطرة على البلقان ودولة وحيدة من دول البلقان ربحت من انهيار الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية.

صربيا يمكن القول بأنها منذ منتصف القرن السابع عشر أصبحت مستقلة عن السيطرة العثمانية واتسعت رقعتها. هذا الاتساع في منتصف القرن التاسع عشر كلف الكثير من الدماء والتطهير العرقي والتهجير خاصة بالنسبة للبوسنيين والألبان في مختلف بقاع البلقان التي تسيطر عليها صربيا.[٦]

القرن التاسع حفل بالتطهير العرقي من قبل صربيا ضد المسلمين في البلقان. في هذا القرن خططت صربيا للتطهير العرقي بدقة ونظام تحت إشراف الدولة في الوقت الذي لعبت الدعاية والدبلوماسية الدور الأهم لإظهار هذا التطهير العرقي ضد البوسنيين والألبان بأنه حرب ضد الأتراك والإمبراطورية التركية.

(٦) انظر كتاب فكرت كارتشيتش البوسنيون وتحديات الحداثة، إصدار القلم سرايفو ١٩٩٩م.

رواة التاريخ الصربي يحتفلون باستقلال صربيا والجبل الأسود وهو شئ طبيعي ولكنه من غير الطبيعي الاحتفال بتهجير وقتل المدنيين من المسلمين.

ورواة التاريخ الصربي في كتاباتهم عن تاريخهم بدلاً من إدانتهم وشجبهم للتطهير العرقي وتشريد المسلمين والألبان أشادوا بذلك واعتبروه حرباً تحريرية مقدسة. وسنتحدث عن ذلك فيما بعد بالتفصيل.

(د) فترة حكم اليوغسلافيتين:

الفترة الأولي من ١٩١٨م إلى ١٩٤١م والفترة الثانية من ١٩٤٥م ـ ١٩٩٦م في تلكما الفترتين سادت النعرة الصربية وطغت دكتاتوريتهم على البلقان وحتى اسم يوغسلافيا يعني (بلاد الأسلاف الجنوبية) وحقيقة على مستوي الدولة فإن يوغسلافيا تعني (صربوأسلافيا) أي أسلاف الصرب لأن الصرب لهم السيطرة التامة.

احتلت صربيا البوسنة والهرسك في عام ١٩١٨م في نهاية الحرب العالمية الأولي عندما سقطت الإمبراطورية النمساوية. في تلك السنة أسست مملكة الصرب والكروات والأسلوفنيين والتي سميت لاحقاً بمملكة يوغسلافيا وبسيادة الصرب عليها تقرر أن يحكم هذه المملكة ملوك الصرب من عائلة كاراجورجفيتش.

هذه المملكة حكمت في الواقع من عام ١٩١٨م إلى بداية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤١م. في مملكة يوغسلافيا والتي أعلنت في أول ديسمبر ١٩١٨م سادت الحروب العرقية في

أغلب الأحيان بين الصرب والكروات تارةً وبين الصرب والبوسنيين تارةً أخري. ليس الأساس لتلك الحروب هو سيادة الصرب علي دفة حكم يوغسلافيا كما هو معروف في بداية الأمر. اسم يوغسلافيا يعني مملكة الصرب والكروات والأسلوفينين وفي هذه الدولة لم يكن ليعترف بالشعوب الأخرى كشعوب لها كينونتها واعتبارها مثل المكدونيين والألبان وسكان الجبل الأسود.

بالنسبة للبوسنيين فإن الإصلاح الزراعي هو أصعب مرحلة طبقها عليهم النظام الصربي في عهد المملكة اليوغسلافية. هذا الإصلاح الزراعي أنهك الشعب البوسني وأوصله الى حد الشحتة. في هذا الموضوع سنتحدث لاحقاً لأن الإصلاح الزراعي خُطط ضد البوسنيين حيث تركزت ايدولوجية الحكام الصرب على إفقار غير الصرب من السكان بالبوسنة والهرسك.

بعد ذلك جاءت الحرب العالمية الثانية حيث راح ضحيتها جميع شعوب يوغسلافيا. أما فيما يختص بالبوسنيين وضحاياهم خلال تلك الحرب فإن الإحصائيات تقول بأنهم فقدوا ١١٪ من جملة البوسنويين، قتلوا جميعاً على يد الصرب المتطرفين خلال فترة الحرب العالمية من ١٩٤١ الي١٩٤٥م ـ وسنتحدث عن ذلك بتفصيل في فصل خاص لاحقاً.

خلال فترة غروب جمهورية تيتو الاشتراكية اليوغسلافية في الفترة من ١٩٩٢ – ١٩٩٦م قتل أكثر من مائتي ألف بوسني ـ وهو أكبر إبادة عرقية حكومية منتظمة نفذها الايدولوجيون المتعصبون الصرب ضد الشعب الأوربي البوسني المسلم.

خلال هذا البحث نكتب باختصار اعتمادا على المؤلفات

والمصادر المتاحة عن حقيقة الصراع العرقي بالبلقان ولاسيما عن ذلك الجزء الذي يقع فيه كل من صربيا والجبل الأسود والكوسفو والسنجك والبوسنة والهرسك.

الفترة ذات الأهمية بالنسبة لنا تبدأ مع بداية القرن التاسع عشر وتمتد إلى نهاية القرن العشرين. قانون واحد ساد خلال تلك الفترة من الزمان وهو: كل ما كان هنالك شغب بالبلقان فإن الشعوب الإسلامية المعتقد هي التي تدفع الثمن - البوسنيين والألبان وتربشي وبوماك.

أكتب هذه الدراسة بهدف إظهار ما يحيق من خطر بسكان أوربا من المسلمين، أي من سكان البلقان، من البوسنيين والألبان والمكدونيين والأتراك ونور وتربشي وبوماك... الخ.

وأيضاً خلال هذه الدراسة أود أن أؤكد أن الصراع العرقي بالبلقان لم يكن قط نتيجة إكراه شعوب البلقان بعضهم البعض خلال القرون كما تزعم بعض الدوائر السياسية الغربية.

بالعكس فإن الصراعات العرقية بالبلقان خلال القرنين الماضيين هي نتيجة المخطط العرقي الصربي. هذا المخطط يسمى بـ(صربيا الكبرى) الذي قنن الكراهية نظامياً وصدرها كوسيلة لتحقيق المخطط العرقي الصربي الكبير. في هذا المقام نشيد بحكة تقييم السيد نيولا مالكو لما في كتابيه عن البلقان (البوسنة - تاريخ قصير صدر في نيويورك في عام ١٩٩٤م) و(الكوسفو - تاريخ قصير) صدر في لندن ١٩٩٨م، واللذين أثبت فيهما أن شعوب البلقان خلال التاريخ عاشوا فترات طويلة من السلام والتعاون واستشارة بعضهم البعض وليس دائماً يسيطر عليهم ـ الحقد

والكراهية ـ لهذا فإن الإبادة والتطهير العرقي والصراعات العرقية بالبلقان ليست وليدة الحقد والكراهية بين تلك الشعوب. بل الإبادة والتطهير العرقي والصراعات العرقية بالبلقان هي وليدة سياسات الحكم الصربي ومؤسساته الحكومية شارك معهم في ذلك الكنيسة البروتستانتية وأكاديمية العلوم والفنون الصربية لبث الكراهية والحقد ضد المسلمين. كان ذلك في الفترة التي نجحت فيها السياسة الصربية لقيادة تلك المؤسسات وتسييرها حسب إرادة الحكم الصربي المتحكم.

مولد اسطورة كوسوفو والصراعات العرقية في البلقان

إن معركة كوسوفو المشهورة والواقعة في ٢٨ يونيو سنة ١٣٨٩م كانت معركة انتصر فيها الجيش العثماني على الجيش الصربي في القرون الوسطى. وفي المؤلفات التاريخية والكتب التي ألفها مؤرخون جادون لم يرد ذكر تلك المعركة الا عابرا مع غيرها من المعارك التي انتصر فيها الجيش العثماني بشكل روتيني وهو يتغلغل في البلقان. فالألماني جوزيف فون هامر (Joseph von Hammer) مثلا في كتابه بعنوان «تاريخ الامبراطورية العثمانية» (Geschichte des Osmanischen Reiches)،[1] يصف هذه المعركة كغيرها من المعارك، منبها قراءه إلى أنه فيما يتعلق بهذه المعركة تختلط الإسطورة والخيال من جهة والواقع والحقيقة من جهة أخرى. ويقول جوزيف فون هامر إنه يجب ألا نصدق كل ما ورد في الأغاني الشعبية عن هذه المعركة.

والمؤرخ خليل إينالجك (Halil Inaldzik) بدوره لم يشر إلى هذه المعركة إلا مرتين في كتابه الشهير بعنوان «الإمبراطورية

(١) اور د حسب ما جاء في كتاب :Joseph von Hammer Geschichte des Osmanischen Reiches (تاريخ الامبراطورية العثمانية)، المجلد الاول، زغرب سنة ١٩٧٩م - ص ٧٤.

العثمانية» (The Ottoman Empire)،[٢] تاركا انطباعا بأنه يعتبرها واحدة من معارك كثيرة أقل شأنا خاضتها الإمبراطورية العثمانية وانتصرت فيها خلال استيلائها على البلقان.

ولكن إذا كانت هذه المعركة بالنسبة للعثمانيين مجرد واحدة من معارك كثيرة، فإن ساحة كوسوفو والمعركة التي دارت فيها هي بالنسبة للصرب معركة المعارك جمعاء؛ أو هكذا على الأقل ظلت تنظر إليها السياسة الصربية والأمة الصربية منذ القرن التاسع عشر.

ففي سجل التاريخ الصربي الذي ظهر في القرن التاسع عشر والذي اكتمل تماما في القرن العشرين، تحولت موقعة كوسوفو إلى إسطورة. وأيدت الكنيسة الأرثودكسية الصربية تلك الإسطورة وشاركت في ابتداعها.

لكن من الضروري أن نعرف أن السياسة القومية الصربية لم تبتدع هذه الإسطورة لأسباب دينية؛ بل إن الإسطورة ابتدعت لأسباب براغماطية سياسية وبغرض تطوير وتنفيذ البرنامج القومي الصربي في البلقان إبان اضمحلال الإمبراطورية العثمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

فخلال تكوين الدولة الصربية المستقلة في القرنين التاسع عشر والعشرين بينما كان الوهن يدب في أوصال الإمبراطورية العثمانية، استغلت إسطورة كوسوفو في المقام الأول بهدف تعبئة الجماهير الشعبية الصربية لتحطيم الإمبراطورية العثمانية.

---

(٢) راجع خليل انالجك Halil Inaldzik : The Ottoman Empire (الامبراطورية العثمانية)، لندن، سنة ١٩٩٧م، ص ١٥.

وفي الأزمنة التي تلت أضيفت لمعركة كوسوفو أبعاد لم تكن لها في واقع الأمر سنة ١٣٨٩م. ومن أمثلة تلك الأكاذيب التي تعلق بمعركة كوسوفو أنها كانت معركة بين الإسلام والمسيحية. غير أن نويل مالكولم (Noel Malcolm) الخبير البريطاني الشهير في شؤون تاريخ البلقان يقول إن من غير الممكن قبول مثل هذا التفسير، وإنه تفسير ينافي الحقيقة.

وفي رأي نويل مالكولم أنه من الخطأ تفسير معركة كوسوفو بأنها كانت صراعا بين الإسلام والمسيحية أو صراعا بين الشرق المسلم والغرب المسيحي؛ وذلك ببساطة لأنه كانت هنالك فرق كثيرة مكونة من المسيحيين تقاتل مع العثمانيين وإلى جانب العثمانيين. ثانيا لم تكن التقسيمات الجغرافية الاستراتيجية إلى الشرق والغرب معروفة سنة ١٣٨٩ من ميلاد المسيح عليه السلام. أضف إلى ذلك أن المؤرخين الجادين يؤكدون أنه كان من المعتاد في القرون الوسطى في البلقان، بل وفي غيره من أنحاء أوربا، أن فرق الجيوش الأجنبية كانت تتقاضى الثمن وأنهم كثيرا ما كانوا يتغاضون عن ديانتها. وقد استخدم حكام البلقان في القرون الوسطى الألمان والمجريين والكتالونيين وغيرهم كجنود مرتزقة. والأباطرة الصرب أنفسهم، مثل الإمبراطور ميلوتين والإمبراطور دوشان اعتادوا، قبل معركة كوسوفو سنة ١٣٨٩م، أن يستأجروا فرقا تركية كمرتزقة لهم. وهكذا دافع الأباطرة الصرب عن أنفسهم بمساعدة جيش تركي مرتزق، ضد بيزنطة والسيطرة البيزنطية.

ويقول مالكولم نويل بالحرف، في كتابه «مختصر تاريخ كوسوفو» (Kosovo - A Short History) ص ٦٠

«كانت للإمبراطور ميلوتين قوة كبيرة من الأتراك الكومان واستخدم الإمبراطور دوشان الأتراك في جيشه.»

والتاريخ مليء بمثل تلك الأمثلة، حيث كانت تستخدم الجيوش المرتزقة، ومن ثم لم يلتق المسلمون من جهة والمسيحيون من الجهة الأخرى بسيوفهم في معركة كوسوفو. وعليه تحدثنا المصادر التاريخية أن المسيحيين أيضا حاربوا إلى الجانب التركي في كوسوفو. وهكذا يقول مالكولم نويل (ص ٦٣)، «يؤكد رصد تاريخي إيطالي مبكر سجل بعد سبعة عشر عاما، على وجود جنود (إغريق ومسيحيين) في الجيش التركي»، و يستنتج أن «انتصار مراد كان بفضل الخمسة آلاف من الرماة المسيحيين الذين استؤجروا من الإغريق والجنويين (نسبة إلى جنوا) وجنود كثيرين آخرين على ظهور الخيل.»

وكانت الأجيال من الصرب التي أتت بعد سنة ١٣٨٩ تعرف أن معركة كوسوفو كانت من المعارك التي كان التاريخ مليئا بأمثالها. لكن صرب القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين حولوا معركة كوسوفو إلى إسطورة وتغنوا بها في أغانيهم الشعبية كانتصار لهم ضد الأتراك والإسلام.

ولهذا السبب يصعب على المؤرخين الصرب اليوم أن يفصلوا بين الحقيقة والإسطورة. لكن هناك مؤرخين أجانب يعرفون ذلك. ومالكولم نويل واحد من مؤرخين كثيرين حاولوا أن يفصلوا الإسطورة الصربية عن التاريخ الصربي. وكثيرا ما يؤكد في مؤلفاته أنه كمؤرخ ليس ضد الصرب ولا ضد تاريخ الصرب، بل ضد الأسطورة الصربية. فهو في كتابه «مختصر تاريخ كوسوفو» (Kosovo - A Short

History)[٣] يقول باختصار، «أن مقاصدي من كتابة هذا الكتاب (حول كوسوفو) لم تكن ضد الصرب، بل ضد الأساطير!».

لقد أوضح مالكولم نويل وغيره من الاختصاصيين بشئون البلقان مثل فرانسينا فريدمان (Francina Friedman) «مسلمو البوسنة» (The Bosnian Muslims, 1996 Westview Press, Oxford) و هـ.ت. نوريس (Norris .T.H) «الإسلام في البلقان» (Islam in the 1993 Balkans, London,) ومارك بينسون (Mark Pinson) «مسلمو البوسنة والهرسك» (The Muslims of Bosnia-Herzegovina, Cambridge, 1994 Massachusetts,)، أوضحوا وكشفوا الإسطورة الصربية عن كوسوفو وإسطورة الصرب «كمحررين للبلقان».

وقد ادعى المؤرخون والإيديولوجيون الصرب أمثال يوفان تسفيتش وستيفان موليفيتش وإيليا غراشانين... أن البلقان كان منذ القدم مسرحا للصراعات العرقية وأن جميع شعوب البلقان كانت عبر قرون عديدة تقف ضد الصرب.

وفي سعيهم لقراءة تاريخ البلقان برمته من خلال عدسة الصراعات العرقية، وصف الإيديولوجيون الصرب والإيديولوجية القومية الصربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين الألبانيين والبوشنياق والمقدونيين والكروات وحتى أبناء الجبل الأسود أحيانا

(٣) نويل مالكولم، Noel Malcolm: Kosovo, A Short History (مختصر تاريخ كوسوفو)، نشر بمكتبة ماكميلان، لندن، ١٩٩٨م (انظر المقدمة).

وهم أرثودكسيون (كانوا في أغلب الأحيان حلفاء الصرب) أعداء للصرب. فقد كان الصرب في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بحاجة لمثل تلك الادعاءات - إذ كانوا في ذلك الوقت يقومون بتكوين دولتهم القومية.

وكان لا بد للإيديولوجية القومية الصربية وهي تبتدع إسطورة كوسوفو أن تختلق لها أعداء في البلقان. وكانوا أحيانا يصفون كل الشعوب البلقانية بأنهم أعداء للصرب.

ولكن ليس صحيحا أن الجميع في البلقان كانوا دائما ضد جميع من سواهم. فخلال تاريخ البلقان والذي يمتد لألف سنة نجد أنه كانت هنالك فترات طويلة من علاقات حسن الجوار والتعاون السياسي فيما بين شعوب البلقان. وكانت التحالفات تبرم وتلغى حسب الاحتياجات والمصالح السياسية. وقد رأينا فيما تقدم أن المؤرخين يؤكدون أنه إبان معركة كوسوفو نفسها (١٣٨٩) قاتل الجنود الصرب والألبانيون كحلفاء ضد العثمانيين. زد على ذلك، أن العثمانيين أنفسهم كانت لهم في كوسوفو فرق مرتزقة من الجند الصرب والألبانيين.

ومن ثم، تقول الحقيقة التاريخية إن الكثيرين من الصرب والألبانيين كانوا تحت قيادة الإمبراطور الصربي لازار، بينما كان كثير من الصرب والألبانيين من الناحية الأخرى تحت قيادة السلطان العثماني مراد الأول! ولذلك لا يمكن النظر لمعركة كوسوفو نفسها كأسود على أبيض.[٤]

إن التاريخ الصربي، كأي تاريخ آخر، شيء والإسطورة الصربية شأنها شأن غيرها من الأساطير، شيء آخر تماما.

(٤) نفس المصدر - ص ٤١

كذلك، حين اقتحم الجيش النمساوي الهنغاري منطقة كوسوفو في نهاية القرن السابع عشر، اتحد الصرب والألبانيون، حتى الألبانيون المسلمون، ووقفوا إلى جانب الإمبراطورية النمساوية الهنغارية للتخلص من العثمانيين. وهذه الحقيقة أيضا، كغيرها من حقائق كثيرة أخرى من نوعها تدل على أن من الخطأ قراءة تاريخ البلقان أو أي تاريخ آخر كأسود على أبيض. كذلك حين غزت الإمبراطورية النمساوية الهنغارية كوسوفو سنة ١٧٣٧ اتحد الألبانيون والصرب من المناطق الجبلية في شمال ألبانيا والجبل الأسود للاستفادة من غزو الجيش النمساوي الهنغاري والتحرر بذلك من العثمانيين.(٥)

ثانيا، يؤكد المؤرخون أن الألبانيين المسلمين حافظوا لقرون على الكنائس الأرثودكسية الصربية في كوسوفو إبان الحكم العثماني في البلقان.(٦) وكان هناك تقليد سائد بأن يحافظ الألبانيون المسلمون على المعابد والكنائس الصربية في كوسوفو. وهو تقليد يشبه في الكثير دور المسلمين في القدس، حيث يقوم الحراس المسلمون بالمحافظة على مفاتيح بعض الكنائس في القدس.

وكانت بين الألبانيين والصرب على عهد الإمبراطورية العثمانية علاقات وثيقة في الكثير من الأوجه رغم أن اللغة كانت تفصل بينهم وإن كانت هناك أمثلة للاستيعاب العرقي واللغوي في الاتجاهين (من جانب الألبانيين تجاه الصرب ومن

(٥) نفس المصدر - ص ٤٠

(٦) نفس المصدر - ص ٤٠

جانب الصرب تجاه الألبانيين). كذلك كان هنالك وعلى امتداد قرون ألبانيون واصراب يتكلمون اللغتين الصربية والألبانية.

وبالطبع، لا يعني كل هذا أن روح التسامح والعلاقات الطيبة بين القوميات كانت تسود على الدوام في كوسوفو والجبل الأسود وجنوب صربيا. فهنالك أمثلة من عدم التسامح كما هو الحال في كل مكان عبر التاريخ. ويقول مالكولم نويل في كتابه في هذا الشأن ما يلي: «كانت الظروف المحيطة خلال جزء كبير من تاريخها (تاريخ كوسوفو) أبعد ما تكون عن المثالية. وتقع الكثير من المسؤولية عن ذلك على عاتق الحكام الألبانيين الجشعين هناك وخاصة في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، حيث كانت أملاك القرويين المسيحيين تمثل فريسة سهلة. لكن هذا الشكل من الاستغلال، كما أشرت إليه من قبل، لم يكن بدافع ديني في المقام الأول ولا بسبب الانتماء العرقي. فقد عانى القرويون الألبانيون المسلمون أنفسهم الكثير. والذي حول الانقسام بين الصرب الأرثودكس والألبانيين المسلمين إلى صراع عام ومنتظم، هو تسييس تلك المسألة التي اتخذت ذلك الطابع في القرن التاسع عشر، خلال نمو وتوسع الدول المسيحية في البلقان.[٧]

ويجمع المؤرخون من أمثال نويل مالكولم وفرانسينا فريدمان ونوريس ومارك بينسون... وغيرهم، بوضوح شديد لا لبس فيه، على أن المؤرخين الصرب ليسوا وحدهم الذين زيفوا تاريخ حكم الإمبراطورية العثمانية في البلقان، بل فعل ذلك أيضا المؤرخون الألبانيون والكروات والبلغار. فحين ضعفت الإمبراطورية العثمانية وغادرت البلقان، سعت

(٧) نفس المصدر - ص ٤١

هذه الشعوب لإقامة دولها القومية وعندها حرفوا التاريخ وشوهوا الحقائق، من أجل الاستهلاك السياسي المحلي. كذلك عرض هؤلاء المؤرخون حكم العثمانيين في البلقان كأنه استبعاد...

هذا ومن المعروف في أوربا أن القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كانا عصر الرومانسية. وكان البلقان وقتها يزخر بالرومانسية والأحلام. وهكذا نستطيع تتبع ظاهرة ما يسمى بأحلام (صربيا الكبرى) و(ألبانيا الكبرى) و(كرواتيا الكبرى) و(بلغاريا الكبرى)... الخ. منذ ظهور الإيديولوجيات القومية في البلقان، أي منذ القرن التاسع عشر.

وأصبحت الدول ذات السكان المختلطين قوميا ودينيا، مثل البوسنة والهرسك ومقدونيا هدفا للطموحات وموضوعا للمزايدات فيما بين إيديولوجي الدول الكبرى. ومن ثم، منذ وجدت فكرة (صربيا الكبرى) أو (كرواتيا الكبرى) وجدت أيضا فكرة تقسيم البوسنة والهرسك. وتلك الفكرة مربوطة بالتطهير العرقي وقتل البوشنياق، لأن البوشنياق عائق في طريق تحقيق (صربيا الكبرى) و(كرواتيا الكبرى). وكذلك، منذ وجدت فكرة (صربيا الكبرى) و(ألبانيا الكبرى) و(بلغاريا الكبرى) وجدت فكرة تقسيم مقدونيا أيضا.

وكان الإيديولوجيون القوميون الصرب الذين نصبوا أنفسهم مهديين قوميين في البلقان ينكرون وجود المقدونيين وأبناء الجبل الأسود والبوشنياق، كأمم قائمة بذاتها. وكانوا يقولون عن البوشنياق أنهم صرب دخلوا الإسلام.

وقد نشر أسعد زغوديتش الأستاذ بكلية العلوم السياسية بجامعة سراييفو مؤخرا كتابا بعنوان «إيديولوجية الخلاص

القومي»،[٨] ويؤكد هذا الأستاذ أنهم كانوا ينظرون للأمة وللدولة القومية في البلقان وفي أوربا في القرن التاسع عشر، باعتبارهما المهدية التي ستنقذ شعوب البلقان من الشر وتسير بها في طريق الخلاص والنور.

ولكن ليس هناك شعب في البلقان عرف كيف يستخدم أساطيره القومية ورومانتيكيته ومن ثم أحلامه «بالدولة الكبرى» بذلك القدر من المهارة التي استخدمها بها الصرب.

فقد كانت نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر هما بالتحديد الفترة التي شرعت فيها السياسة القومية الصربية بخلق إسطورة معركة كوسوفو، باعتبارها الحدث المركزي لا في التاريخ الصربي وحده، بل في تاريخ البلقان قاطبة وحتى تاريخ أوربا نفسها!

فقد بدأ المؤرخون والسياسيون الصرب في القرن التاسع عشر أمثال ستيفان موليفيتش وإيليا غراشانين ويوفان تسفييتش وغيرهم بتزييف تاريخ الصرب تحت الإمبراطورية العثمانية. ومع أن الصرب جنوا المكاسب تحت الإمبراطورية العثمانية، اطلقت إيديولوجيتهم القومية على عهد الحكم العثماني في البلقان اسم «عهد الاستبعاد التركي».

وأنت ترى ذلك في كل جوانب التفكير القومي الصربي والثقافة القومية الصربية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. فعلى سبيل المثال جمع الصرب في هذه الفترة الأغاني الملحمية الشعبية التي تعرض تاريخهم كتاريخ عذاب طويل تحت

(٨) اسعد زغوديتش Esad Zgodić - ايدويولوجية الخلاص القومي، سراييفو، سنة ١٩٩٩م.

العثمانيين. وتظهر هذه الأغاني الملحمية الصرب وكأنهم محررو البلقان وحماة أوربا في وجه الغزو الإسلامي.

واحتلت الأغاني عن معركة كوسوفو مكان الصدارة في هذا الشكل من التعبير القومي والثقافي الصربي وبالتالي في البرنامج السياسي.

و في هذا المجال هناك الكثير من الأشياء المضحكة الكاريكاتيرية. فالصرب مثلا يغنون أغاني عن البطل ماركو كراليفيتش وكأنه مقاتل ضد الأتراك. لكن الأمر كذلك في الأغاني؛ بينما يحدثنا التاريخ الحقيقي أن ماركو كراليفيتش كان تابعا للأتراك وأنه حارب لصالح الإمبراطورية العثمانية.

والشاعر الصربي بيتر بتروفيتش نيغوش وهو من الجبل الأسود أكثر استخدام الشعر بصفة خاصة في تأجيج الأحاسيس القومية عند صرب القرن التاسع عشر. فهو في قصائده يتكلم عن الإسلام بأسوأ العبارات. وعلى سبيل المثال يقول عن صوت الإمام والمؤذن الذي يتلو الأذان «الخوجا (الشيخ) ينهق». وكتب نيغوش هذا مؤلفات عن «إبادة المتتركين» (الذين اعتنقوا الإسلام).

ولا يمكننا هنا أن نعدد كل أولئك الإيديولوجيين القوميين والشعراء والأدباء الصرب الذين وهبوا أقلامهم للكتابة ضد مسلمي البلقان في القرن التاسع عشر. واستخدم ذلك القدر الضخم من الأدبيات الصربية للتعبئة السياسة القومية للصرب من ناحية، أما من الناحية الأخرى فقد ولدت تلك الأدبيات لدى أجيال صربية عديدة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين كراهية تجاه البوشنياق والألبانيين، أي تجاه تلك الشعوب البلقانية التي تتكون أغلبيتها من المسلمين.

وبديهي أن للشعوب الأخرى أيضا ملاحمها البطولية وأغانيها وليس الصرب هنا حالة استثنائية. فللعرب ملاحمهم عن عنترة والفرس لهم ملاحم بطولية عديدة مثل ملحمة «شاهنام» للفردوسي مثلا... الخ.

ولكن خلافا عن الصرب والسياسة القومية الصربية، لم يستخدم العرب ولا الفرس في تفكيرهم القومي ملاحمهم البطولية كوسيلة للانفراد بحكم الشرق الأوسط والسيطرة عليه! ولم يرتكب العرب إبادة منظمة ضد البربر واليهود ولم يستخدموا لذلك الغرض الملاحم التي روت عن بطلهم القديم عنترة.

لكن الأغاني الملحمية للصرب تتحدث عن الصرب وكأنهم «شعب مختار»، وكأنهم الوحيدون سادة البلقان، كأنهم «شعب سماوي» يحمل شعلة الحرية وواجبه، بل وحقه الطبيعي أن يكون سيدا على الشعوب الأخرى. وهنا يكمن الاختلاف الأساسي حين يتعلق الأمر بالاستخدام السياسي للثقافة.

فقد جنى الصرب من إضفاء الطابع الإسطوري على تاريخهم فائدة كبيرة لأنهم بذلك ساعدوا في إقامة دولتهم، أولا صربيا ثم يوغسلافيا من بعد. وبالطبع كان تاريخ صربيا الحديثة، بل وتاريخ مملكة يوغسلافيا مهلكا لمسلمي البلقان. فخلال كل حرب في البلقان في القرن التاسع عشر والقرن العشرين كانت ترتكب الإبادة بحق مسلمي البلقان أو كانوا يطردون إلى تركيا. ولقب بشناق لقب معروف من فلسطين والأردن وصولا إلى تونس. وقد طرد الصرب أسلاف المغني التونسي الشهير لطفي بوشناق من البوسنة في القرن التاسع عشر.

ولننظر الآن هل كان بين الصرب أنفسهم مثقفون ذوو نظرة مختلفة لتاريخهم استبعدوا إضفاء الطابع الإسطوري على تاريخ الصرب.

ولنبادر بالقول بأن أمثال هؤلاء كثيرون. وما أكثر الفلاسفة والمنظرين الأدبيين الصرب الذين انتقدوا موقف الإيديولوجية القومية والسياسية الصربية تجاه إسطورة كوسوفو واستخدام تلك الإسطورة في السياسة. فقد ألف الصربي ميودراغ بوبوفيتش كتاب «يوم القديس فيتاس والصليب المقدس» (بلغراد، سنة ١٩٧٦م) الذي أوضح فيه بأمانة أن التاريخ الحقيقي للصرب تحت الإمبراطورية العثمانية لا صلة له البتة بالأساطير التي تحكي في الأغاني الملحمية الصربية. كذلك يذكر بوبوفيتش بموضوعية تامة أن الصرب وصربيا كانوا لقرون جزءا لا يتجزأ من النظام الحكومي والقانوني للإمبراطورية العثمانية. وإسطورة ما يسمى «بالاستعباد التركي» ابتدعت فيما بعد، لتعبئة الصرب بهدف إقامة دولة مستقلة. وإلى ذلك تعود النزعة المعادية للأتراك والإسلام في تلك الإسطورة.

ونشر الدكتور ميركو ميركوفيتش الصربي الأستاذ بجامعة بلغراد كتابا بعنوان «الوضع القانوني وصفة الكنيسة الصربية تحت الحكم التركي ١٤٥٩ - ١٧٦٦)» في بلغراد ١٩٦٥م. ويؤكد الدكتور ميركو ميركوفيتش من خلال بحثه حول وضع الكنيسة الأرثوذكسية الصربية تحت الحكم التركي، أن الكنيسة الصربية كانت في الواقع أكبر مالك للأرض وأكبر إقطاعي في عهد الإمبراطورية العثمانية.

و يؤكد الدكتور ميركو ميركوفيتش أن الكنيسة الأرثودكسية الصربية كانت في عهد الإمبراطورية العثمانية مميزة تتمتع بكافة ما يحق لها من الامتيازات النابعة من الشريعة الإسلامية. فقد كانت ممثلة لمعتنقي الديانة الأرثوذكسية وتقوم بتنظيم كافة شؤونهم الخاصة وأحوالهم الشخصية وكانت تفصل في خلافاتهم الخاصة وكانت تحتل مكانة مرموقة في المجتمع العثماني.

ويورد الدكتور ميركو ميركوفيتش في كتابه عددا من الأمثلة التي تشير إلى أن الإمبراطورية العثمانية نفسها كانت تشيد الأديرة والكنائس الأرثوذكسية في مختلف أنحاء صربيا من أموال الدولة.

ويؤكد ميودراغ بوبوفيتش وميركو ميركوفيتش أن التاريخ الحقيقي شيء والإسطورة شيء آخر تماما.

ومع ذلك، أثناء الاحتفال بالذكرى السنوية الستمائة لمعركة كوسوفو في ٢٨ يونيو ١٩٨٩م، حشد الرئيس اليوغسلافي الحالي سلوبودان ميلوشيفيتش في مدينة «كوسوفو بوله» من جديد حوالي مليون صربي، ليبدأ بتلك التظاهرة الحرب من أجل «صربيا الكبرى». وكما هو معروف، قال ميلوشيفيتش عندها إن الصرب دافعوا عن أوربا في وجه الإسلام قبل ستمائة سنة. وقد كان خطابه ذلك إيذانا ببداية الحرب في يوغسلافيا الاشتراكية التي كانت آخذة في التفكك.

ومن المعروف أنه في الفترة من ١٩٩٠ -١٩٩٥م قتل في سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك حوالي ٢٣٠,٠٠٠ شخص بينهم ٢٠٠,٠٠٠ من المسلمين.

واوقف حلف الناتو سنة ١٩٩٥م قتل مسلمي البلقان وإبادتهم بقصف المواقع العسكرية الصربية في البوسنة والهرسك.

كذلك اضطر الناتو سنة ١٩٩٩م وبنفس الوسائل للحيلولة دون القضاء التام على الألبانيين المسلمين في كوسوفو.

إن ذلك يدل على أن الإحساس بالاسطورة عند الصرب لا يزال أقوى من إحساسهم بالتاريخ الحقيقي. وستستمر مثل تلك الحالة تثقل العلاقات بين القوميات في البلقان.

دور المستشرقين الصرب في تبرير الإبادة بحق المسلمين في البلقان

في مقال له نشر بمجلة (الفصلية الإسلامية Islamic Quarterly)[1]، (المجلد ٣٨، رقم ٣)، حلل فيه دور المستشرقين الصرب في إعداد الرأي اليوغسلافي للحرب التي دارت من سنة ١٩٩٠-١٩٩٥م، يؤكد نورمان سيغار ما يلي:

«إن جماعة المسلمين بجمهورية البوسنة والهرسك اليوغسلافية سابقا، هي بالفعل ضحية ما يمكن تسميته بأي معيار قانوني وأخلاقي مقبول بالإبادة! وفي قلب هذه المأساة تقف الأيديولوجية القومية التعصبية الصربية، صارخة الألوان، مستلهمة الاستشراق بمعناه العريض وفي إطار المفهوم الشامل، الاستشراق كتجسيد عدواني صارخ لعملية اتسمت بتقسيم مانوي إلى «هم» و«نحن»، حسب دراسة قام بها أدوارد سعيد في كتابه الرائد عن هذه الظاهرة».[2]

---

(١) نورمان سيغار، Norman Cigar, Serbias Orientalists and Islam: Making Genocide Intellectually Respectable, Islamic Quarterly, Volume XXXVIII, No. 3, (Third Quarter, 1994).

(٢) نفس المصدر، ص ١٤٧.

فمنذ السبعينات من القرن العشرين بذلت الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون والمستشرقون الصرب وهم يعدون مشروع إقامة ما تسمى «بصربيا الكبرى»، كل طاقاتهم ليثبتوا علميا الأطروحة التالية:

– المسلمون في البلقان هم الجزء الرجعي من السكان وهم بقايا الإمبراطورية العثمانية ولا يمكنهم الامتزاج بأوربا.

– المسلمون في البلقان أصوليون إسلاميون وبين الأصولية والإرهاب خطوة واحدة فقط.

– الدور الرئيسي في الدفاع عن أوربا ضد ما يسمى بخطر المسلمين يقع على الصرب.

وقد أيدت السلطات الصربية واليوغسلافية هذا الموقف للأكاديمية الصربية للعلوم والفنون والمستشرقين الصرب واليوغسلاف أو بالأحرى كان التأييد متبادلا ومن الجانبين. وبهذا وجدت الصلة بين العلم والسلطة في يوغسلافيا. ويقول نورمان سيغار (Norman Cigar) إن المستشرقين استغلوا واستخدموا في مختلف الأماكن والأزمنة، ليفسروا ويؤيدوا السياسة الرسمية الصربية تجاه المسلمين. وعن هذه الظاهرة قال ستيوارت شار (Stuart Schaar) إنها «استشراق في خدمة الإمبريالية» (Orientalism at the Service of Imperialism)[٣]. أما في السياق اليوغسلافي، فقد كان

(٣) انظر ستيوارت شار (Stuart Schaar)، Orientalism at the Service of Imperialism, Summer 1979, Race and Class.

ذلك استخداما للاستشراق لتبرير «التطهير العرقي»، كما جرت العادة على تسمية عملية الإبادة في البوسنة والهرسك، في وسائل الاعلام العالمية.

منذ متى بدأ ما يمكن أن نسميه بالاستشراق الصربي؟

هنالك رأي بأنه لا يوجد استشراق صربي بالمعنى العلمي، لأن المستشرقين الصرب، مقارنة بالمستشرقين الألمان والإنجليز والفرنسيين، لم يفعلوا إلا القليل جدا في ترجمة المؤلفات الكلاسيكية العربية والفارسية والتركية إلى اللغة الصربية. ويقول نورمان سيغار محقا: «إن المستشرقين الصرب عادة لا يرغبون في اجتذاب أكثر من انتباه عابر نحوهم. فعلمهم ضئيل وعددهم، كانجازهم قليل. غير أن ما يضفي عليهم أهمية هو علاقتهم وموقفهم من السياسة تجاه مسلمي البوسنة والهرسك. فقد كانوا في الجبهة الأمامية للحركة المعادية للإسلام منذ سنة ١٩٨٠ وساهموا بقدر كبير في الإبادة بحق المسلمين من خلال ايجاد هذه العملية وجعلها مقبولة عقلانيا وسط جميع قطاعات المجتمع الصربي».[٤]

وبالفعل، كان المستشرقون الصرب في مخاطباتهم العامة في شكل مقابلات صحفية أو مقالات، يثيرون الكراهية ضد المسلمين في البلقان. وكان مسلمو البوسنة والهرسك في قلب اهتمام المستشرقين الصرب، مع أنهم كثيرا ما كتبوا أيضا عن المسلمين في بقية أنحاء يوغسلافيا السابقة التي يعيش فيها

(٤) نورمان سيغار، نفس المصدر - ص ١٤٧.

عدد كبير من السكان المسلمين، مثل كوسوفو والسنجق وصربيا نفسها.

ومن بين جميع المستشرقين الصرب ينفرد بصفة خاصة، بحملته المعادية للمسلمين داركو تاناسكوفيتش، الأستاذ بكلية اللغات بجامعة بلغراد. وهو من الأساتذة الذين يحتلون مكانة عالية في بلغراد. وهو ابن جنرال في الجيش اليوغسلافي الشيوعي وكان سفيرا ليوغسلافيا في تركيا. وله أيضا بعض المؤلفات القيمة مثل ترجمة (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ. لكن داركو تاناسكوفيتش لم يتحسس طريقه جيدا في السياسة. فكتاباته وتصريحاته العلنية وخاصة إبان عدوان الجيش الصربي على سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك، كانت دوما على ارتباط وثيق عمليا بالقرينة السياسية والأهداف السياسية ولم تكن لها أية صلة بالعلم. وحتى قبل حرب ١٩٩٠ - ١٩٩٥، كان داركو تاناسكوفيتش معروفا بأنه مستشرق صربي متطرف. وهو كاتب المقال الشهير بعنوان (بين القرآن و القدر - بالإنجليزية Between the Qur'an and the Pot) بمجلة (نين NIN) البلغرادية الاسبوعية بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٨٩م، الذي اعترض فيه على حق الجنود المسلمين بالجيش اليوغسلافي في أن يكون غذاؤهم متمشيا مع أحكام الشرع. فقد وصف كل تلك المطالب بأن يكون للمسلمين غذاء خاص في الجيش اليوغسلافي، ببساطة بأنها اصولية إسلامية.

وقد برر المستشرق تاناسكوفيتش وشجع في العديد من المقالات والمقابلات الصحفية التي نشرها، حملة الجيش الصربي والسياسة الصربية في سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك. ففي المقابلة

التي أجرتها معه مجلة (الجيش) - المجلة الرسمية للجيش اليوغسلافي - في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٩٣م تحدث داركو تاناسكوفيتش بوضوح شديد عن المسلمين في البلقان. وطرح كل نظرياته تحت تصنيف «نحن» و«هم». ولفظ «هم» هذا يعني مسلمي البلقان الذين يؤكد تاناسكوفيتش أنهم بتناسلهم ومعدل توالدهم سيغمرون أوربا. وعنوان هذه المقابلة بحد ذاته له دلالته الواضحة جدا، إذ يقول «أوربا لن تتفادى الجهاد الديمغرافي (Europa Will Not Avoid the Demographic Jihad). تلك هي كلمات داركو تاناسكوفيتش، التي يوجهها لأوربا ويطالبها أن تقبل بدورها بالبرنامج القومي التعصبي الصربي الذي يهدف للتطهير العرقي في البلقان، لأن المسلمين في البلقان لو تركوا يتوالدون بهذا العدد، فإنهم، كما يدعى تاناسكوفيتش، سيغمرون أوربا!!!

بهذه النصوص وما شابهها ينشر تاناسكوفيتش الكراهية ضد المسلمين والاسلام، ويعرض الأطروحات التالية:

١) المسلمون عنصر أجنبي غريب في البلقان والبلقان ليس وطنهم.

٢) الإسلام في أوربا جسم غريب والاسلام بالنسبة لأوربا هو القطب المضاد هو القطب السالب.

٣) المسلمون عدوانيون ولا أخلاقيون وباختصار لا ضرورة لوجودهم في البلقان ومن ثم يجب حل مسألة المسلمين بالحرب.

٤) مسلمو البلقان خونة، لأنهم باعتناقهم للإسلام خانوا ديانتهم المسيحية وأسلافهم المسيحيين، حسب هذا الزعم.

ويغلب على كل ما نشر لتاناسكوفيتش من مقالات منذ سنة ١٩٩٠م هدف واحد لا غير: لقد أراد الهجوم على الإسلام والمسلمين من المواقع التي تسمى فكرية وأن يضمن من ثم دعما علميا للنمو السريع لأيديولوجية التعصب القومي وسط الصرب.

كذلك ظل داركو تاناسكوفيتش يعرض هذه الأيديولوجية التعصبية القومية الصربية كأيديولوجية تقدمية، كشيء يحمي أوربا من الغزو الاسلامي. وتاناسكوفيتش ينتمي لتلك المجموعة من العلماء الصرب الذين، كما يقول نورمان سيغار، كثيرا ما كانت تترجاهم بلغراد وحكومة صرب البوسنة وكذلك الحكومة اليوغسلافية ليخاطبوا الرأي العام الأوربي عبر مختلف وسائل الإعلام اليوغسلافية وليوضحوا ويبرروا للرأي العام الصربي السياسة الرسمية للدولة تجاه المسلمين.

ففي مقال بعنوان «الأتراك يدافعون عن سراييفو» نشر بمجلة (ايبوخا - العصر) - المجلة الرسمية لحزب ميلوشيفيتش، يسمى داركو تاناسكوفيتش مسلمي البوسنة بالأتراك. وهو يريد بذلك أن يقول أن مسلمي البوسنة ليسوا عنصرا أصيلا في البوسنة، بل عنصر أجنبي، ينبغي كنسهم من البوسنة عن طريق التطهير العرقي.(٥)

و يتضمن مقال آخر لداركو تاناسكوفيتش بعنوان «خلع

(٥) للمزيد من التفاصيل انظر: داركو تاناسكوفيتش (Darko Tanasković)، الأتراك يدافعون عن سراييفو (Turci brane Sarajevo)، مجلة العصر (Epoha)، ٧ يناير ١٩٩٢، ص ٢١، بلغراد، ١٩٩٢م.

الأحذية في حجرة الانتظار الأوربية، نشر في بلغراد سنة ١٩٩٢[٦] عبارات قبيحة و مسيئة ضد مسلمي البلقان. ويلمح داركو تاناسكوفيتش في هذا المقال إلى دخول المسلمين حفاة إلى الجامع والبيوت التي يسكنونها. وتلك، في رأيه، ظاهرة رجعية وهو يخاطب أوربا: هل يمكن أن تسمح بتحويل منطقة البلقان إلى حجرة انتظار لأوربا حيث يخلع البعض (أي المسلمون) أحذيتهم. وفي النص يجادل البروفيسور تاناسكوفيتش جاني دي ميكيليس الذي كان يومها وزير خارجية إيطاليا والذي صرح سنة ١٩٩٢ في وسائل الإعلام بأن الاسلام في تركيا وفي البلقان معتدل ومقبول لأوربا. تاناسكوفيتش يلقي عليه درسا حول ذلك ويبلغ دي ميكيليس بأنه لا يوجد أي إسلام مقبول لأوربا!!!

وأدركت القيادة الصربية أنها تجني فائدة سياسية من مثل هذا التأييد من خبراء الاستشراق ومن ثم كان لا بد أن نتوقع أن يستقبل مثل ذلك التعاون بين المستشرقين الصرب من جهة والسياسة الصربية من الجهة الأخرى بارتياح.

أصبحت هذه الحملة المسعورة ضد المسلمين في البلقان خلال القرن العشرين مربحة لدرجة أنه ظهر في صربيا ويوغسلافيا عشرات ممن نسميهم مجازا بالمستشرقين. وحول ذلك يقول نورمان سيغار ما يلي: «ربما لا يوجد دائما في الأوساط الأكاديمية الصربية تمييز واضح لمن نسميه مستشرقا، لأن الكثيرين من العلماء في

(٦) داركو تاناسكوفيتش (Darko Tanasković)، خلع الأحذية في حجرة الانتظار الاوربية (Izuvanje u predsoblju Evrope) مجلة دوغا (Duga) ١٥-٢٨ مارس، ١٩٩٢، ص ٣٧.

مختلف مجالات العلوم الإنسانية والإجتماعية في أغلب المواضيع التاريخية والسياسية التي يكتبون عنها يولون حيزا واسعا للإسلام في كتاباتهم».[٧]

فالكثير من الأساتذة الجامعيين الصرب، عند الكتابة عن تاريخ الصرب أو الثقافة والتقاليد الصربية في البلقان يعزون الكثير من الأشياء في التاريخ الصربي خلال هذه القرون الستة الماضية إلى ما تسمى بالأسباب الإسلامية. وقد دأبوا على ذلك بشكل يكاد يكون منتظما. ومن المؤكد أن الكثيرين من هؤلاء الذين نسميهم مجازا بالمستشرقين لا يعرفون اللغة العربية أو التركية أو الفارسية على الاطلاق. ومن ثم فهم، لو أخذنا الأمر بجدية، لا يتعاملون مع الاسلام بشكل علمي ولا هم باختصاصيين في الاسلام بحكم المهن التي يمتهنونها. لكنهم فرضوا أنفسهم على وسائل الإعلام الصربية كأناس مؤثرين، لأنهم بذلك ساهموا في تكوين رأي عام ذي نظرة معادية للاسلام وسط المثقفين والجمهور.

ودراكو تاناسكوفيتش، إلى جانب أليكساندر بوبوفيتش، الأستاذ الجامعي الصربي الذي يعمل ويكتب عما يسمى «بإسلام البلقان» في باريس، هما من المستشرقين الصرب المثقفين؛ وقد تناوللا موضوعهم (أي مسلمي البلقان) من موقف عدائي.

لكنهما، من أجل أهدافهما، سخرا كثيرين غيرهما من الاساتذة الصرب الذين ليست لديهم أدنى فكرة عن اللغة العربية أو الاسلام. وكان هؤلاء، على جهلهم هذا، يقومون بالأعمال

(٧) نورمان سيغار، نفس المصدر - ص ١٤٨.

القذرة لحساب تاناسكوفيتش وبوبوفيتش. ومن أبرز تلاميذ بوبوفيتش وتاناسكوفيتش ميروليوب ييفتيتش، الذي اشتهر بصفة خاصة بهجماته على مسلمي البلقان. فقد أجريت معه عشرات المقابلات وكتب عشرات المقالات التي تحدث فيها بأسلوب فاشستي عن مسلمي البلقان، تماما كما كان الفاشيست الألمان يتحدثون عن اليهود قبل وإبان الحرب العالمية الثانية.

لقد نشر ميرليوب ييفتيتش سنة ١٩٨٩م (سنة إحياء الذكرى السنوية الستمائة لمعركة كوسوفو) كتابا بعنوان «الجهاد المعاصر كحرب» (The Contemporary Jihad as War)[٨]. وقد استخدم القوميون المتعصبون الصرب هذا الكتاب كدليل على أن المسلمين هم مصدر كل الشر في البلقان وأوربا. ويتحدث الكتاب بطريقة سطحية مجردة من أي أساس عن الإسلام ويدمغ الإسلام بأنه دين حرب. ويورد الكتاب عن الجهاد أكاذيب، يصعب حتى مجرد ذكرها هنا. فمثلا يدعي ييفتيتش أن الجهاد هو الحرب الشاملة للمسلمين ضد الغرب وأن المسلمين يتآمرون عن طريق الجهاد على الغرب وخاصة على الصرب الذين يحمون أوربا من الإسلام. وييفتيتش طبعا شيوعي. وهو ينسب للجهاد كل ما كان الشيوعيون ينسبونه للحرب الطبقية. فهو يقول عن الجهاد أنه حرب إسلامية دائمة ضد جميع الأديان الأخرى على وجه الأرض!!! وعرض ييفتيتش الإمبراطورية العثمانية كصنيعة للجهاد الوحشي، حيث كان المسلمون يقتلون غير المسلمين متى ما أرادوا!!!

(٨) ميروليوب ييفتيتش (Miroljub Jevtić)، الجهاد المعاصر كحرب (Savremeni džihad kao rat)، بلغراد، ١٩٨٩.

و في الأيام التي نشر فيها هذا الكتاب وهو في الوقت الذي كان فيه الصرب يحيون الذكرى السنوية الستمائة لمعركة كوسوفو، كان من الصعب مناظرة ييفتيتش لأنه لم يكن يستمع لأي حجج عقلانية.

وكان من العبث محاولة اقناع ييفتيتش بأن البلقان بالذات تمتع على عهد الإمبراطورية العثمانية بأطول فترات السلم والرخاء. كذلك كانت حرية كافة الاديان، الإسلام والارثودوكسية واليهودية والكاثوليكية، متوفرة في ظل الإمبراطورية العثمانية.

وبالطبع، لم يؤلف ييفتيتش كتابه ليفسح فيه مجالا للحقيقة. فقد كان هدفه الدعاية ضد المسلمين.

فتسييس الاستشراق الصربي لمسألة المسلمين في البلقان كان، كما يؤكد المراقبون الموضوعيون، يسير جنبا الى جنب مع تعاظم الحركة القومية التعصبية الصربية في الثمانينات من القرن العشرين.و المستشرقون الصرب انما نشطوا فقط كجزء من آلية مدبرة ضد مسلمي البلقان.

ومما له أهمية استثنائية هنا أن نذكر المذكرة الصربية التي كشف النقاب عنها سنة ١٩٨٦م من قبل الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون. فقد كتب هذه المذكرة الصربية كبار المثقفين الصرب الذين كانوا يرون أنه ينبغي أن يكون لهم دور أكبر في السياسة وصياغة المستقبل الصربي. وهذه المذكرة، باختصار، تعيد وتبعث الحياة من جديد في الأهداف القومية الصربية القديمة، أما الهدف الرئيسي للمذكرة فهو إقامة صربيا الكبرى.

كذلك تطرح المذكرة مواضيع حول تعرض الشعب الصربي للخطر في البلقان وتعرضه للخطر منذ عدة قرون من قبل المسلمين. والمذكرة، إضافة لذلك، تعد الصرب للعنف والحرب، لأن صربيا الكبرى لن تتحقق دون حرب.

ومن السهل استنتاج أن المذكرة كانت العمل الذي أطلقته الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون قبل إحياء الذكرى الستمائة لمعركة كوسوفو بهدف الربط بين جميع الصرب تحت علم واحد.

وفي صربيا كما يقول نورمان سيغار، كان الشيوعيون الحاكمون في تحالف منذ زمن بعيد مع القوميين الصرب اللاشيوعيين؛ ومع الكنيسة الارثودكسية الصربية ظهر التكافل «الأحمر البني الأسود» الذي أمن الانطلاقة الأولى للقومية الصربية وتركيبتها. ولم يكتف ميلوشيفيتش بإدخال غلاة القوميين إلى التيار السياسي الرئيسي، بل استطاع أيضا تأمين آلية في شكل تنظيمات سياسية ووسائل إعلام وتركة مالية؛ ثم قوة عسكرية. وكل ذلك أدى لتحول الأفكار العاطفية التي لم تكتمل إلى برنامج حكومي محدد كان ينبغي تطبيقه على أرض الواقع.

وفي نهاية الثمانينيات من القرن العشرين باتت الحكومة الصربية والقوميون ووسائل الإعلام الشعبية والكنيسة الأرثوذكسية، وقد اتخذت كلها معا موقفا عدائيا صريحا تجاه الإسلام وتصاعدت بشكل درامي حوادث الخطب الرنانة ضد المسلمين. وبدلا من إدانة مثل تلك الاتجاهات طفق المستشرقون الصرب يدعمونها ويبررونها، بل كثيرا ما كانوا يقدمون المزيد من الدوافع لنزعة معاداة المسلمين. وكانت المقالات ضد الاسلام

والمسلمين تنشر في كل مكان في صربيا وتصل أحيانا إلى درجة من الابتذال أشبه بالكاريكاتير. فقد نشرت مجلة (الجيش) اليوغسلافية في ٨ ابريل سنة ١٩٩٣م مقابلة مع عقيد صربي اسمه نيكولا أوستوييتش، صرح فيها بأن «ألف ليلة وليلة تنطوي على الكثير من الوسائل الداعية للإبادة»!!!

ومن الصعب حقا أن يصدق المرء أن المستشرقين الصرب لا يعرفون أن ألف ليلة وليلة ترجمت عدة مرات إلى الانجليزية والألمانية والفرنسية والروسية. وكيف يستقيم عقلا أن أوربا منذ قرون تقرأ (ألف ليلة وليلة) دون أن تكتشف أن ذلك مؤلف يدعو للإبادة؟!

وهاهم المستشرقون الصرب الآن، الذين سيوضحون لأروبا أخيرا أن كل ما هو مسلم هو دعوة للإبادة حتى تلك (الألف ليلة وليلة)!

لكن الدعاية هي الدعاية. فقد نشر المستشرقون الصرب ما أمروا بنشره، ثم صدقوا هم أنفسهم ما نشروه.

ويقول المراقبون المتجردون الموضوعيون مثل فيليب ج كوهين (Philip J. Cohen)[٩] ومايكل أ. سيلز (Michael A. Sells)[١٠] ونورمان سيغار وغيرهم أن الاكاديمين والمستشرقين الصرب

(٩) انظر فيليب ج كوهين (Philip J. Cohen)، حرب صربيا السرية - الدعاية وخداع التاريخ (Serbia's Secret War - Propaganda and the Deceit of History) Texas University Press, Texas، ١٩٩٦.

(١٠) مايكل أ. سيلز (Michael A. Sells)، Religion and Genocide in Bosnia - The Bridge Betreyed، University of California Press Berkeley Los Angeles، and London، ١٩٩٦.

كانوا يهاجمون الجماعات الأخرى أيضا في يوغسلافيا الاشتراكية السابقة كالكروات والألبانيين والغجر والسلوفنيين والمقدونيين في الفترة من ١٩٨٠ - ١٩٩٢ وبعدها. ومن ثم لم يكن هجوم المستشرقين الصرب مقصورا على المسلمين وحدهم؛ لكن مسلمي البلقان كجماعة، ربما كانوا في وضع حساس بصفة خاصة وعرضة لمثل تلك الهجمات، لاعتبارات جغرافية سياسية خاصة، مثل وضعهم الذي يحول دون إقامة صربيا الكبرى. فالبوشناق الذين يعتنقون الإسلام يعيشون في البوسنة؛ وقد تصدوا بصفة خاصة لإقامة ما يسمى بصربيا الكبرى. كذلك كان الألبانيون في كوسوفو عائقا كبيرا أمام إقامة صربيا الكبرى.

وذلك ما جعل المستشرقين الصرب يصفون الإسلام بأنه طاعون كبير يفسد عليهم وينبغي التخلص منه عن طريق الحرب. وكما هو معروف، بدأ ميلوشيفيتش تلك الحرب سنة ١٩٩٠م واستمرت تلك الحرب حتى نهاية سنة ١٩٩٥ وإلى ما بعد ذلك التاريخ في كوسوفو.

يعني ذلك، أن المستشرقين الصرب بدأوا أولا بإشاعة خوف مزعوم من المسلمين، لإثارة الكراهية عند الصرب تجاه المسلمين.

وبدلا من تطوير جو التعايش والحلول السلمية، كما يقول نورمان سيغار، لعب المستشرقون الصرب دورا كبيرا في صب الزيت على النار وزيادة الخوف والكراهية تجاه المسلمين وسط بنى جلدتهم الصرب.

وقبيل التفكك الفعلي ليوغسلافيا بالتحديد، بدأ المستشرقون الصرب يرسمون صورة مقولبة للمسلمين وكأنهم جينة أجنبة غريبة وضيعة تهدد بالخطر ساعدوا على خلق الشرط المسبق لجنون ارتياب

مصطنع وسط الصرب تجاه المسلمين. وكانت كل هذه الكتابات في مرحلة الاعداد؛ وتكون عند الصرب وسط معاد للإسلام، ساعد على كل ما حدث بعد ذلك: الانزلاق في الإبادة بعد نشوب الصراع العلني في ابريل سنة ١٩٩٢ في البوسنة والهرسك.

لكن هدف المستشرقين الصرب لم يكن مجرد إثارة الحرب ضد المسلمين في البوسنة و البلقان. فقد كانت إحدى مهام المستشرقين الصرب عزل الجماعة المسلمة. ولاحظوا أن ذلك سيتحقق عن طريق إبراز أن السمات الثقافية للإسلام والمسلمين غريبة - بالمعنى السلبي طبعا - ومبهرجة ومنافية للذوق السليم ويتبع ذلك تلقائيا أن السمات الثقافية للمسلمين أحط مستوى، بل وشاذة.

ولم يكن هدف المستشرقين الصرب أمثال داركو تاناسكوفيتش وراده بوجوفيتش وميروليوب ييفتيتش وألكساندر بوبوفيتش وميله نيديلكوفيتش وكثيرين غيرهم هو الاكتفاء بإثارة الكراهية الصربية ضد مسلمي البلقان، بل كانوا يهدفون أيضا لإظهار المسلمين كأناس متخلفين قذرين لا يرقون لمستوى أوربا. وأعطى المستشرقون الصرب في كتاباتهم صورة شوهاء عن المسلمين؛ فقد قدموا صورة للمسلم كمخلوق تافه منحرف.

وكان من بين مهام المستشرقين الصرب أيضا أن يعرضوا الدين الإسلامي كدين آسيوي، كدين للناس البدائيين، كدين للمغول الذين يمتطون خيولهم ويشنون الغارات على الغرب والمسيحية.

ووصف الإسلام بأنه دين «أجنبي» «غريب» على أوربا وبأنه دين منحط إلى درجة ثقافية وأخلاقية سفلى.

وبهذا كان المستشرقون الصرب يؤيدون الأطروحة الموجودة أصلا في أوربا والتي تدعى أن أوربا قارة مخصصة للمسيحية والمسيحيين وحدهم ولا مكان لليهود والمسلمين في أوربا!

وحسب المستشرقون الصرب أنهم بهذا سيحظون بالتأييد وسط زملائهم المستشرقين في الغرب بمعنى أن الغرب سيدرك بسهولة أن من الافضل التعجيل بطرد المسلمين من البلقان.

ومن ثم فإن القاعدة الأساسية والفكرة الرئيسية لهذه الحملة التي يشنها المستشرقون الصرب ترتكزان على فكرة أن المسلمين ينتمون لديانة وثقافة دخيلتين غريبتين على أوربا. وذلك يؤدي إلى الاستنتاج بأنه لا يمكن أن يكون لهم مكان في أوربا.

وهكذا قام المستشرق الصربي أليكساندر بوبوفيتش في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين بتأليف كراسة بعنوان (المسلمون اليوغسلاف Yugoslav Muslims) طبعت في بلغراد سنة ١٩٩٠ لتعريف «الجمهور المثقف» - كما قال - بالإسلام.

ويصف أليكساندر بوبوفيتش الإسلام على هذا النحو:

«إن الإسلام نظام استبدادي؛ وهو نظام تصل استبداديته الى درجة أبعد مما يستطيع أن يستوعبه أو يتصوره أي عقل غربي حسن النية ضعيف الاطلاع».[١١]

لقد كان أليكساندر بوبو فيتش شخصية بارزة وسط المستشرقين الصرب، لأنه أستاذ جامعي في باريس. لكن باريس،

(١١) أليكساندر بوبوفيتش (Aleksandar Popović)، المسلمون اليوغسلاف (Jugoslovenski Muslimani)، بلغراد، ١٩٩٠، انظر ص ٥ وما بعدها.

بكل مكتباتها لم تساعده على الشفاء من فاشيته وكراهيته للإسلام.

وقد حذا حذو أليكساندر بوبوفيتش بصفة خاصة داركو تاناسكوفيتش.

وها هو نورمان سيغار يصف المستشرق الصربي تاناسكوفيتش بقوله، «لقد اتخذ تاناسكوفيتش نفس الدور النشط في المناقشة التي أثيرت دونما توقع حول القوانين التفصيلية للمسلمين والذين يخدمون منهم في الجيش اليوغسلافي. فقد كان أكل لحم الخنزير في الجيش اليوغسلافي في العهد الشيوعي كثيرا ما يستخدم (كاختبار للولاء) ليثبت المسلمون عن طريقه أنهم ليسوا مخلصين للدين. وعلى ذلك النحو كثيرا ما كان المسلمون يجدون أنفسهم أمام خيارات قليلة: إما أن يأكلوا لحم الخنزير أو يجوعوا طوال مدة الخدمة العسكرية الإلزامية. وحين قفزت هذه المشكلة إلى السطح في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، استغل داركو تاناسكوفيتش وغيره من المستشرقين الصرب هذه الفرصة لوصف وتصوير المسلمين كعنصر ضال في المجتمع اليوغسلافي، ساخرين من مطالب المسلمين بأن يكون لهم طعام وسكن خاص يناسبهم. بل يذهب تاناسكوفيتش أبعد من ذلك، مؤكدا أن المسلم إذا رفض أن يأكل لحم الخنزير وبات جائعا، سيكون ذلك حافزا للانفصالية السياسية وسيشوش على وحدة الجيش، لأن ذلك من شأنه أن «يثير اشمئزاز» الصرب في الوحدة العسكرية وهم يخدمون مع رفقاء انعزاليين من أمثال أولئك!!!.[١٢]

(١٢) انظر Norman Cigar، Serbia's Orientalists and Islam، ص ١٥١.

ووصف تاناسكوفيتش في كتاباته تأكيد مسلمي البوسنة بأنهم شعب أوربي بأنه «سخف ليس إلا».[١٣]

أما نادا تودوروف، فهي ترى أن «طريقة الحياة الاسلامية» لا يربطها أي رابط مشترك مع الحضارة الاوربية.[١٤]

وميروليوب ييفتيتش ينحى باللائمة عن كل ذلك على «الإمبريالية الثقافية العربية التي تحدد نظرة مسلمي البلقان للعالم». ويرى ييفتيتش أن تلك الإمبريالية الثقافية العربية تمثل معضلة مستعصية الحل، لأنك «تستطيع النضال ضد الإمبريالية الثقافية الأمريكية، لأن الذين أوجدوها هم الناس - الأمريكيون - الذين هم الآن الأمة الأغنى، لكنهم مع ذلك مجرد بشر مثلكم. وعلى عكس ذلك، يرى الإسلام أنك إن أردت أن تستعيذ بالله، فلن تستطيع أن تفعل ذلك إلا باللغة العربية. وليس العرب هم الذين أمروا بذلك، بل هو قول الله. فالله لا يقبل الدعوات إلا باللغة العربية».[١٥]

لقد كتب ييفتيتش هذا عشرات الكراريس ومختلف المقالات الأخرى ضد الألبانيين والبوشنياق، مؤكدا أنهم جبهة واحدة متحدة تمثل الأصولية الإسلامية والبوشناق والألبانيون في نظر ييفتيتش

---

(١٣) مقابلة مجلة الجيش (Vojska) مع تاناسكوفيتش، ٢٣ سبتمبر ١٩٩٣.

(١٤) نادا تودوروف (Nada Todorov)، دعوات الإبادة في ألف ليلة وليلة (Genocidne poruke iz 1001 noći) مجلة الجيش، ٨ ابريل ١٩٩٣، ص ٢٠.

(١٥) ميروليوب ييفتيتش (Miroljub Jevtić)، Rezervisti Alahove armije، (احتياطيو جيش الله The reservists of Allah's Army) مجلة دوغا (Duga) بلغراد، ١٩٨٩، ص ٢٢.

«أوربيون مزيفون من جهة و مسلمون حقيقيون من الجهة الأخرى».[١٦]

لقد أنفق داركو تاناسكوفيتش وميروليوب ييفتيتش وغيرهم من المستشرقين الصرب الكثير من المداد ليثبتوا أن الإسلام في البلقان هو من مخلفات الماضي وأنه في الحقيقة السبب الرئيسي الذي يهدد «الحضارة الحديثة»، سواء بصفة عامة أو بالنسبة لصربيا على وجه الخصوص. ويقول نورمان سيغار في كتابه إن المستشرقين الصرب استخدموا كافة الوسائل لإعطاء صورة قبيحة للإسلام. ويقول، «لقد استخدموا كل اتهام من شأنه تلطيخ سمعة الإسلام وعزل المسلمين بغية النقد. وهكذا تعلن السيدة نادا تودوروفيتش مثلا أن «في التعاليم الإسلامية لا توجد مرأة لها كيان، بل بدلا من ذلك تعمل لإشباع احتياجات الرجل ولخدمته فقط».[١٧] وداركو تاناسكوفيتش يسمى مسلمي البلقان بالمتحولين إلى الإسلام في القرون الماضية أو «المتتركين». وقال في الكثير من كتاباته إن من المعروف تماما أن المتترك (الذي اعتنق الإسلام) أسوأ من التركي!

أما ييفتيتش فقد ذهب في حملته على الإسلام و مسلمي البلقان إلى أبعد حد. وفي رأيه أن «الاسلام رجعي لأنه يمنع السياحة ويمنع الرياضة ويمنع الذهاب إلى المقاهي التي تقدم

(١٦) انظر ميروليوب ييفتيتش، Lakrdija za Evropu (Farce for Europe - مهزلة لأوربا)، نشرت بجريدة الانباء الاوربية Evropske novosti) ٢٢ ديسمبر ١٩٩٣ (كانت الأنباء الأوربية تصدر في فرانكفورت).

(١٧) انظر المقابلة مع نادا تودوروف، مجلة الجيش، ٨ ابريل ١٩٩٣.

الكحول»؛ لذا فإن «الإسلام يؤدي حتما إلى إرهاب الاجانب» و«مائة بالمائة إلى التمييز العنصري».[١٨]

وقد استهلك ييفتيتش بصفة خاصة الكثير من الورق لإظهار المسلمين خارج حدود التعايش وليعكس صورة الإسلام - كما يؤكد المؤلفون الغربيون الذين بحثوا في الإبادة بحق البوشنياق - وكأنه غريب دخيل و«يرفض أي شفقة أو معاملة باللين تجاه من لهم طريقة تفكير مختلفة عن تعاليم الإسلام المعمول بها».

إن تعداد الأماكن الأخرى في الصحافة الصربية، حيث يعرض الاسلام بأسوأ صورة بأنه يعني العنف والفساد وبأنه دين همجي... الخ فذلك يستغرق وقتا طويلا.

ونؤكد مرة أخرى أن المستشرقين الصرب وأعضاء الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون بأجمعهم تقريبا عرضوا الإسلام بهذه الصورة.

وبالطبع هناك من الصرب والمثقفين الصرب من لم يؤيدوا نشر الكراهية ضد المسلمين بهذه الطريقة. فقد تصدى بوغدان بوغدانوفيتش عمدة مدينة بلغراد سابقا للنظريات الاستشراقية الصربية حول المسلمين، كعامل تشويش في البلقان. وميلوش مينيتش وزير الخارجية اليوغسلافية سابقا لم يوافق بدوره على النظريات الاستشراقية الصربية. وكان في سراييفو والبوسنة كثير من المثقفين الصرب الذين رفعوا أصواتهم لصالح مسلمي البلقان. ومن بين تلك الأمثلة المشرقة غافريلو غراهوفاتس، الناشر المشهور والمدير السابق لدار (سفيتلوست - الضياء) للنشر في سراييفو.

(١٨) ييفتيتش في مجلة (دوغا) بتاريخ ٩-٢٢ ديسمبر ١٩٨٠، ص ٢١.

وكان من بين السياسيين الذين اعترضوا على نشر الكراهية ضد المسلمين وزير الشؤون الدينية للجبل الأسود الذي طرح رأيه بأن الديانات التوحيدية بما فيها الإسلام، تقوم على نبذ العنف والصفح الكريم والمشاركة الوجدانية والإحسان.

لكن ميروليوب ييفتيتش تصدى لهذا الوزير من الجبل الأسود، مؤكدا بأنه يجزم لأقصى الحدود بأن مثل تلك الصفات لا تنطبق على الإسلام.

و على شاكلة ييفتيتش، يتهم المستشرق تاناسكوفيتش (أسلوب القرآن) ويؤكد أن القرآن فاشيستي ومتصلب وخطر.[١٩]

ويقول نورمان سيغار أن ميرليوب ييفتيتش يشرح طقوس الأضحى بشعور من الكراهية. ويستطرد «إن تفسير ييفتيتش لاستعداد المسلمين لقتل الأخربن، على حد زعمه، هو أن ذلك الاستعداد يكمن في صلب تربيتهم الدينية. ويوضح ييفتيتش هذا الزعم من خلال كتاباته في الصحف في أواخر سنة ١٩٩٣، حيث يقول، «إن الإسلام يأمر بوضوح أن يقدم من يؤمن به قربانا لله. وذلك القربان من الأنعام هو الكبش الذي يذبح حسب الطقوس بحيث يرش دمه كل ما حوله. وإذا تعود أتباع الحضارة الإسلامية أن يشاهدوا منذ طفولتهم كيف يذبح الحمل، الحيوان الذي يحبه الجميع، فإن من الواضح أن الشخص الذي يؤمن بالنظرة الإسلامية للعالم، يتعود بسهولة على إراقة الدماء بطريقة وحشية. وعندها لا يحتاج الانتقال من الحيوانات إلى قتل البشر إلا لخطوة صغيرة جدا».[٢٠]

(١٩) انظر من مقابلة مع تاناسكوفيتش، مجلة الجيش، نفس العدد، ص ٨.

وتذهب المستشرقة الصربية نادا تودوروف بعيدا لدرجة أنها ترى أن مجموعة (ألف ليلة وليلة) القديمة وما تحتوي من حكايات جديرة بالإدانة. وتفترض أن جميع المسلمين يقرأون تلك الحكايات في طفولتهم. فهي ترى أن السلوك العنيف للمسلمين قد نبع، على حد زعمها، من هذا الكتاب الذي يزود المسلمين (بالاتجاه اللاوعيي) لتعذيب وقتل المسيحيين.

ولنقل في الختام إننا ونحن نعرض موقف المستشرقين الصرب تجاه مسلمي البلقان، كنا مضطرين لاستخدام مراجع كتبت باللغة الانجليزية. والسبب في ذلك أنه لم تكن في متناولنا مراجع باللغة الصربية بسبب الحرب، لأننا كنا نعيش في سراييفو المغلقة والمحاصرة.

لكن لتصرفنا ذلك ميزة أيضا. وذلك لأن نورمان سيغار ومالكولم نويل وفيليب كوهين مراقبون نزهاء. فهم لا ينحازون لأي جانب. وقد وصفوا بشكل موضوعي موقف الاستشراق الصربي وموقف الاكاديميين الصرب تجاه مسلمي البلقان.

وللأسف لا زال يحكم في صربيا عين النظام الذي يحمي أمثال أولئك المستشرقين والأكاديميين ووسائل الإعلام الذين ينشرون الكراهية ضد البوشنياق والألبانيين ومسلمي البلقان عموما. ومن ثم، من الصعب أن نتوقع حدوث تغيير في المستقبل القريب في وعي أوسع قطاعات الشعب الصربي أو تغيير في الموقف تجاه مسلمي البلقان.

---

(٢٠) يورد نور مان سيغار كلمات يفتيتش هذه نقلا عن مجلة الجمهور (Javnost) - سراييفو ومجلة الوقت (Vreme) - بلغراد بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٩٣، ص ٥٥.

مخاوف مسلمي البلقان

حصلت قارتنا ووطننا العريض أوروبا منذ سنة أو سنتين على عملة مشتركة اسمها «يورو». و في اغلب الأحيان يؤكدون ان هذه العملة ستضمن لعبقرية الرجل الأوروبي مزيدا من النجاح العلمي والاقتصادي والسياسي في المستقبل. و يقول العارفون ان ظهور اليورو هو نجاح كبير لأوروبا والغرب عامة.

أما أداء اليورو لوظائفه، وهو بالتأكيد آخر ما يفهمه كاتب هذه السطور. والشيء المهم الذي ينبغي ان نفكر فيه نحن المسلمين بمناسبة اليورو (او أي اختراع أوروبي عالمي مفيد) هو تلك الطاقة العقلية الجبارة التي لا تصدق ومستوى التنظيم الذي يفكر به الأوروبيون سواء حول مستقبل العالم عموما أو مستقبلهم هم على وجه الخصوص.

وحسب ما يفترض من مقدمات منطقية لذلك التفكير فإن روح القوة العالمية أو بعبارة أدق مصدر القوة لهذا العالم يوجد بكل طاقته وتألقه في الغرب. ولم يعد أمرا جديدا منذ زمن بعيد أن نقول إن أمريكا وأوروبا ترسمان الاحداثيات العالمية الرئيسية اليوم.

ومن ذلك المنظور يجب طرح السؤال المهم: هل يملك المسلمون الأوروبيون، تحديدا الأوروبيين الأصليين منهم، تصورا لكيفية مشاركتهم في تلك القيم الغربية التي لا جدال فيها على شاكلة ترتيب الحياة اليومية والانضباط في المواعيد والدقة في العمل؟

هل لديهم تصور لكيفية الحياة في دولة منظمة ونافعة للجميع؟ هل للأوروبيين المسلمين دار آمنة في هذه الحياة وقبر آمن بعد الموت؟

وتبعا لذلك هل للمسلمين الأوروبيين الأصليين تصور لبقائهم كمسلمين في أوروبا، قبل تصورهم للمشاركة في القيم الأوروبية التي لا جدال فيها واستهلاك تلك القيم.

هل يوجد اليوم مسلمون ومفكرون أوروبيون مسلمون يرغبون في تفسير مستقبل المسلمين في أوروبا تفسيرا صحيحا؟

هل هنالك أفراد يعرفون تفسير ذلك المستقبل متحررين من أي عقدة ودون اللجوء الى التنصل من أصلهم الأوروبي المسلم؟

إذا اعترفنا ان للإنسان حقا وواجبا طبيعيين للتفكير في مستقبله يجب علينا عندها، كأوروبيين مسلمين ومسلمين أوروبيين، ان نقول ان التفكير الأوروبي حول المستقبل الأوروبي هو ما يجذب المرء حقا.

وهو في الواقع ما يجب ان يشد اهتمام المسلمين أنفسهم في أوروبا الآن، حيث يزيد عددهم اليوم هنا على خمسة عشر مليونا. وفي إطار ذلك العدد الضخم ينبغي الأخذ في الاعتبار بصفة خاصة ان هنالك خمسة أو ستة ملايين من المسلمين الأوروبيين أصلا (من بوسنيين وألبان وتوربيج...) أي انهم ليسوا من المسلمين الذين أتوا إلى أوروبا من الخارج طالبين للعمل.

نحو المستقبل الاوروبي كلاجئين؟

لكن افتتان المسلمين بنجاح أوروبا ومستوى تنظيمها وبريقها ليس وحده القضية الرئيسية، لأن الوضع المزري للسكان المسلمين

من الأصل الأوروبي يدفع بطبيعة الحال ومنطق النظر للأشياء من منظور البؤس، الى الافتتان التلقائي ببريق أوروبا وازدهارها.

والسؤال الرئيسي بالنسبة للأوروبيين المسلمين هو ببساطة: هل هنالك مكان للمسلمين أنفسهم كمسلمين وهل للمسلمين مستقبل كمسلمين يتمتعون فيه بالعزة على خارطة المستقبل الأوروبي.

ان مشاركة المسلمين كمسلمين في الجوانب الحسنة التي لأوروبا ودفاعهم الفعال عما فيها من الأشياء السيئة في القرن الجديد، ستعتمدان الى حد كبير على كيفية تصور الأوروبيين المسلمين لبقائهم الأوروبي الإسلامي.

ولكي نحاول ان نرد على هذا، يجب ان ننطلق من عدد من التأكيدات العامة التي يعتقد كاتب هذه السطور انه لا يمكن تجاهلها.

اولا، يجب على كل تصور لمستقبلنا الأوروبي ان يأخذ في الاعتبار حاضرنا الأوروبي.

ثانيا، الحاضر الأوروبي للمسلمين من أبناء أوروبا الأصليين - أي الحاضر الأوروبي للبوشناق والألبان والتوربيج هو حاضر اكثر التباسا من كل الفترات تقريبا من تاريخهم الأوروبي المكتوب.

ثالثا، المسلمون الأوروبيون او الأوروبيون المسلمون لم يبنوا ولا يعملون على بناء قاعدة فعالة لبقائهم بالطريقة التي تحفظ لهم كرامتهم في أوروبا.

ولنعد بالذاكرة الى السبعينات حيث توجب على البوماك او التورباج، المسلمين من ابناء بلغاريا الأصليين ان يغيروا أسماءهم الى اسماء مسيحية أرثوذكسية او الهجرة الى أوروبا أو آسيا.

ولنأخذ التاريخ القريب. فمنذ عشرين عاما، منذ الثمانينات ومسلمو البلقان الأوروبيون اصلا يقتلون في شوارع بريزرن وبريشتينا وبودوييفو وجاكوفيتسا في البداية؛ ومن بعد، مع حلول سنة ١٩٩٠م كان المسلمون الأوروبيون يقتلون بأعداد تقدر بعشرات الالوف في سراييفو وسريبرنيتسا وفيشغراد وزفورنيك وبريبيدور وموستار وبرتشكو.

وخلال العقود الماضية بات منظر القتلى من المسلمين الأوروبيين الأصليين في البلقان صورة مألوفة متكررة على شاشات التلفاز، لدرجة لم يعد معها قتلهم بتلك الاعداد خبرا بارزا بصفة خاصة.

وليس هنالك أدنى شك في ان هؤلاء الأوروبيين المسلمين ترنحوا تحت ضربات رصاص وقنابل عسكر البلقان الأوروبيين في حملات التطهير العرقي التي شنتها الجحافل البلقانية الأوروبية. وما من شك في ان كلمة «بلقان» لا تعفى أوروبا على الإطلاق من البشائع التي راح ضحيتها الأوروبيون المسلمون قتلا وتشريدا من ديارهم. بالعكس، الجيوش الصربية انما هي جيوش أوروبية، لا لكونها تؤكد انها «تحمي أوروبا من الوجود الإسلامي» فحسب، بل أيضا لكون تلك الجيوش لم توقف عند حدها في الوقت المناسب!

وبسبب أوروبا التي (كانت) متهاونة، وبسبب أوروبا المترددة الآن وبسبب أوروبا المتشككة التي ترتاب في سكانها المسلمين الأصليين، تنظر الأجيال الحاضرة من المسلمين الى القرن الجديد بعيون دامعة.

هل يكون هذا القرن قرن الأوروبيين المسيحيين وحدهم أم قرن الأوروبيين المسلمين أيضا؟

وإضافة لكون الأوروبيين المسلمين عشية الألفية الجديدة في قارتنا المزدهرة هذه يتصدرون قائمة إحصائيات الوفيات والقتلى في عمليات الإبادة ونزلاء معسكرات الاعتقال وضحايا الاغتصاب الجنسي، فهم لا يزالون ايضا في اول القائمة من حيث اعداد اللاجئين.

وكم قطعت قوافل اللاجئين المسلمين من ملايين الكيلومترات على طرق أوروبا، يحملون في أيديهم ما استطاعوا من حزم أمتعتهم وفي جوانحهم احلام وذكريات ديارهم التي فقدوها.

ومع ذلك، ينبغي الا نفقد روحنا. ففي معظم الأحيان وجدنا الامان في أوروبا كلاجئين. وعلينا ان نحمد الله انه لم تكن في استقبالنا في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا والسويد وإنجلترا أوروبا القرون الوسطى، بل هذه أوروبا الممتدة. وقدمت لنا مساعدة مادية كبيرة.

ولكن علينا أن نضع في حسباننا تناقضا هائلا آخر وهو أن هذا الامان الذي نحس به في أوروبا كلاجئين، ليس الا نوعا من التعويض الذي قدم لنا مقابل عدم الامان في موطننا وفي دولتنا التي ننتمي لها.

ومن ثم ينبغي ألا ننسى أن ذهابنا الجماعي هذا إلى أوروبا إنما كان نزوحا قسريا لأناس لاجئين وليس نزوحا منظما مخططا كما يذهب طلاب ورجال أعمال مثلا! فقد كنا في أوروبا، في الغالب متلقين للإحسان الأوروبي باعتبارنا لاجئين، بدلا من تلقي العلم وأسلوب التنظيم الأوروبي لصالح هويتنا ودیننا وثقافتنا!

و يجدر بنا أن نفكر في ذلك على الدوام.

هل هنالك قالب لبقاء كريم؟

إن الأوروبيين المسلمين اليوم ونفرد منهم الأوروبيين الأصليين، البوشـنياق والألبان والتوربيج... هم المنشقون الأوروبيون بالكثير مما تعنيه هذه الكلمة. ولا شك أن صفحات التاريخ الأوروبي ستمتلئ في القرن التالي أيضا بالأحداث ذات الصلة بانشقاقهم هذا.

لماذا نحن منشقون؟

قبل كل شيء بسبب إسلامنا؛ الإسلام كدين والإسلام كثقافة والإسلام كنظرة فلسفية خاصة للعالم والإسلام كعادة والإسلام كفلكلور (كتراث شعبي وموروثات) بل وحتى الإسلام كصدى بعيد خافت يكاد لا يلاحظه أحد، لشيء آخر مختلف بالنسبة لأوروبا!

و لأن الإسلام هو مصدر انشقاقنا، فانهم ينظرون الى صفتنا الإسلامية من المنظور الأوروبي وكأننا نسيح في عناد عكس التيار.

إن المنشق يمكن تحمله كفرد، وهو كثيرا ما يكون محبوبا.

لكن إن الأمر يختلف تماما حين تكون شعوب بأكملها منشقة زيادة على كونها مسلمة!

والظاهرة الاجتماعية للمنشقين برمتها، ظاهرة مشكوك فيها. وتلك الشكوك توحي مثلا بأن الألبان، مهما تفاخروا بأنهم ماركسيون، سيقيمون دولة أصولية!!!

كذلك، مهما تحمل البوشنياق بصدق عبء التعددية الثقافية، لن ترفع عنهم تهمة (خطر الأغلبية) في البوسنة والهرسك والنوايا الافتراضية لأسلمة مستترة في نهاية الأمر!

ودواليك تباعا.

ومن هنا تأتي نظريات تعيين الأوصياء والمرشدين للأوروبيين المسلمين. وتنطلق تلك النظريات من الافتراض بأن الأوروبي المسلم هو مركب من عناصر متباينة من التفكير؛ شيء أشبه «بالماء والجفاف» و«الحديد والخشب»... الخ.

وفي أوروبا يشكون في أوروبية المسلمين، كما كانوا يشكون في أوروبية اليهود!

ولنتذكر المناقشات التي كانت دائرة في أوروبا في القرن التاسع عشر حول أوروبية اليهود فقد كانوا يومها يعبرون عن الانتماء الاوروبي بتعبير لطيف اسمه الانعتاق. ولم يكن لليهود بد من الإثبات انهم أوروبيون! وكثيرا ما اخذ كارل ماركس نفسه على اليهود التقليديين، لأنه كان يرى ان على اليهود ان يتخلوا عن يهوديتهم لحساب انعتاقهم أي لحساب اوروبيتهم.

واليوم تدور مناقشات تكاد تشبهها تماما حول أوروبية المسلمين. وقد اشتدت تلك المناقشات بصفة خاصة في مطلع الحملات العنيفة ضد المسلمين في البلقان.

ولكن أين المخرج؟ هل هنالك من قالب لبقاء كريم؟ قال تعالى في كتابه الكريم «إن مع العسر يسرا» (سورة الانشراح ٥) وذلك يعني أنه كلما تعاظم الخطر كلما اتسعت أبواب الرحمة!

إننا سنبقى طالما فكرنا في البقاء!

وبمنظور دنيوي بحت، ينعكس ذلك الفرج المنتظر اليوم في الدولة. فالدولة اليوم في أوروبا هي التي تحمي وهي التي تدافع عن الحق وهي التي تكفل البقـاء. والدولة هي التي تمول المؤسسات الرئيسية وهي التي تضمن بقاء الدين نفسـه؛ والدولة تتحدث باسم الناس والشعب! ومن ثم فإن الدولة بالنسبة الينا في هذه الأزمنة هي الأولوية الأساسية! انها الأولوية التي ستحمي جميع أولوياتنا الروحيـة والثقافية الأخرى.

ولكن جنبا إلى جنب مع الدولة، تقف التربية، لأنه لا توجد معرفة حقيقية لا تمكن المرء من القوة والكرامة.

فالدولة والتربية ستحفظان ذاتيتنا الأوروبية المسلمة وستعبران عنها وتبينها بوضوح! ونقصد الدولة التي ستدافع ماديا عن تلك الذاتية والتربية التي ستقرأ قراءة صحيحة معالم الزمن على الآفاق الأوروبيـة وتفصلها بوضوح!

وللأسف، فإن الفرص ضئيلة في أن يكون الخمسة عشر مليون مسلم أوروبي اليوم، أصليين كانوا أم غير ذلك، أمة مسلمة واحدة لكل أوروبا. وهي ضئيلة لأنه لا توجد اليوم أي جهة فكرية مسلمة ولا أي جهة دينية مسلمة تفكر مليا في المصير الأوروبي المشترك للمسلمين العمال الأجانب والمسلمين المتسولين والمسلمين اللاجئين والمسلمين الأوروبيين الأصليين...

ومن ثم سنكون نحن الأوروبيين المسلمين والمسلمين الأوروبيين في وطننا أوروبا هدف الروح الخيرية الأوروبية في القرن المقبل.

وطالما كانت أوروبا تذوق طعم مستقبلها الزاهر سنحظي نحن بالشفقة الأوروبية على خارطة ذلك المستقبل.

أيركض مسلمو أوربة البلقانيون الدورة الأخيرة؟

أنتذكر واحدا من الأماكن في قصة آندريتش «جسر على درينا»، سطور«نبوأته» التي تدوخنا اليوم أكثر من أي وقت مضى؟!.

الحديث عن وصول المهاجرين الأوائل من «أوجيتسا» الى «جسر فيشة غراد»، المسلمون الأوربيون الذين هربوا الى البوسنة نتيجة للانتفاضات الصربية في القرن التاسع عشر، نعتقد أننا لم نلحظ أي تعاطف لايفو آندريتش في عمله الضخم ذلك مع البوشنياق كما لاحظناه في هذا المكان. واليكم كيفية وصف آندريتش لذلك التطهير العرقي:

«رحل معظم الذكور مشيا على الأقدام، مغبرّين ومتقوّسين، واعتلت النسوة المحجبات الأحصنة الصغيرة، وربطت الأطفال الضعفاء بين القراب والصناديق. واحد من الرجال المرموقين يعتلي صهوة جواد أفضل، لكن بخطو جنائزي ورأس منكسّة، الأمر الذي يفضح المأساة التي دفعت بهم الى هنا بشكل أكبر. وهناك في ذيل القافلة بعض ممن يسحب احدى العنزات بحبل من القنب، وبعض ممن يحمل خروفا بين ذراعيه. الكل صامتون، حتى أن الأطفال لايبكون.

يسمع فقط قرع حوافر الخيول وخطو الرجال، وجعجعة رتيبة للأواني النحاسية والخشبية المحمولة على الخيول... فبمجرد ظهور

ذلك الزحف المنهك البائس، تنطفىء فجأة شعلة الحياة على بوابة فيشة غراد . . . »

إلا أن المسلمين في فيشة غراد ، الذين نظروا بذهول الى المهاجرين المسلمين من « أوجيتسا » فقد صوّرهم آندريتش بالشكل التالي:

« وقف العجائز على المقاعد الحجرية، واصطفّ الأصغر سنا على طرفي البوابة مشكلين حاجزا بشريا ، فقط وقفوا كالمعزّين محدّقين بالمهاجرين بصمت، بينما حاول البعض اسماعهم كلمة « مرحبا » علّهم يتوقفون لعرض خدماتهم عليهم، لكنهم لم يعيروا أي انتباه لتلك العروض، واكتفوا بالرد على تحياتهم وبصعوبة. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر مجرد الوصول الى أى مكان للمبيت فيه في أطراف البلدة.

كانوا في مجموعهم حوالي مائة وعشرين عائلة. أكثر من مائة عائلة ستغادر إلى سراييفو، حيث من المتوقع أن تجد مكانا لها للاقامة، وحوالي خمس عشرة عائلة ستبقى هنا في فيشة غراد ، وغالبيتهم ممن له هنا أحد الأقارب ».

ويختار آندريتش بعد ذلك من بين جميع هؤلاء البوشنياق أحدهم ليقول:

« واحد فقط من بين هؤلاء الناس المنهكين، يلاحظ من مظهره أنه فقير ،ورجل وحيد ، توقف للحظة عند البوابة، شرب الكثير من الماء، وأخذ السيجارة المقدمة اليه، وقال:

أنتم تجلسون هنا وتتفرجون، دون أية معرفة لما يتدحرج عليكم من وراء جبل ستانيشيفو. لقد هربنا نحن الى أرض تركية، لكن

الى أين أنتم ستهربون، معنا، عندما يأتي الدور عليكم هنا ؟ هذا ما لا يعرفه أحد، ولا أي منكم يفكر بهذا ؟ »

نعم، فقد رأينا نحن كيف أن الدور قد أتى حقيقة في صيف عام ١٩٩٢ الى فيشة غراد، وضفاف نهر درينا بكاملها، والهرسك وكراينا... والدور الآن على كوسوفو ... فالأمر يتعلق بكلمة « عندما يأتي الدور الى هنا أيضا »؛ سمعنا ذلك منذ عام ١٩٩٢ وحتى عام ١٩٩٥ حيث تتابعت أفواج المهاجرين كالأمواج. قال هؤلاء المسلمون بأنهم مقتلعون من فيشة غراد على سبيل المثال، الى جيبا أو سربيرينيتسا، ثم أتى الدور بعد ذلك على سربيرينيتسا، والى جيبا بعده. كانت جميع دروب المسلمين الأوربيين المهاجرين تؤدي في معظمها الى سراييفو، هذا اذا لم يصبحوا في عداد المقتولين قبل ذلك...

ليست كلمات ايفو آندريتش بالطبع مجرد نبوءات خطتها ريشة أديب ملهم! وليست كلمات لعبقري، ولو أن كتّاب الصرب قدّموا آندريتش في كتب القراءة على أنه عبقري طبعا، وأظهروه للتلاميذ الصرب كرجل أمسكت ريشته يد متكهنة بالقدر لا تخطئ!

بكل بساطة، تأتي كلمات آندريتش نابعة من المخطط التوسعي الصربي البلقاني الهادف الى اجتثاث المسلمين الأوربيين، أو الأوربيين المسلمين. ايفو آندريتش ككرواتي، أو بالأحرى ككاتب كاثوليكي، وبشكل متناقض أم لا، قد خدم السياسة التوسعية الصربية كديبلوماسي يوغسلافي، وتبع ونفذ المخططات السياسية التي تخدم الصرب، وكانت مهمة تلك المخططات هي تصفية

المسلمين الأوربيين من خلال نقلها وزرعها في أشكال أدبية، بالطريقة التي يتقنها هو جيدا؛ لذلك كرّمت مراكز القوى في عالم الأدب عمل ايفو آندريتش هذا بمنحه جائزة نوبل!

في الأساليب السياسية والحكومية، كانت مخططات التطهير العرقي تلك للمسلمين الأوربيين معروفة بشكل جيد لآندريتش، بغض النظر أكانت عملا مشتركا له معهم، أم أنه حصل عليها عن طريق آخر!

٢

على مستوى مقاطع آندريتش هذه، فان واحدة من الخرائط في «أطلس التأريخ العالمي» الذي نشرته «التايمس» (الطبعة الانجليزية لعام ١٩٨٤، ثم عام ١٩٨٧؛ والطبعة اليوغسلافية لعام ١٩٨٨) تبين بوضوح فقط بعض المراحل لتحقيق هذا المخطط« تصفية الأتراك من الشعب».

بسبب ترافق نشوء صربيا كإمارة عام ١٨١٧، والتي أصبحت مستقلة عام ١٨٧٨، مع التطهير العرقي المنظم، واقامة محرقة للمسلمين الأوربيين في البلقان؛ فان أطلس التايمس هذا، كما نشاهد ذلك بوضوح على الخريطة، يسجل أرباحا أرضية دائمة لصالح صربيا، وعلى سبيل المثال فان الأطلس يشير الى بعض الأراضي على أنها «صربيا ١٨٧٨» ثم «صربيا ١٩١٣» فالأطلس لايذكر ذلك خطأ، لأن هذه في الحقيقة لم تكن صربية، بل انها ضمّت الآن فقط الى تشكيلة صربيا!

لكن، عدم ضم المسلمين الأوربيين الى تشكيلة صربيا ، فانه يعني عدم بقائهم فيها ، بالرغم من أن غالبية سكان تلك المناطق التي ضمّت الى صربيا هم شعوب أصلية، كالبوشناق الذين لم يعد لهم أي وجود ولا حتى في تركيبة جمهورية صرب البوسنة اليوم، غير الموجودة أصلا في أطلس التايمس، ولكنها موجودة في المخطط التوسعي الصربي البلقاني!

ألا تعلو الأصوات علنا عن وجوب اتحاد جمهورية صرب البوسنة مع جمهورية يوغسلافية الاتحادية!؟

ولأجل استكمال تلك النقطة للمخطط التوسعي الصربي، يجب الاستمرار في قتل المسلمين الأوربيين أو الأوربيين المسلمين أو طردهم. شاهدنا كيف سجل ايفو آندريتش الحل الثاني هذا في عمله الأدبي.

٣

على أية حال، لقد نشأت دول وانقرضت؛ وليس من المستغرب مطلقا أن تحصل صربيا على دولتها واستقلالها بشكل متدرج في القرن التاسع عشر؛ وليس من الجديد مطلقا ، قيام أي من الأجزاء الكبيرة للعالم، وحتى البلقان من تكوين وانشاء دول، وخاصة اذا حدث ذلك دون دماء.

ولكننا نلاحظ حجم التطهير العرقي للمسلمين الأوربيين ومدى ارتباطه بعملية تكوين صربيا كدولة في التأريخ الحديث، ومازال هذا التطهير العرقي ساريا ومنذ فترة طويلة؛ وهذه الحقيقة هي الأكثر نموا في صربيا من بين جميع الدول في البلقان.

إن السيدة ديفنا جوريتش زامولو وهي عالمة صربية واقعية متخصصة في تأريخ الفنون، قد ذكرت في كتابها المخصص لجوامع بلغراد العشرات والعشرات من تلك المباني التأريخية، وقالت: كانت خطب الجمعة غالبا ما تكون باللغة البوسنية، وقد هدمت جميع تلك الجوامع بالكامل خلال برامج الحملات الكثيرة المعادية للمسلمين وعمليات التطهير العرقي.

نعلم اليوم أنه لم يعد يوجد في بلغراد اليوم سوى جامع واحد!!.

ومن جهة أخرى، كانت السلطنة العثمانية في البلقان، ومع ذلك فقد بقي الصرب والبوشناق والكروات والألبان والبلغاريون... وفي البلقان كانت المملكة النمساوية المجرية، ومرة أخرى، بقي فيها الصرب والكروات والبوشناق... بقوا مع ثقافاتهم ولغاتهم وكنائسهم وجوامعهم.

وبعكس المملكتين العثمانية والنمساوية المجرية في البلقان، التي بفضل نشوئهما وتطورهما بقيت جميع الشعوب المحلية؛ بينما الأشياء التي نشأت برعاية المخطط التوسعي الصربي، بهدف إقامة الدولة، أو حتى هدم الدولة (تفكك وتدمير يوغسلافية على سبيل المثال)، فإنها كانت مرتبطة دائما بالمهمة الأساسية للمخطط التوسعي الصربي: التطهير العرقي للمسلمين الأوربيين، والذي ظهر مؤخرا بعبارة أكثر لطفا من «تصفية الأتراك من الشعب»، هذا يعني «تنظيف الشعب من كافة العناصر غير الصربية»، كما يقول ستيفان موليفيتش، أحد المنظرين القدماء الرئيسيين «لوثيقة أكاديمية العلوم والفنون الصربية» التي أعيد تفعيلها مؤخرا.

لأجل تحقيق هدف «تصفية الأتراك من الشعب» ضحّى المخطط التوسعي الصربي - في بعض الأحيان - ببعض من الأجزاء التأريخية لأراضي الشعب الصربي ذاته مثل كراينا كنين مؤخرا.

ومن المستغرب أن يكون لصربيا والحكام الصربيون منذ قرنين في البلقان وحتى اليوم، وفي وسط أوربة الديمقراطية هذه التي ننتمي اليها الحق وبلا منازع أن يقتلوا بجيوشهم وشرطتهم المئات أو الألوف وطرد مئات الآلاف من المسلمين الأوربيين!

لم يستغرب أحد في عالم الأقوياء لأولى عشرات الألوف من المسلمين الأوربيين القتلى في البلقان؛ أثناء مذابح البوسنة هنا، وفي كوسوفو الآن! ويأتي رد فعلهم لاحقا من خلال إصدار بعض النداءات، أو تهديدات كاذبة، أو دعوة للمفاوضات؛ كما لو أن هؤلاء المسفوكة دماؤهم في الغابات، أو في المناطق المعزولة النائية الملعونة قادرون على التفاوض عن أي شيء بفهم وحرية!

٤

من الصعب التهرب من تصوّر أن واحدا من الأقوياء جدا في العالم، قد أعطى صربيا صلاحيات طويلة الأمد لمئتي سنة من القتل والإبعاد للمسلمين الأوربيين، وكأنه إضافة للمشروع التوسعي الصربي يوجد هناك مشروع آخر مشابه، ولكن على مستوى أرفع، وكأن هذا المشروع التوسعي الصربي ليس سوى مادة واحدة فيه، أو أنه واحد من حواشيه!

إذا لم يكن هناك مشروع أرفع، ولا أريد الحكم على أنه أوربي، يقف خلف الكواليس ليجيز ويشجع هذا المشروع التوسعي الصربي؛ فكيف نستطيع اذا فهم عمليات الذبح الفظيع لمدن بكاملها، قرى ومناطق مأهولة بمسلمين أوربيين، كسريبرينيتسا مثلا!؟ فإذا لم يكن هناك مخطط كهذا يقف وراء التوسع الصربي؛ فكيف نستطيع فهم قضية طرد مائتين وخمسين ألف ألباني يوم أمس فقط الى الغابات، الأحراش، والى مناطق بلقانية ملعونة متنوعة!!

انني أعتقد مع عجزي عن الهروب من شبح التفكير بأن المسلمين الأوربيين، أو الأوربيين المسلمين البلقانيين في الحقيقة يعيشون زمن محرقتهم، وأنهم يقتربون من ذروته أكثر وأكثر. فمهما كانت عقيدة هؤلاء المسلمين الأوربيين، أكانوا مسلمين جاهلين، ديمقراطيين جدد، اشتراكيين ديمقراطيين، محافظين، متحررين أم مدنيين... الخ، فإن التنظيف العرقي ينتظرهم حتما، ينتظرهم المصير الأوربي لليهود.

ان مخطط «تنظيف الشعب من جميع العناصر اللاصربية» يحضّر ويشجع أوروبا على اشعال الضوء الأخضر لإكماله. واحد من الصرب المقيمين في باريس يشجع أوربة و لمدة طويلة، هو الكساندر بوبوفيتش قد ذكر في دراسته التي صدرت مؤخرا عن «مسلموا البلقان بعد الشيوعية» المنشورة في كتاب «الاسلام في أوروبا» (لندن – ١٩٩٧)، يؤكد بايحاء «بأن السكان المسلمين في البوسنة والهرسك – بنظرة عامة – هم الخاسر الأساسي»، وهو يتوقع تقطيع أوصال المسلمين ضمن محميات في البلقان، ومن الممكن أن تتكون منها دويلات صغيرة على طول الحدود العرقية (بشكل مشابه – كما يقول

بوبوفيتش – لتشكيل باكستان) ، أو اذا لم يتم تكوين تلك الدويلات والمحميات الصغيرة، فانهم سيبقون كأقلية دينية تعيش داخل دولة غير مسلمة...ثم يتابع بوبوفيتش قائلا: بأن القادة المسلمين لهذه المحميات (سيتفاوضون مع حكام تلك الدول «الكافرة») ، ولكن بشكل عام، ومن موقع اليوم، يصعب التنبؤ بمتى وكيف سيتم حل هذه المعضلة الأساسية، ونتائجها.

على أية حال، لايتحدث هنا هذا الديمقراطي الباريسي، الأستاذ بوبوفيتش، عن سبب ذبح المسلمين الأوربيين البلقانيين في المحميات، بل لماذا تستمر عصابات التوسعيين الصرب بدفعهم إلى المحميات.فبالنسبة إليه لم يتم حل أية مشكلة في البلقان إلى الآن ربما لأنه ما زال هناك مسلمون أوربيون في البلقان.

ليس مستغربا صدور مثل هذه النصوص، لأنها تخدم مخطط «تصفية العناصر اللاصربية من الشعب». آملين أن لاتلهم نصوص بوبوفيتش هذه الكثير من الوزراء والمستشارين الأوربيين على طريقة انهاء مسألة المسلمين الأوربيين البلقانيين بشكل دائم!

٥

ولكن، أيستطيع المسلمون الأوربيون البوشناق والألبان والمقدونيون من إحداث تقدم؟ وكيف سيفلتون من مصير المحمبات، التي هي بمثابة بوابة لفنائهم! نعود مرة أخرى الى آندريتش، الذي وصف وداع أهل فيشة غراد ، محتسين للقهوة في سهراتهم ، لهؤلاء المهاجرين من «أوجيتسا» فيقول:

«ولكن، في اليوم التالي مباشرة، كان كل شيء يجري رتيبا كالعادة، لأن أهل المدينة لايحبون أن تحفظ ذاكرتهم الشر، ولأنه ليس من عادتهم حمل الهموم سلفا، ففي دمائهم تجري قناعة مفادها أن الحياة السليمة تتكون من السكون وحده، فمن العبث والجنون تعكير صفو ذلك السكون النادر بحثا عن حياة أخرى أكثر استقرارا وديمومة، وغير موجودة أصلا».

إن بقاءنا، أو على الأقل تأجيل أطول لموعد فنائنا النهائي، مرهون قبل كل شيء بجهدنا الدؤوب لإقامة دولة وتنظيم الدولة بأسلوب أوربي نتمكن فيه من المحافظة على أوربيتنا المسلمة! فبقاؤنا، أو على الأقل تأجيل أطول لفنائنا النهائي مرهون بمحاربتنا لشعور العزلة! بقاؤنا يقع في اهتمامنا بالمستقبل واستغلال هذا السكون النادر، للوصول إلى حياة أكثر استقرارا، نفتقدها اليوم.

لنبدأ ولو من نقطة مضاعفة جهودنا، وتقوية ذاكرتنا، وتقليل سهراتنا واحتسائنا للقهوة!

على ضوء الجدل الحاصل بخصوص تسليم مجرمي الحرب الصرب لمحكمة لاهاي

سراييفو: عبد الباقي خليفة

الدكتور أنس كاريتش من خريجي جامعة الاستشراق ببلغراد، وهو بهذه الصفة وصفات أكاديمية أخرى خير من يحلل الوضع الثقافي، والصراع الأثني، والتحولات السياسية في منطقة البلقان، ومن هذا المنطلق كان «للشرق الأوسط» هذا الحوار الشامل الذي يلقي الضوء على دهاليز البلقان السياسية والثقافية والأثنية التي لا تزال خافية على السياسيين والصحافيين والمراقبين للشأن العام بالبلقان، مما أوقعهم في أخطاء إجرائية واستقرائية وتحليلية قاتلة. «المجتمع» تحاول أن ترفع تلك الالتباسات من خلال هذا الحوار مع الموسوعي البوسني الدكتور أنس كاريتش أحد أعمدة جامعة سراييفو.

المجتمع: في مقال له نشر عن دور المستشرقين الصرب في إعداد الرأي اليوغسلافي للحرب التي دارت على أرض البوسنة والهرسك (١٩٩٠-١٩٩٥) يؤكد «نورمان سيغار» أن المسلمين بجمهورية البوسنة والهرسك (اليوغسلافية سابقا) هم بالفعل ضحية ما يمكن تسميته بكل المعايير القانونية والأخلاقية بعقلية الابادة! وفي قلب هذه المأساة تقف الايديولوجية القومية الصربية المتعصبة، صارخة، مستلهمة الاستشراق بمعناه العريض وفي إطار المفهوم

الشامل، للاستشراق كتجسيد عدواني صارخ لعملية اتسمت بتقسيم مانوي الى «هم» و«نحن»، حسب دراسة قام بها أدوارد سعيد في كتابه الرائد عن هذه الظاهرة، وهو الاستشراق، كيف تنظرون للأسس النظرية التي قامت على أساسها جرائم الحرب؟

الدكتور أنس كاريتش: منذ السبعينات من القرن العشرين بذلت الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون والمستشرقون الصرب جهودا كبيرة في مشروع إقامة ما يسمى (بصربيا الكبرى)، لقد بذلوا كل ما في طاقاتهم ليثبتوا المغالطة التي تقول إن «المسلمين في البلقان هم الجزء المتخلف من السكان وهم بقايا الإمبراطورية العثمانية ولا يمكنهم الامتزاج بأوربا»، و«المسلمون في البلقان أصوليون إسلاميون وبين الأصولية والإرهاب خطوة واحدة فقط». و«الدور الرئيسي في الدفاع عن أوربا ضد ما يسمى بخطر المسلمين يقع على الصرب».

وقد أيدت السلطات الصربية واليوغسلافية هذا الموقف للأكاديمية الصربية للعلوم والفنون والمستشرقين الصرب واليوغسلاف أو بالأحرى كان التأييد متبادلا من الجانبين. وبهذا وجدت الصلة بين «الثقافة» والسلطة في يوغسلافيا.

المجتمع: يقول نورمان سيغار «المستشرقون الصرب استغلوا واستخدموا في مختلف الأماكن والأوقات ، ليفسروا ويؤيدوا السياسة الرسمية الصربية تجاه المسلمين»، هل تؤيدون ذلك؟

الدكتور كاريتش: عن هذه الظاهرة قال ستيوارت شار استخدم الاستشراق لتبرير «التطهير العرقي»، كما جرت العادة على تسمية عملية الإبادة في البوسنة والهرسك، في وسائل الاعلام العالمية.

المجتمع: منذ متى بدأ ما يمكن أن نسميه بالاستشراق الصربي؟

الدكتور أنس كاريتش: هنالك رأي بأنه لا يوجد استشراق صربي بالمعنى العلمي، لأن المستشرقين الصرب، مقارنة بالمستشرقين الألمان والإنجليز والفرنسيين، لم يفعلوا إلا القليل جدا في ترجمة المؤلفات الكلاسيكية العربية والفارسية والتركية إلى اللغة الصربية. ويقول نورمان سيغار محقا: «ان المستشرقين الصرب عادة لا يرغبون في اجتذاب أكثر من انتباه عابر نحوهم. فعلمهم ضئيل وعددهم، كإنجازهم قليل. غير أن ما يضفي عليهم أهمية هو علاقتهم وموقفهم من السياسة تجاه مسلمي البوسنة والهرسك، فقد كانوا في الجبهة الأمامية للحركة المعادية لوجود المسلمين منذ سنة ١٩٨٠ وساهموا بقدر كبير في إبادة المسلمين من خلال إيجاد هذه العملية وجعلها مقبولة وسط جميع قطاعات المجتمع الصربي.»

المجتمع: قلت إن المستشرقين الصرب في مخاطباتهم للعامة وللعالم من خلال المقابلات الصحفية أو مقالات، يثيرون الكراهية ضد المسلمين في البلقان. وكان مسلمو البوسنة والهرسك هدفا معاديا في كتابات المستشرقين الصرب، كما كتبوا أيضا عن المسلمين في بقية أنحاء يوغسلافيا السابقة التي يعيش فيها عدد كبير من السكان المسلمين، مثل كوسوفو والسنجق وصربيا نفسها، هل يمكن أن تميز بين طبقات المستشرقين الصرب؟

الدكتور كاريتش: من بين جميع المستشرقين الصرب ينفرد، بحملته المعادية للمسلمين داركو تاناسكوفيتش، الأستاذ بكلية اللغات بجامعة بلغراد، وهو من الأساتذة الذين يحتلون مكانة

عالية في بلغراد ، وهو ابن جنرال في الجيش اليوغسلافي الشيوعي وكان سفيرا ليوغسلافيا في تركيا ، وله أيضا بعض المؤلفات مثل تر جمة «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ. لكن داركو تاناسكوفيتش لم يتحسس طريقه جيدا في السياسة. فكتاباته وتصريحاته العلنية وخاصة إبان عدوان الجيش الصربي على سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك، كانت دوما على ارتباط و ثيق عمليا بالأهداف السيكولوجية العسكرية والأهداف السياسية، ولم تكن لها أية صلة بالعلم. وحتى قبل حرب ١٩٩٠ - ١٩٩٥م، كان داركو تاناسكوفيتش معروفا بأنه مستشرق صربي متطرف. وهو كاتب مقال بعنوان (بين القرآن والقدر - بالإنجليزية Between the Qur'an and the Pot بمجلة «نين» بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٨٩، الذي اعترض فيه على حق الجنود المسلمين بالجيش اليوغسلافي في أن يكون غذاؤهم متمشيا مع أحكام الشرع. فقد وصف كل تلك المطالب بأن يكون للمسلمين غذاء خاص في الجيش اليوغسلافي، ببساطة بأنها أصولية إسلامية. وقد برر المستشرق تاناسكوفيتش وشجع في العديد من المقالات والمقابلات الصحفية التي نشرها ، حملة الجيش الصربي والسياسة الصربية في سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك. ففي المقابلة التي أجرتها معه مجلة «الجيش» - المجلة الرسمية للجيش اليوغسلافي - في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٩٣م تحدث داركو تاناسكوفيتش بوضوح شديد عن المسلمين في البلقان. وطرح كل نظرياته تحت تصنيف «نحن» و«هم». ولفظ «هم» هذا يعني مسلمي البلقان الذين يؤكد تاناسكوفيتش أنهم بتناسلهم ومعدل توالدهم سيغمرون أوربا . وعنوان هذه المقابلة بحد ذاته له

دلالته الواضحة جدا، إذ يقول «أوربا لن تتفادى الجهاد الديمغرافي» تلك هي كلمات داركو تاناسكوفيتش، يوجهها لأوربا ويطالبها أن تقبل بدورها بالبرنامج القومي الصربي الذي يهدف للتطهير العرقي في البلقان، لأن المسلمين في البلقان لو تركوا يتوالدون بهذا العدد، فانهم، كما يدعى تاناسكوفيتش، سيغمرون أوربا!!

المجتمع: بهذه النصوص وما شابهها ينشر تاناسكوفيتش الكراهية ضد المسلمين والإسلام، ما خلاصة النظرة الصربية تجاه المسلمين في البلقان؟

الدكتور كاريتش: من بين هذه النصوص التي تحضرني: «المسلمون عنصر أجنبي غريب في البلقان والبلقان ليس وطنهم»، و«الاسلام في أوربا جسم غريب والإسلام بالنسبة لاوربا هو القطب المضاد هو القطب السالب»، و«المسلمون عدوانيون ولا أخلاقيون وباختصار لا ضرورة لوجودهم في البلقان ومن ثم يجب حل مسألة المسلمين بالحرب«، و«مسلمو البلقان خونة، لانهم باعتناقهم للإسلام خانوا ديانتهم المسيحية وأسلافهم المسيحيين».

المجتمع: يغلب على كل ما نشر لتاناسكوفيتش من مقالات منذ سنة ١٩٩٠ هدف واحد لا غير، لقد أراد الهجوم على الاسلام والمسلمين من المواقع التي تسمى فكرية وأن يضمن من ثم دعما ثقافيا للنمو السريع لأيديولوجية التعصب القومي وسط الصرب، هل كانت تلك سياسة الحكومة في بلغراد؟.

الدكتور كاريتش: ظل داركو تاناسكوفيتش يعرض هذه الإيديولوجية القومية الصربية المتعصبة كأيديولوجية تقدمية، كشيء يحمي أوربا من الغزو الاسلامي، وتاناسكوفيتش ينتمي

لتلك المجموعة من المتعلمين الصرب الذين كانوا ، كما يقول نورمان سيغار، كثيرا ما كانت تترجاهم بلغراد وحكومة صرب البوسنة وكذلك الحكومة اليوغسلافية ليخاطبوا الرأي العام الأوروبي عبر مختلف وسائل الإعلام اليوغسلافية وليوضحوا ويبرروا للرأي العام الصربي السياسة الرسمية للدولة تجاه المسلمين.

ففي مقال بعنوان «الاتراك يدافعون عن سراييفو» نشر بمجلة (ايبوخا – العصر) – المجلة الرسمية لحزب ميلوشيفيتش، يسمي داركو تاناسكوفيتش مسلمي البوسنة بالأتراك. وهو يريد بذلك أن يقول إن المسلمين في البوسنة ليسوا عنصرا أصيلا، بل عنصر أجنبي، ينبغي كنسهم من البوسنة عن طريق التطهير العرقي. ويتضمن مقال آخر لداركو تاناسكوفيتش بعنوان «خلع الاحذية في حجرة الانتظار الأوربية»، نشر في بلغراد سنة ١٩٩٢ عبارات قبيحة ومسيئة ضد مسلمي البلقان. ويلمح داركو تاناسكوفيتش في هذا المقال إلى دخول المسلمين حفاة إلى الجامع والبيوت التي يسكنونها. وتلك، في رأيه، ظاهرة رجعية وهو يخاطب أوربا، هل يمكن أن تسمح بتحويل منطقة البلقان الى حجرة انتظار لاوربا حيث يخلع البعض (أي المسلمون) أحذيتهم. وفي النص يجادل البروفيسور تاناسكوفيتش جاني دي ميكيليس الذي كان يومها وزير خارجية إيطاليا والذي صرح سنة ١٩٩٢ في وسائل الاعلام بأن الاسلام في تركيا وفي البلقان معتدل ومقبول لأوربا. تاناسكوفيتش يلقي عليه درسا حول ذلك ويبلغ دي ميكيليس بأنه لا يوجد أي إسلام مقبول لأوربا!!!

المجتمع: هل أدركت القيادة الصربية أنها تجني فائدة سياسية من مثل هذا التأييد من المستشرقين الصرب فحصل ذلك التعاون بين المستشرقين الصرب من جهة السياسة الصربية من الجهة الأخرى باتفاق؟.

الدكتور كاريتش: أصبحت هذه الحملة المسعورة ضد المسلمين في البلقان خلال القرن العشرين مربحة لدرجة أنه ظهر في صربيا ويوغسلافيا عشرات ممن نسميهم مجازا بالمستشرقين. وحول ذلك يقول نورمان سيغار ما يلي: «ربما لا يوجد دائما في الاوساط الأكاديمية الصربية تمييز واضح لمن نسميه مستشرقا، لأن الكثيرين من العلماء في مختلف مجالات العلوم الانسانية والاجتماعية في أغلب المواضيع التاريخية والسياسية التي يكتبون عنها يولون حيزا واسعا للإسلام في كتاباتهم».

فالكثير من الاساتذة الجامعيين الصرب، عند الكتابة عن تاريخ الصرب أو الثقافة والتقاليد الصربية في البلقان يعزون الكثير من الأشياء في التاريخ الصربي خلال هذه القرون الستة الماضية إلى ما تسمى بالأسباب الإسلامية. و قد دأبوا على ذلك بشكل يكاد يكون منتظما. ومن المؤكد أن الكثيرين من هؤلاء الذين نسميهم مجازا بالمستشرقين لا يعرفون اللغة العربية أو التركية أو الفارسية على الإطلاق. ومن ثم فهم، عندما نأخذ الأمر بجدية، لا يتعاملون مع الإسلام بشكل علمي ولا هم باختصاصيين في الاسلام بحكم المهن التي يمتهنونها. لكنهم فرضوا أنفسهم على وسائل الاعلام الصربية كأناس مؤثرين، لأنهم بذلك ساهموا في تكوين رأي عام ذي نظرة معادية للإسلام وسط المثقفين والجمهور.

المجتمع: ركزت في حديثك على داركو تاناسكوفيتش هل هو الوحيد الذي خاض في الوجود الأثني بعدوانية وعصبية كما تقول وهو بذلك لا يمثل خطا عاما؟

الدكتور كاريتش: داركو تاناسكوفيتش، إلى جانب أليكساندر بوبوفيتش، الاستاذ الجامعي الصربي الذي يعمل و يكتب عما يسمى «بإسلام البلقان» في باريس، هما من المستشرقين الصرب المثقفين؛ وقد تناولوا موضوعهم (أي مسلمي البلقان) من موقف عدائي.

لكنهما، من أجل أهدافهما، سخرا كثيرا من الاساتذة الصرب الذين ليست لديهم أدنى فكرة عن اللغة العربية أوالاسلام. وكان هؤلاء، على جهلهم هذا، يقومون بالأعمال القذرة لحساب تاناسكوفيتش وبوبوفيتش. ومن أبرز تلاميذ بوبوفيتش وتاناسكوفيتش ميروليوب ييفتيتش، الذي اشتهر بصفة خاصة بهجماته على مسلمي البلقان. فقد أجريت معه عشرات المقابلات ، في اطار الحرب الثقافية التي تزامنت مع حملة الابادة، وكتب عشرات المقالات التي تحدث فيها بأسلوب فاشستي عن مسلمي البلقان، تماما كما كان الفاشيست الألمان يتحدثون عن اليهود قبل وإبان الحرب العالمية الثانية. لقد نشر ميرليوب ييفتيتش سنة ١٩٨٩م (سنة احياء الذكرى السنوية الستمائة لمعركة كوسوفا) كتابا بعنوان الجهاد المعاصر كحرب The Contemporary Jihad as War)) وقد استخدم القوميون المتعصبون الصرب هذا الكتاب كدليل على أن المسلمين هم مصدر كل الشر في البلقان وأوربا. و يتحدث الكتاب بطريقة سطحية مجردة من أي أساس علمي عن الإسلام ويتهم الإسلام بأنه دين حرب. ويورد الكتاب عن الجهاد أكاذيب، يصعب حتى مجرد ذكرها هنا. فمثلا يدعي ييفتيتش أن الجهاد هو الحرب الشاملة للمسلمين ضد الغرب، وأن المسلمين يتآمرون عن طريق الجهاد على الغرب،

وخاصة على الصرب الذين يحمون أوربا من الاسلام. وبيفتيتش طبعا شيوعي. وهو ينسب للجهاد كل ما كان الشيوعيون ينسبونه للحرب الطبقية. فهو يقول عن الجهاد أنه حرب إسلامية دائمة ضد جميع الأديان الأخرى على وجه الارض!!! وعرض بيفتيتش الإمبراطورية العثمانية كصنيعة للجهاد الوحشي، حيث كان المسلمون يقتلون غير المسلمين متى ما أرادوا!!!

و في الأيام التي نشر فيها هذا الكتاب وهو في الوقت الذي كان فيه الصرب يحيون الذكرى السنوية الستمائة لمعركة كوسوفو، كان من الصعب مناظرة بيفتيتش لأنه لم يكن يستمع لأي حجج عقلانية. وكان من العبث محاولة إقناع بيفتيتش بأن البلقان بالذات تمتع على عهد الإمبراطورية العثمانية بأطول فترات السلم والرخاء. كذلك كانت حرية كافة الأديان، الاسلام والأرثوذكسية واليهودية والكاثوليكية، متوفرة في ظل الإمبراطورية العثمانية. وبالطبع، لم يؤلف بيفتيتش كتابه ليفسح فيه مجالا للحقيقة. فقد كان هدفه الدعاية ضد المسلمين. فتسييس الاستشراق الصربي لقضية المسلمين في البلقان كان، كما يؤكد المراقبون الموضوعيون، يسير جنبا إلى جنب مع تعاظم الحركة القومية الصربية المتعصبة في الثمانينات من القرن العشرين.

المجتمع: هل تريد أن تقول إن المستشرقين الصرب نشطوا كجزء من آلية مدبرة ضد مسلمي البلقان؟

الدكتور كاريتش: مما له أهمية هنا أن نذكر المذكرة الصربية التي كشف النقاب عنها سنة ١٩٨٦م من قبل الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون. فقد كتب هذه المذكرة الصربية كبار المثقفين الصرب

الذين كانوا يرون أنه ينبغي أن يكون لهم دور أكبر في السياسة وصياغة المستقبل الصربي. وهذه المذكرة، باختصار، تعيد وتبعث الحياة من جديد في الأهداف القومية الصربية القديمة، أما الهدف الرئيسي للمذكرة فهو إقامة صربيا الكبرى.

كذلك تطرح المذكرة مواضيع حول تعرض الشعب الصربي للخطر في البلقان وتعرضه للخطر منذ عدة قرون من قبل المسلمين. والمذكرة، إضافة لذلك، تعد الصرب للعنف والحرب، لأن صربيا الكبرى لن تتحقق دون حرب.

المجتمع: هل من السهل استنتاج أن المذكرة كانت العمل الذي أعدته الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون قبل إحياء الذكرى الستمائة لمعركة كوسوفا بهدف جمع الصرب تحت علم واحد؟

الدكتور كاريتش: في صربيا كما يقول نورمان سيغار، كان الشيوعيون الحاكمون في تحالف منذ زمن بعيد مع القوميين الصرب؛ ومع الكنيسة الأرثوذكسية الصربية ظهر التكافل الأحمر – البني – الأسود الذي أمن الانطلاقة الأولى للقومية الصربية وتركيبتها. ولم يكتف ميلوشيفيتش بإدخال غلاة القوميين إلى التيار السياسي الرئيسي، بل استطاع أيضا تأمين آلية في شكل تنظيمات سياسية ووسائل إعلام وتركة مالية؛ ثم قوة عسكرية. وكل ذلك أدى لتحول الأفكار العاطفية التي لم تكتمل إلى برنامج حكومي محدد كان قد جرى تطبيقه على أرض الواقع. وفي نهاية الثمانينيات من القرن العشرين كانت الحكومة الصربية والقوميون ووسائل الاعلام الشعبية والكنيسة الارثوذكسية قد اتخذت كلها معا موقفا عدائيا صريحا تجاه

المسلمين وتصاعدت بشكل درامي حوادث الخطب الرنانة ضد المسلمين. وبدلا من إدانة مثل تلك الاتجاهات طفق المستشرقون الصرب يدعمونها ويبررونها، بل وكثيرا ما كانوا يقدمون المزيد من الدوافع لنزعة معاداة المسلمين. وكانت المقالات ضد الإسلام والمسلمين تنشر في كل مكان في صربيا وتصل أحيانا إلى درجة من الابتذال أشبه بالكاريكاتير. فقد نشرت مجلة (الجيش) اليوغسلافية في ٨ أبريل سنة ١٩٩٣م مقابلة مع عقيد صربي اسمه نيكولا اوستوبيتش، صرح فيها بأن «ألف ليلة وليلة تنطوي على الكثير من الوسائل الداعية للإبادة»!!!

المجتمع: من الصعب حقا أن يصدق المرء أن المستشرقين الصرب لا يعرفون أن (ألف ليلة وليلة) ترجمت عدة مرات إلى الانجليزية والالمانية والفرنسية والروسية. وكيف يستقيم عقلا أن أوربا التي ومنذ قرون تقرأ (ألف ليلة وليلة) دون أن تكتشف أن ذلك مؤلف يدعو للإبادة؟!

الدكتور كاريتش: هاهم المستشرقون الصرب، الذين يسعون لإثبات بأن كل ما هو عربي وكل ما هو مسلم دعوة للإبادة حتى (ألف ليلة وليلة)!!! لكن الدعاية هي الدعاية. فقد نشر المستشرقون الصرب ما أمروا بنشره، ثم صدقوا هم أنفسهم ما نشروه.

المجتمع: المستشرقون الصرب كانوا يهاجمون الجماعات الأخرى أيضا في يوغسلافيا الاشتراكية السابقة كالكروات والألبانيين والغجر والسلوفنيين والمقدونيين في الفترة من ١٩٨٠ - ١٩٩٢ وبعدها.

الدكتور كاريتش: نعم لم يكن هجوم المستشرقين الصرب

مقصورا على المسلمين وحدهم؛ لكن مسلمي البلقان كجماعة، ربما كانوا في وضع حساس بصفة خاصة وعرضة لمثل تلك الهجمات، لاعتبارات جغرافية سياسية خاصة، مثل وضعهم الذي يحول دون إقامة صربيا الكبرى. فالبوشناق الذين يعتنقون الإسلام يعيشون في البوسنة؛ وقد تصدوا بصفة خاصة لإقامة ما تسمى (بصربيا الكبرى). كذلك كان الألبان في كوسوفو عائقا كبيرا أمام إقامة (صربيا الكبرى). وذلك ما جعل المستشرقين الصرب يصفون الإسلام بأنه طاعون كبير يفسد عليهم خططهم وينبغي التخلص منه عن طريق الحرب. وكما هو معروف، بدأ ميلوشيفيتش تلك الحرب سنة ١٩٩٠م واستمرت تلك الحرب حتى نهاية سنة ١٩٩٥م وإلى ما بعد ذلك التاريخ في كوسوفو.

المجتمع: هل يعني ذلك، أن المستشرقين الصرب بدأوا أولا بإشاعة خوف مزعوم من المسلمين، لإثارة الكراهية عند الصرب تجاه المسلمين ؟.

الدكتور كاريتش: للأسف ، بدلا من تطوير جو التعايش والحلول السلمية، ، لعب المستشرقون الصرب دورا كبيرا في صب الزيت على النار وزيادة الخوف والكراهية تجاه المسلمين وسط بنى جلدتهم الصرب.

وقبيل التفكك الفعلي ليوغسلافيا بالتحديد، بدأ المستشرقون الصرب يرسمون صورة مقلوبة للمسلمين وكأنهم جينة أجنبية غريبة وضيعة ، تهدد بالخطر ساعدوا على خلق الشرط المسبق لجنون ارتياب مصطنع وسط الصرب تجاه المسلمين. وكانت كل هذه الكتابات باتت في مرحلة الاعداد ؛ وتكون عند الصرب وسط

معاد للإسلام، ساعد على كل ما حدث بعد ذلك: الانزلاق في الابادة بعد نشوب الصراع العلني في أبريل سنة ١٩٩٢م في البوسنة والهرسك.

لكن هدف المستشرقين الصرب لم يكن مجرد اثارة الحرب ضد المسلمين في البوسنة و البلقان. فقد كانت احدى مهام المستشرقين الصرب تشويه وعزل الطائفة المسلمة . ولاحظوا أن ذلك سيتحقق عن طريق إبراز أن السمات الثقافية للاسلام والمسلمين غريبة - بالمعنى السلبي طبعا - ومبهرجة ومنافية للذوق السليم ويتبع ذلك تلقائيا أن السمات الثقافية للمسلمين أحط مستوى، بل وشاذة. ولم يكن هدف المستشرقين الصرب أمثال داركو تاناسكوفيتش وراده بوجوفيتش وميروليوب ييفتيتش وألكساندر بوبوفيتش وميله نيديلكوفيتش وكثيرين غيرهم هو الاكتفاء بإثارة الكراهية الصربية ضد مسلمي البلقان، بل كانوا يهدفون أيضا لإظهار المسلمين كأناس متخلفين قذرين لا يرقون لمستوى اوربا. وأعطى المستشرقون الصرب في كتاباتهم صورة مشوهة عن المسلمين؛ فقد قدموا صورة للمسلم كمخلوق تافه ومنحرف. وكان من بين مهام المستشرقين الصرب أيضا أن يعرضوا الدين الاسلامي كدين آسيوي كدين للناس البدائيين، كدين للمغول الذين يمتطون خيولهم ويشنون الغارات على الغرب والمسيحية. ووصف الاسلام بأنه دين أجنبي غريب على أوربا وبأنه دين منحط إلى درجة ثقافية وإخلاقية سفلى. وبهذا كان المستشرقون الصرب يؤيدون الاطروحة الموجودة أصلا في أوربا والتي تدعى أن أوربا قارة خاصة بالمسيحية والمسيحيين وحدهم ولا مكان لليهود والمسلمين في أوربا!

المجتمع: هل كان هدف المستشرقين الصرب أنهم بهذا سيحظون بالتأييد وسط زملائهم المستشرقين في الغرب بمعنى أن الغرب سيدرك بسهولة أن من الافضل التعجيل بطرد المسلمين من البلقان؟

الدكتور كاريتش: القاعدة الأساسية والفكرة الرئيسية لهذه الحملة التي شنها المستشرقون الصرب ترتكز على أن المسلمين ينتمون لديانة وثقافة (دخيلتين غريبتين على أوربا). وذلك يؤدي إلى الاستنتاج بأنه لا يمكن أن يكون لهم مكان في أوربا. وهكذا قام المستشرق الصربي أليكساندر بوبوفيتش في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين بتأليف كراسة بعنوان (المسلمون اليوغسلاف) ويصف أليكساندر بوبوفيتش الإسلام على هذا النحو:

«إن الإسلام نظام استبدادي؛ وهو نظام تصل استبداديته إلى درجة أبعد مما يستطيع أن يستوعبه أو يتصوره أي عقل غربي حسن النية ضعيف الاطلاع». لقد كان أليكساندر بوبوفيتش شخصية بارزة وسط المستشرقين الصرب، لأنه أستاذ جامعي في باريس. لكن باريس، بكل مكتباتها لم تساعده على الشفاء من فاشيته وكراهيته للإسلام. وقد حذا أليكساندر بوبوفيتش بصفة خاصة داركو تاناسكوفيتش ، وها هو نورمان سيغار يصف المستشرق الصربي تاناسكوفيتش بقوله، «لقد اتخذ تاناسكوفيتش نفس الدور النشط في المناقشة التي أثيرت فجأة حول القوانين التفصيلية للمسلمين و الذين يخدمون منهم في الجيش اليوغسلافي. فقد كان أكل لحم الخنزير في الجيش اليوغسلافي في العهد الشيوعي كثيرا ما يستخدم (كاختبار للولاء) ليثبت

المسلمون عن طريقه أنهم ليسوا مخلصين للدين. وعلى ذلك النحو كثيرا ما كان المسلمون يجدون أنفسهم أمام خيارات قليلة، أما أن يأكلوا لحم الخنزير أو يجوعوا طوال مدة الخدمة العسكرية الالزامية. وحين قفزت هذه المشكلة إلى السطح في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، استغل داركو تاناسكوفيتش وغيره من المستشرقين الصرب هذه الفرصة لوصف وتصوير المسلمين كعنصر ضال في المجتمع اليوغسلافي، ساخرين من مطالب المسلمين بأن يكون لهم طعام وسكن خاص يناسبهم. بل يذهب تاناسكوفيتش أبعد من ذلك، مؤكدا أن المسلم إذا رفض أن يأكل لحم الخنزير وبات جائعا، سيكون ذلك حافزا للانفصالية السياسية، وسيشوش على وحدة الجيش، لأن ذلك من شأنه أن «يثير اشمئزاز» الصرب في الوحدة العسكرية وهم يخدمون مع رفقاء انعزاليين من أمثال أولئك!!! ووصف تاناسكوفيتش في كتاباته تأكيد مسلمي البوسنة بأنهم شعب أوربي بأنه «سخف ليس إلا».

أما نادا تودوروف، فهي ترى أن «طريقة الحياة الاسلامية» لا يربطها أي رابط مشترك مع الحضارة الاوربية. وميروليوب ييفتيتش ينحى باللائمة عن كل ذلك على (الإمبريالية الثقافية العربية) التي تحدد نظرة مسلمي البلقان للعالم. ويرى ييفتيتش أن تلك (الإمبريالية الثقافية العربية) تمثل معضلة مستعصية الحل، «لأنك تستطيع النضال ضد الإمبريالية الثقافية الأمريكية، لأن الذين أوجدوها هم الأمريكيون – الذين هم الآن الأمة الأغنى، لكنهم مع ذلك مجرد بشر مثلك. وعلى عكس من ذلك، يرى الاسلام أنك إن أردت أن تستعيذ بالله، فلن تستطيع أن تفعل ذلك إلا باللغة العربية. وليس العرب هم الذين أمروا بذلك، بل

هو قول الله. فالله لا يقبل الدعوات إلا باللغة العربية». لقد كتب ييفتيتش هذا عشرات الكراسات ومختلف المقالات الاخرى ضد الألبان والبوشناق، مؤكدا أنهم جبهة واحدة متحدة تمثل الاصولية الاسلامية والبوشناق والألبان في نظر ييفتيتش «أوربيون مزيفون من جهة ومسلمون حقيقيون من الجهة الاخرى».

المجتمع: لقد أسال داركو تاناسكوفيتش وميروليوب ييفتيتش وغيرهم من المستشرقين الصرب الكثير من المداد ليثبتوا أن الإسلام في البلقان هو من مخلفات الماضي وأنه في الحقيقة السبب الرئيسي الذي يهدد «الحضارة الحديثة»، سواء لأوربا عامة أو بالنسبة لصربيا على وجه الخصوص، ألا توجد استثناءات؟

الدكتور كاريتش: المستشرقون الصرب استخدموا كافة الوسائل لاعطاء صورة قبيحة للاسلام. لقد استخدموا كل اتهام من شأنه تلطيخ سمعة الإسلام وعزل المسلمين بغية النقد. و هكذا تعلن السيدة نادا تودوروفيتش مثلا ان «في التعاليم الاسلامية لا توجد إمرأة لها كيان، بل بدلا من ذلك تعمل لإشباع احتياجات الرجل ولخدمته فقط». وداركو تاناسكوفيتش يسمى مسلمي البلقان بالمتحولين إلى الاسلام في القرون الماضية او«المتتركين». و قال في الكثير من كتاباته أنه من المعروف تماما أن المتترك (الذي اعتنق الاسلام) أسوأ من التركي!

أما ييفتيتش فقد ذهب في حملته على الاسلام ومسلمي البلقان إلى أبعد حد. وفي رأيه أن «الاسلام رجعي لأنه يمنع السياحة ويمنع الرياضة و يمنع الذهاب إلى المقاهي التي تقدم الكحول»؛ لذا فإن «الاسلام يؤدي حتما إلى إرهاب الأجانب»

و« مائة بالمائة الى التمييز العنصري ». وقد استهلك بيفتيتش بصفة خاصة الكثير من الورق لإظهار المسلمين خارج حدود التعايش وليعكس صورة الاسلام - كما يؤكد المؤلفون الغربيون الذين بحثوا في الابادة بحق البوشناق - و كأنه غريب دخيل و« يرفض أي شفقة أو معاملة باللين تجاه من لهم طريقة تفكير مختلفة عن تعاليم الإسلام المعمول بها ». إن تعداد الأماكن الأخرى في الصحافة الصربية، حيث يعرض الاسلام بأسوأ صورة بأنه يعني العنف والفساد وبأنه دين همجي...الخ فذلك يستغرق وقتا طويلا. ونؤكد مرة أخرى أن المستشرقين الصرب وأعضاء الاكاديمية الصربية للعلوم والفنون جميعهم تقريبا عرضوا الاسلام بهذه الصورة. وبالطبع هناك من الصرب والمثقفين الصرب من لم يؤيدوا نشر الكراهية ضد المسلمين بهذه الطريقة. فقد تصدى بوغدان بوغدانوفيتش عمدة مدينة بلغراد سابقا للنظريات الاستشراقية الصربية حول المسلمين، كعامل تشويش في البلقان. وميلوش مينيتش وزير الخارجية اليوغسلافية سابقا لم يوافق بدوره على النظريات الاستشراقية الصربية. وكان في سراييفو والبوسنة كثير من المثقفين الصرب الذين رفعوا أصواتهم لصالح مسلمي البلقان. ومن بين تلك الامثلة المشرقة غافريلو غراهوفاتس، الناشر المشهور والمدير السابق لدار (سفيتلو - الضياء) للنشر في سراييفو. وكان من بين السياسيين الذين اعترضوا على نشر الكراهية ضد المسلمين وزير الشؤون الدينية للجبل الاسود الذي طرح رأيه بأن الديانات التوحيدية بما فيها الاسلام، تقوم على نبذ العنف والصفح الكريم والمشاركة الوجدانية والاحسان. لكن ميروليوب بيفتيتش لم يسمع لهذا الوزير من الجبل الاسود، وذهب يجزم لأقصى الحدود بأن

مثل تلك الصفات لا تنطبق على الاسلام. وعلى شاكلة ييفتيتش، يتهم المستشرق تاناسكوفيتش (اسلوب القرآن) ويؤكد أن القرآن فاشيستي ومتصلب وخطر ويقول نورمان سيغار أن ميرليوب ييفتيتش يشرح شعيرة عيد الأضحى بمشاعر كراهية، ويفسرها ييفتيتش بأن المسلمين مستعدون لقتل الآخرين، على حد زعمه، وأن ذلك الاستعداد يكمن في صلب تربيتهم الدينية. ويوضح ييفتيتش هذا الزعم من خلال كتاباته في الصحف في أواخر سنة ١٩٩٣م، حيث يقول، «إن الاسلام يأمر بوضوح أن يقدم من يؤمن به قربانا لله. وذلك القربان من الأنعام هو الكبش الذي يذبح حسب الطقوس بحيث يرش دمه كل ما حوله. وإذا تعود أتباع الحضارة الاسلامية أن يشاهدوا منذ طفولتهم كيف يذبح الحمل، الحيوان الذي يحبه الجميع، فإن من الواضح ان الشخص الذي يؤمن بالنظرة الاسلامية للعالم، يتعود بسهولة على إراقة الدماء بطريقة وحشية. وعندها لا يحتاج الانتقال من الحيوانات إلى قتل البشر إلا لخطوة صغيرة جدا». لكن الذي حصل ويحصل على أرض الواقع هو أن المتهمين، كانوا ولا يزالون ضحية المؤسسين لنظرية المؤامرة وليس العكس. وتذهب المستشرقة الصربية نادا تودوروف بعيدا لدرجة أنها ترى أن مجموعة (ألف ليلة وليلة) القديمة وما تحتوي من حكايات جديرة بالإدانة، وتفترض أن جميع المسلمين يقرأون تلك الحكايات في طفولتهم. فهي ترى أن السلوك العنيف للمسلمين قد نبع، على حد زعمها، من هذا الكتاب الذي يزود المسلمين (بالاتجاه السادي) لتعذيب وقتل المسيحيين. لكن من قتل من، محكمة جرائم الحرب، والتاريخ، ووسائل الاعلام تجيب عن هذا السؤال.

المجتمع : زارت رئيسة القضاة كارلة ديل بونتي مؤخرا بلغراد ، وبحثت مع القيادة الجديدة موضوع تسليم مجرمي الحرب، هل هناك فرق بين الحكومة القديمة لميلوسوفيتش والقيادة الجديدة في بلغراد ؟

الدكتور كاريتش: لنقل إننا ونحن نعرض موقف المستشرقين الصرب تجاه مسلمي البلقان، كنا مضطرين لاستخدام مراجع كتبت باللغة الانجليزية. والسبب في ذلك أنه لم تكن في متناولنا مراجع باللغة الصربية بسبب الحرب، لأننا كنا نعيش في سراييفو المغلقة والمحاصرة.

لكن لتصرفنا ذلك ميزة أيضا. وذلك لأن نورمان سيغار ومالكولم نويل وفيليب كوهين مراقبون نزهاء. فهم لا ينحازون لأي جانب. وقد وصفوا بشكل موضوعي موقف الاستشراق الصربي وموقف الاكاديميين الصرب تجاه مسلمي البلقان. وللأسف لا زال يحكم في صربيا عين النظام الذي يحمي أمثال أولئك المستشرقين والاكاديميين ووسائل الاعلام التي تنشر الكراهية ضد البوشناق والألبان ومسلمي البلقان عموما. ومن ثم، من الصعب أن نتوقع حدوث تغيير في المستقبل القريب في وعي أوسع قطاعات الشعب الصربي أو تغييرا في الموقف تجاه مسلمي البلقان، وأنتم تعلمون كيف أصر الصرب على عدم تقديم المطلوبين للمحاكمة، وكيف عادت ديل بونتي إلى لاهاي وقد خاب ظنها وظن العالم في القيادة الجديدة التي علقت عليها آمالا عريضة، وقد ذهبت اتهامات الصرب هباء الذين علقوا كل جرائمهم على مشجب المسلمين الأبرياء فمثالنا ومثالهم كما يقول المثل العربي «رمتني بدائها وانسلت».

كوسوفو وديمقراطية يوغسلافيا والبلقان

(بحث مقدم فى ٤/ابريل- نيسان/١٩٩٨ فى المؤتمر المنعقد لبحث الأزمة الكوسوفية)

لقد كلفني منظم هذا التجمع بهذا الموضوع، وإنني أشكره على ذلك، ولكنني أعتقد أنه الموضوع الأصعب فى لقائنا هذا، ذلك أن كلمات كوسوفو ويوغسلافيا والبلقان تذكر مرافقة لكلمة لا تمت إليها بأية صلة، فى العديد من العقود الأخيرة على الأقل.

إن تلك الكلمة الموجودة فى كلمات هذا العنوان والتي هي بكل تأكيد غريبة ودخيلة وشاذة هي كلمة «الديمقراطية».

لذلك فانني أنطلق هنا من عدة منطلقات كالتالي:

أ - لم يكن ليوغسلافيا أن تنهار لو أنها كانت دولة ديمقراطية.

ب - لم يكن المتعصبون القوميون بأنواعهم المختلفة هم الذين هدموا يوغسلافيا في المقام الأول، بل غياب الديمقراطية.

ج - ولد غياب الديمقراطية عن يوغسلافيا و البلقان التعصب القومي، فالتعصب القومي في البلقان هو نتيجة وليس سببا.

د - أصاب غياب الديمقراطية عن البلقان بشكل خاص الشعوب قليلة التعداد، البوشناق، الألبان في كوسوفو، وحتى

أهل الجبل أسود في المستقبل البعيد بالتهديد المباشر لبقائهم العضوي، وليس السياسي فحسب.

ه - إذا توجه الجميع في البلقان نحو الديمقراطية، وخاصة جمهورية يوغسلافية الاتحادية وجمهورية كرواتيا، فإن السلام سيرمم في البلقان، وسيصبح مستقبل السلام في البلقان وأوربا أكثر إمكانية بكل تأكيد.

إنني أرى بأن كافة الأحداث والهزات السياسية في يوغسلافيا خلال العشرين سنة الأخيرة، هي فقط نتيجة لتأثير بعض المبادئ التي بنيت عليها السياسة والدولة والفلسفة القانونية ليوغسلافيا في جميع أشكالها الثلاثة الموجودة حتى الآن.

في الفترة منذ عام ١٩١٨م وحتى اليوم عرفت منطقة يوغسلافيا والبلقان بصورة عامة وبمختلف أشكال التنظيم فيهما بأنها منطقة المصالح القومية الصربية، بل يمكنني القول، ديكتاتورية الدولة الصربية. فقد روجت السياسة الصربية القومية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أسطورة سياسية عن الصرب كأنهم قوم تجميعي، وقوم التبشير المسيحي مهمته توحيد «القبائل ذات الدم الواحد»، كما كانوا يقولون في الكتب الإيديولوجية وقتها.

لعبت السياسة القومية الصربية دورا أساسيا في هدم مملكتين واضحتي الشرعية والتنظيم، الإمبراطورية العثمانية والمملكة النمساوية المجرية. وبقيت المملكة النمساوية المجرية بشكل خاص، محفورة بعمق في ذاكرة البلقان كدولة القانون والنظام. ومنذ رحيل المملكة النمساوية المجرية عن البلقان، لم يعد لدينا في

منطقة البلقان دولة قانون. في فترة الشيوعية التي تلت ذلك حصل شعور بالفراغ نتيجة لغياب دولة القانون، ويمكنني القول، بأنه وبسبب التأكيد الشديد على التوحد العقائدي، وهذا الضغط العقائدي التجميعي الدور الأساسي لغياب الحروب عن منطقة البلقان لفترة طويلة نسبيا وصعبة للغاية.

في هذه الفترة «فترة غياب الحروب» تمكنت الشعوب قليلة التعداد من البقاء بفضل الضغط العقائدي للشيوعية، الأمر الذي لا توجد حاجة ماسة للخوض فيه الآن، هو واحد من الآثار الإيجابية القليلة للشيوعية. إن العقيدة الشيوعية وسياستها متضاربتان في كثير من الأحيان، فقد نجحت عالميتها من منع متعصبي الصرب القوميين المستبدين والحركة الجتنيكية من الاستمرار في التنظيف العرقي للبوشناق والأقوام الآخرين من السنجق وكوسوفو ومن البوسنة والهرسك.

و الناحية الإيجابية الأخرى للحكم الشيوعي والاشتراكي في يوغسلافيا كانت: التعليم الشامل الذي تم تنفيذه بشكل مبرمج، مع أنه كان يجري بقبضة حديدية لعقيدة «الوحدة والأخوة».

لكن، في يوغسلافيا الاشتراكية، الأشخاص الذين كانوا حقيقة «أخوة» وكانوا «متحدين» حقيقة، و«متساوين» هم فقط المنتمون إلى الطبقة الحاكمة المستبدة، غالبيتهم من أصول صربية، وكذلك عدد من أبناء الشعوب الأخرى المختبؤون وراء قناع اليوغسلافية.

نظرا إلى العدد الهائل للضحايا، وخاصة عدد الضحايا في البوسنة والهرسك، وكذلك الأعداد الكبيرة لهؤلاء الذين سيقعون

بكل تأكيد ضحايا إلى أن تنتهي المأساة اليوغسلافية، أؤكد بأن الخسارة الكبيرة كانت تكمن في عدم استغلال «اليوغسلافية» كوسيلة حقيقية في التحول الديمقراطي. وتحت مسمى التحول الديموقراطي في يوغسلافيا الاشتراكية لم يكن هناك كما هو معروف حرية العمل للمؤسسات الشعبية والقومية والتواجد الحر لجميع الأديان والحرية في استخدام اللغة القومية وتسميتها وأداء الخدمة العسكرية الإلزامية في مكان الولادة والحرية في التملك وأداء العمل الخاص في الشركات الأهلية... وغيرها. فلو أنه جرى تطوير «اليوغسلافية» بناء على هذه الأسس، ولو أنه ترافق مع الحرية القومية للكروات والسلوفينيين والصرب والبوشناق والألبان والمقدونيين وغيرهم، لو كان الأمر هكذا لبقيت يوغسلافيا بكل تأكيد، ولتحولت إلى ديمقراطية.

إن مثل هذا القول اليوم هو إسقاط الخيال على الماضي، فاليوغسلافية لم تنجح وربما كان قدرها أن لا تنجح. لكن الصرب المتعصبين يتحملون معظم وزر فشلها بكل تأكيد.

أصبحت يوغسلافيا منذ فترة الاضطهاد البوليسي الأول في كوسوفو بداية عام ١٩٨٠ وحتى الآن دولة مكروهة جدا لجميع شعوب يوغسلافيا السابقة - السلوفينيين والكروات والبوشناق والمقدونيين والمجريين والألبان... ويمكننا اليوم رؤية أن يوغسلافيا لم تعد مناسبة أيضا لعدد كبير من أهل الجبل الأسود.

أرغب تذكير السادة المستمعين بأن كراهية يوغسلافيا لم تترافق في معظم أحوالها بكراهية الصرب، ودليلي موجود في مجمل الأحداث المأساوية التي عصفت بالبوسنة والهرسك.

لم تقم الحكومة البوسنوية بعمليات إبادة جماعية ضد الصرب، ولم يهدم البوشناق الكنائس.. الخ. وانني متأكد بأن الألبان لايكرهون الصرب، وأن الكروات لا يكرهون الصرب، كما أن معظم الصرب العاديين الذين «لا ينتمون للنظام الحاكم» لا يكرهون الشعوب الأخرى.. الخ. إن الكروات والألبان والمقدونيين والبوشناق.. الخ، لم يرفضوا الصرب، لكنهم رفضوا في الحقيقة مبدأ يوغسلافيا اللاديمقراطية، وتلا ذلك رفض لأية يوغسلافيا مهما كانت، وهي التي في الحقيقة قد تقمصها عدد كبير من الصرب.

عليكم تصديقي عندما أخبركم بأنه في يوغسلافيا الاشتراكية تلك، القائمة على الشعار الأساسي «الوحدة والأخوة» لم يكن الفلاح الصربي، ولا العامل الصربي، ولا المواطن الصربي، وكذلك الفلاح الألباني، والعامل الألباني ، والمواطن الألباني، وحتى الفلاح البوسنوي والعامل والمواطن...الخ، لم يكونوا «أخوة» ولا «متحدين» ولا «متساوين» في التمتع بمكتسبات وامتيازات الدولة اليوغسلافية الاشتراكية.

لقد كان لغياب الديمقراطية عن يوغسلافيا تأثير مباشر على كبت الحقوق القومية والثقافية، وكان الاضطهاد أكبر على تلك الشعوب التي كانت أقلية في يوغسلافية.

علاوة على ذلك، بحث المنظرون الاشتراكيون في أسباب تعثر الاقتصاد الاشتراكي والانهيار الاقتصادي، في المكان الذي لم يكن من المفروض البحث فيه حقيقة عن تلك الأسباب في النظام الاشتراكي والتنظيم الاشتراكي والاقتصاد المسيّر، بل في

ما يسمى «نمو القومية» في كوسوفو، وفي المناطق الأخرى، وفي جمهوريات يوغسلافيا السابقة.

بهذا الشكل اللامعقول تمت إدانة الألبان في كوسوفو بمعاداتهم لنشاط الثورة عقب مطالبتهم باستخدام لغتهم في النظام التعليمي. يكفي الاطلاع على المطبوعات الصادرة قبل خمسة عشر عاما، ليتضح لكم كيف تم تقديم الألبان وتصويرهم على أنهم المسؤولون عن كافة المساوئ في يوغسلافيا وقتها.

ولكن، كانت كوسوفو في الحقيقة وسيلة فقط للتعمية بشكل مرسوم على جميع الأحداث الأخرى في يوغسلافيا، بل حتى توجيهها نحو الأهداف المحددة بوضوح لسياسة التوسع الصربية، فتم بمهارة فائقة استخدام كوسوفو كستار من طرف القوميين الصرب وغلاتهم، الذين أعدوا خلف ذلك الستار خطة تمزيق يوغسلافيا.

على أية حال، هناك شيء آخر، وهو سؤال شرعي جدا، نصه: هل كان بالإمكان جعل الاشتراكية اليوغسلافية ديمقراطية؟ أي هل بالإمكان، وبشكل عام، تحويل أية اشتراكية لتصبح ديمقراطية؟

إن هذا السؤال هام جدا، خاصة عندما يكون الحديث متعلقا بالبلقان، ذلك أن معظم الدوائر في أوروبا تشير بإصبعها إلى البلقان على أنه منطقة يقتل الجميع فيها الجميع ـ كما يقال ـ لقرون عديدة، الكل يحارب الكل، حيث تلمع الخناجر، وتتساقط الرؤوس فيها بلا رحمة!

هناك في الحقيقة العديد من الأفكار المسؤولة، بأن الاشتراكية والشيوعية اليوغسلافية كانتا مناسبتين للكثير من الدوائر الأوربية الغربية، لأن الاشتراكية التيتوية أبقت البلقان تحت المراقبة

المضمونة، وتحت الغطاء العقائدي الصارم. لذلك فإن قضية الديمقراطية وجعل البلقان ديمقراطيا لم تكن تهم أحدا ذا شأن في الغرب بشكل جدي. بل كان من الضروري جدا عدم وجود الحرب فقط، وعدم وجود اللاجئين.

كان من المهم جدا للغرب وقتها المحافظة على حالة «غياب الحرب»، فوضعت بذلك قضية الديمقراطية والتحول الديمقراطي في خانة «الانتظار» متروكة لزمن آخر فيما بعد.

لقد لعب جوزيف بروز تيتو على بطاقة البلقان المسالم، ولكن ليس على بطاقة البلقان الديمقراطي. وكلما سحب قرضا من الغرب، كانت تلك القروض في واقعها ابتزاز متميز من طرف تيتو يخرج به أمام الغرب.

أعتقد أن المستمعين المحترمين يعرفون كيف تم انفراط عقد يوغسلافيا، وبالأصح كيف أنها ما زالت تنهار.

تجري الأحداث الآن أكثر وأكثر على مسرح كوسوفو، وغدا ستكون منطقة فويفودينا، السنجق، والجبل الأسود بطبيعة الحال. فمنطقة يوغسلافيا السابقة هي اليوم إما موقعا لحرب مؤقتة كما نرى في كوسوفو، أو أنها «حرب في أجازة سنوية» أو «حرب في أجازة»، أو «غياب الحرب» كالحالة التي نشاهدها في البوسنة والهرسك، أو أننا شهود حرب فقط في المستقبل المنتظر، وهو ما يمكننا توقعه فيما يخص الجبل الأسود والسنجق وفويفودينا وكوسوفو بالخصوص.

البوسنة والهرسك، وجميع الأحداث المرعبة التي جرت فيها، وكذلك كوسوفو وكل الأهوال التي تدور هناك، هي نتائج فقط

لشهوات المستبدين القوميين الصرب ونظام بلغراد في التسيد على البلقان. فهناك مشروع قومي صربي للسيطرة على البلقان، وكان من السهل تحقيقه لو أن الصرب كانوا هم الوحيدون في البلقان. ولكن، لقد عاش الشعب الصربي مع الكروات والبوشناق والألبان وغيرهم لقرون في البلقان، وفي نفس الوقت عاشت تلك الشعوب جميعها وما زالت تعيش مع الشعب الصربي. ويجب البحث بكل تأكيد عن حل سياسي للبلقان من خلال العيش المشترك في تلك المنطقة. يقبع في السياسة الصربية سبب عدم وجود ديمقراطية في البلقان، ولماذا لا يمكن جعل البلقان ديمقراطيا، ولماذا يعيش البلقان لسنوات عديدة في همجية سياسية وخرق كامل لحقوق الإنسان.

ستبقى كوسوفو وبكل تأكيد في هذه السنة والسنوات التالية، الموضوع الرئيسي للسياسات الأوربية والعالمية، وستكون كوسوفو لأوروبا وكذلك لصربيا والغرب عامة سببا لإعادة تحديد مستقبل الناتو في البلقان. إضافة الى أن لهيب الحرب في كوسوفو والبلقان سيعكر البداية المتفائلة للدخول في الألفية النصرانية الثالثة.

مهما حمل الألبان في أيديهم أثناء المظاهرات ـ صور الأم تيريزا والزهور والأعلام ذات الصقور وغيرها ـ فإن أوروبا تنظر إليهم مع ذلك من قريب أم بعيد، على أنهم مسلمون. فهذا السياق المسلم أو الإسلامي كان مؤثرا بقوة وعاملا مهما أثناء المأساة في البوسنة والهرسك والذي ما زال موجودا.

من العجيب أن يكون في أوروبا الحديثة سياق البلقان المسلم، ومعاناة المسلمين في البلقان تهديدا متصاعدا لأوروبا العجوزة تلك، أوربا الخائفة من الأتراك.

لذلك، وللأسف بسبب الأحداث المقبلة في كوسوفو والبلقان عامة، لن تجري الأمور لصالح الذين يرون أن البلقان يعاني ويغوص في الفوضى بسبب غياب الديمقراطية، بل لصالح أولئك الذين يتنبؤون «بصراع الحضارات» إن الصبر الغاندي للألبان في كوسوفو قد حرضه الإرهاب البوليسي اليوغسلافي الصربي.

كيف والى أين سيتجه الألبان في كوسوفو؟

إن المراقب من البوسنة، الذي كان شاهدا على غزو البوسنة والهرسك، والذي عايش ذلك الغزو، فإنه ينظر إلى كوسوفو بيأس كبير، لأنه كيف يمكن تطوير الديمقراطية في كوسوفو في الوقت الذي تتمركز فيه هناك عشرات الألوف من الجنود والشرطة الصربية!؟ كيف يمكن الحديث عن الديمقراطية مع الكوسوفيين، بعد أن عاشوا عشر ين عاما على هامش الحباة السياسية والاقتصادية والتعليمية، والأهم من كل ذلك : وصولهم إلى قاع البقاء المعيشي؟!

والأكثر من ذلك، مع أية جهة صربية سيتحادثون؟! مع الصرب الديمقراطيين ـ فهم ليسوا في السلطة ـ ولا يستطيعون اتخاذ القرار، بينما أولئك الصرب في السلطة، الذين بيدهم القرار، فإنهم غير ديمقراطيين !

سيحل الغرب المشكلة الكوسوفية. علما بأن هذا لا يسره مطلقا، ولكن المهم جدا أن يقدم الغرب في عملية حل المسألة الكوسوفية بسرعة أكبر وجدية أعظم من تلك التي قام بها في البوسنة.

سيكون هناك حظ أوفر للديمقراطية في كوسوفو والبلقان إذا تم الهروب من الحرب في كوسوفو. فدائما ينطبق على البلقان مبدأ: كلما زادت الحروب تقلصت الديمقراطية.

وأخيرا، علي القول بأنني لا أقع ضمن الكتّاب الذين يقسمون العالم إلى شرق وغرب، ويجب علي القول أيضا بأن توقعات البوشناق وما كانوا ينتظرونه ويأملونه من العالم الإسلامي قد حفرت في نفوسنا بصمة خزي وذكرى مؤلمة.

من المفيد للكوسوفيين الألبان أن يتحرروا من الوهم والطريقة المثالية في حل قضية مستقبلهم، فالمحيط المسلم النائم سيبقى أقل مقدرة عن مساعدة كوسوفو إذا ماقرر نظام بلغراد الدخول في عمليات إبادة ضد الألبان والقيام بتنظيف عرقي. هناك الكثير من الأدوية ولكنها مرة، ولكنها لا تشرب بسبب مرارتها، بل لأنها تهب الشفاء.

(ألقي هذا الموضوع باللغة الإنكليزية في ٤ أبريل ـ نيسان ١٩٩٨ في كوالا لومبور- ماليزيا في المؤتمر المنعقد بمناسبة أحداث كوسوفو. منظم المؤتمر مؤسسة «العدل» التي تضم المثقفين المشهورين في نضالهم لأجل الديمقراطية. وقد اتخذ المجتمعون إعلانا عن كوسوفو. نشر هذا المقال في صحيفة «أوسلوبوجينيا» ١٩٩٨.)

المؤثرات الثقافية العربية في البلقان

لقد قبلت بمزيد من الارتياح دعوة الدكتور يحيى محمود بن جنيد والدكتور عوض البادي لأكون معكم اليوم بهذه المناسبة، وإنني لجد سعيد إذ أتيحت لي هذه الفرصة الفريدة لأحدثكم عن هذا الموضوع الهام والواسع - أثر الثقافة العربية في البلقان. ويسعدني بصفة خاصة أن أتكلم عن هذا الموضوع في قاعة هذه المؤسسة المرموقة - في مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية.

وأود في البداية أن أقول لكم إنني لن أتوقف عند تاريخ وجغرافيا البلقان، إذ أفترض محقا أن الجمهور الذي أتحدث إليه اليوم على اطلاع عليهما ولو في خطوطهما العريضة.

فاسمحوا لي أن أنتقل فورا إلى عرض موضوعي.

لقد وصل التأثير العربي والإسلامي إلى شبه جزيرة البلقان قبل الفتوحات العثمانية في القرن الخامس عشر الميلادي بزمن بعيد. ونجد اليوم في متاحف البلقان، أشياء يعود تاريخها إلى زمن الاتصالات الأولى لشعوب البلقان مع عرب صقلية وجنوب إيطاليا والأندلس، منها الأواني العربية كالأباريق مثلا، ونحن نسمي الإبريق: إبريك (ibrik)، لأنه لا توجد لدينا في اللغة

البوسنية تسمية أخرى للإبريق غير تلك التسمية العربية. ونفس الشيء مع اللغتين الصربية والكرواتية.

ويوجد في أرشيف مدينة دوبروفنيك مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية التي تبين بوضوح كيف وبماذا كان التجار العرب يتاجرون مع تجار البلقان خلال قرون عديدة.

ولكن لم يكن التجار العرب وحدهم الذين جلبوا العادات العربية والكتب والأشياء والأفكار والآراء، فالسلافيون أنفسهم الذين كانوا جنودا عند العرب في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا، لعبوا دورا في انتشار تأثيرات الثقافة العربية في بلاد البلقان.

كما لعبت الصلات التجارية عن طريق الموانئ البحرية، دورا ملحوظا في نشر التأثيرات الثقافية العربية أيضا.

أما الانتشار القوي للتأثيرات الثقافية العربية في البلقان فقد بدأ مع وصول الإسلام إليه، حيث بدأت كثير من شعوب البلقان تدخل تدريجيا في الدائرة الثقافية الإسلامية.

ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي انتشرت الكلمات والمصطلحات والعبارات والأدب والكتب العربية في البلقان بسرعة كبيرة؛ وباختصار بدأت الجوانب الهامة للثقافة العربية، والعربية الإسلامية بالتوسع والانتشار.

فما الذي أدى إلى حدوث ذلك؟

الجواب عن هذا السؤال يكمن قبل كل شيء في انضمام البلقان إلى محيط ثقافي وحضاري جديد، بينما ـ في نفس الوقت ـ كانت تعتريه تحولات عميقة، وتقبلت معظم شعوب البلقان

الإسلام دينا لها ومنهاج حياة. ومع انتشار الإسلام، انتشرت المبادئ والمفاهيم الإسلامية وانتشرت الكلمات والتأثيرات الثقافية العربية، ورافق التحول في الحياة الروحية، تحولات عميقة في الحياة المادية أيضا. فالسلع التجارية والمعدات الحربية والكتب والأثاث والأدوات المنزلية والملابس والمأكولات المتنوعة ومستحضرات التجميل والأدوية وغيرها كثير وصلت إلى منطقة البلقان من الشرق التركي والعربي، وعلى الأصح من الشرق الإسلامي ومعظم تلك الأشياء كان يحمل أسماء عربية. وفعلا نجد اليوم في اللغات البوسنية والصربية والكرواتية وغيرها من لغات البلقان آلافَ الكلمات والمصطلحات العربية في مجالات العلم والدين والأدب والتجارة والسكن والملبس ومستحضرات التجميل والطب والطهي وغيرها من جوانب الحياة.

آلاف الكلمات والعبارات العربية

إذن، عندما نتحدث عن المؤثرات الثقافية العربية في البلقان، يجب علينا أن ننطلق أولا من الكلمات العربية!

فقد تبنت شعوب البلقان باحتكاكها لعدة قرون مع الشرق العربي آلاف الكلمات وتركيبات الجمل العربية، ودخلت تلك الكلمات وتركيبات الجمل إلى الكثير من لغات البلقان واستقرت فيها إلى الأبد!

ولتوضيح ما سبق، أدعوكم إلى جولة قصيرة داخل بيت مسلم تقليدي في البلقان يريد فيه رب البيت إكرامكم (ikram učiniti).

الأماكن المزدانة المخصصة للجلوس تسمى عندنا، إلى يومنا هذا، بالديوان (divan). لكننا صغنا من تلك الكلمة العربية في لغتنا الفعل «يتدون» أو«يتدونن» (divaniti)، والذي يعني بالبوسنية وحتى بالصربية والكرواتية (الحوار المريح) أو (الحوار اللطيف) عند الجلوس في الديوان. وفي البيت البوسني التقليدي يضيفونكم القهوة والشراب (kahvom i πerbetom)، فنحن أيضا نستعمل كلمة »القهوة« العربية، بينما نعني بالشراب (πerbet) أو (πerbe) المشروب الحلو غير الكحولي.

وستلاحظون أن مُضيفكم يصب القهوة من الجوزة، وهي (dževza) باللغة البوسنية ومعناها الجزوة. وبعد أن تشربوا القهوة يمكنكم أن تطلبوا الدخان (duhan) ، وأي بوشناقي أو صربي أو كرواتي سيفهم جيدا ما تريدون لأنه يعرف معنى كلمة الدخان العربية وسيقدم لكم سيجارة لإشعالها، وربما يخرجها مضيفكم من جيبه (džep) ، وهي كلمة بوسنية متداولة يوميا، أخذناها من العربية، والجيب هو الجيب عند الصرب والكروات ولا توجد كلمة محلية أخرى تقوم مقامها.

ومن المحتمل جدا أن يقدم لكم مضيفكم الحلوى (halva) وهي في البوسنة و في البلقان ذلك النوع الحلو من المأكولات المصنوعة من دقيق القمح والزيت، وأصل هذه الكلمة أيضا يعود إلى الكلمة العربية حلويات. ومن المؤكد أن تكون تلك الحلوى في طبق نسميه في البوسنة بالصحن (sahan) وهي بالطبع كلمة عربية.

وإذا تنقلتم بين غرف بيت مضيفكم البوسني، فسيلفت انتباهكم وجود الكثير من السجاجيد، ونحن نسمي البساط بالبوسنية سجادةً (sedžada) ، وهي كلمة مألوفة عندنا تماما.

أما إذا تمشيتم في شوارع سراييفو، عاصمة البوسنة والهرسك، فستجدون أن بعض شوارعها تحمل أسماء ذات معانٍ عربية، مثل شارع الْمُجَلِّدين الصغير (Mudželiti mali) وشارع الْمُجَلِّدين الكبير (Mudželiti veliki) ، وهما شارعان في قلب سراييفو، تكثر فيهما ورشات تجليد الكتب؛ ونحن في أغلب الأحيان نسمي أرباب هذه المهنة بالْمُجَلِّدين، وسراييفو مليئة بالدكاكين (dućani)، ونحن نطلق كلمة (dućani) على ما يسميه العرب الدكاكين. عدا ذلك، فإن سراييفو مليئة أيضا بالشوارع الصغيرة أو الأزقة، وزقاق بالبوسنية والصربية والكرواتية تعني (sokak)، أي زقاق، وهي كلمة نسمعها كل يوم. وكلمة جادة džada ، كثيرة الاستعمال في اللغتين البوسنية والصربية ومعناها الطريق، ومن الصعب أن تجد في البوسنة أو صربيا أو الجبل الأسود، من لا يعرف معنى (džada) جادة.

إضافة لهذا، فالبلقان مليء بأماكن أسماؤها عربية الأصل، فمثلا حين تسافرون من سراييفو باتجاه الغرب، ستمرون بضاحية جميلة اسمها إيليجا، وقد جاء هذا الاسم (Ilidža) من ينابيع المياه المعدنية الصحية، فقد وجد الناس في تلك المياه (Iladž) «العلاج»، وسموا النبع بإيليجا (Ilidža)، وكذلك كل نبع للمياه المعدنية الصحية يسمى في البوسنة إيليجا.

وإذا سافرتم عبر البوسنة أو صربيا وغيرهما من دول البلقان

سيصادفكم الكثير من القلاع العسكرية التي نسميها كولى (kule)، وهي مشتقة من القلعة، كذلك أصبحت كلمة وقف العربية التي ننطقها بالبوسنية (vakuf) اسما لعدد من المدن في البوسنة والهرسك: فلدينا مثلا مدينة وقف العليا (Gornji Vakuf) ووقف السفلى (Donji Vakuf) الخ، وفي البلقان تجد مدنا يقطنها المسلمون فيها المصلى (musala) أي الساحات التي يؤدون فيها صلاة العيد بأعداد كبيرة، وفي سراييفو شارع اسمه شارع المصلى (Musala)، وفي هذا الشارع اليوم يقع مبنى رئاسة البوسنة والهرسك.

ولا يتسع المقام لذكر جميع الكلمات العربية التي نستخدمها كل يوم في اللغة البوسنية والتي يستعملها أيضا الصرب والكروات في لغتهم.

وأو د التنبيه إلى أن الكلمات مثل الدخان أو السجائر (duhan) و الجيب (džep) و القهوة (kahva) والحناء (kana) و القلعة (kula) والصدف (sedef) والشيفرة (šifra) والتعريفة (tarifa) وغيرها من الكلمات ليس لها بدائل مناسبة في البوسنية والصربية والكرواتية، وعند الحديث عن الحناء، أود الإشارة إلى أن المسلمين في البلقان يستعملون الحناء في الأعراس الشعبية، وما تزال عادة طلاء شعر العروس ويديها وقدميها بالحناء موجودة إلى يومنا هذا! وتعتبر في الكثير من مناطق البلقان عادةً إسلامية، ولا أود الإطالة حول ذلك ولكن يجدر بي أن أضيف أن كل بوشناقي وصربي ما زال يستخدم يوميا، كلمات عربية مثل البلاء (belaj) والهموم (dever) والجلاد (dželat) والحيوان (hajvan) والإنسان

(insan) والمشتري (muŋterija) والعناد (inad) والفائدة (fajda).. إلخ.

فلو وقع لنا مثلا حادث مرور نقول (Imali smo belaj) أي حدث لنا بلاء، وإذا تصرف أحد بشكل غير لائق يقال له في البوسنة: (Ponaŋaj se kao insan i nemoj biti hajvan) أي تصرف كإنسان ولا تكن كالحيوان... الخ. وبالنسبة لكلمة (muŋterija) يقول التجار عادة: (Danas smo imali mnogo muŋterija) أي كان لدينا اليوم الكثير من الْمُشترين.

وقد كتبت عندنا أيضا قواميس عن الكلمات العربية في اللغة البوسنية والصربية والكرواتية، ومن أشهرها ذلك الذي جمعه البروفيسور عبد الله شكاليتش (Abdulah Škaljić)، فقد بحث في استخدام الكلمات العربية والتركية والفارسية في اللغة البوسنية والصربية والكرواتية وعددها، وتوصل إلى نتائج مذهلة. ويمكن القول بارتياح تام أن اللغات البوسنية والصربية والكرواتية تحتوي على آلاف الكلمات العربية، وهذا بحد ذاته يدل دلالة كافية على التأثير الثقافي الكبير للغة العربية في البلقان.

ويقول عبد الله شكاليتش إننا نجد الكلمات والمصطلحات العربية في اللغة البوسنية في جميع المجالات:

١) الكلمات ذات الصلة بالحياة الدينية والعادات الدينية للمسلمين: الله (Allah) والإسلام (Islam) والتسبيح (Tespih) و التجويد (Tedžvid) ور مضان

(Ramazan) والزكاة (Zekat) والحج (Hadž) والشهادة (Šehadet)... الخ.

٢) أسماء الأشخاص: محمد، احمد، صالح، خديجة، فاطمة، علي ... الخ. (أود التنبيه هنا إلى أن البوشناقيين إلى يومنا هذا يُسَمُّوْنَ في الغالب بأسماءَ عربيةٍ وليس بأسمائهم ما قبل الإسلام. وإذا أخذنا دليل الهاتف لمدينة سراييفو فسنجد أن عدد الرجال المسلمين الذين يحملون اسم محمد هو الأكبر ويليه علي وعمر وحسن وحسين ... أما بين النساء فإن عددا كبيرا منهن يحملن اسم فاطمة ثم خديجة فعائشة ... الخ).

٣) القانون والادارة ونظام الدولة: الحق (hak) والقاضي (kadija) والحبس (haps) والسلطان (sultan) والمتصرف (mutesarif)... الخ.

٤) الجيش والمصطلحات العسكرية: العسكر (askeri) والقلعة (kula) والمشير (musir)... الخ.

٥) الأسلحة و المعدات الحربية: السيف الدمشقي(dimiskija).

٦) البناء والمباني ومواد البناء: البناء (bina) والقبة (kube).

٧) التجارة والنقود: المشتري أو الزبون (muɯterija) والدينار (dinar) والدرهم (dirhem).

٨) الحِرَف والحرفيون والآلات الحرفية: الساعاتي (sáhačija) والسراج (sarač) والكبابجي (ćevapčija)

وبائع القماش (abadžija) والمقص (makaze) والساعة (sat)...الخ.

٩) الأواني والأثاث وغيرها من الأشياء المنزلية: الصحن (sahan) والابريق (ibrik) والحصيرة (hasura) والدولاب (dolap)... الخ.

١٠) الملابس والأحذية والحلي والماكياج: الجبة (džuba) والنعل (nanula) والحناء (kana) والسرمة أو الكحل (surma)...الخ.

١١) المأكولات والمشروبات والتوابل: التفاح المحشي (tufahija) والحلوى (halva) والفاصوليا (pasulj) والشربات (ćerbe) والقطائف (kadaif).

١٢) أسماء الطيور والحشرات والحيوانات: البلبل (bulbul) والهدهد (hudhud)، ونجد هذا الاسم في الأغاني الشعبية، والعقرب (akreb) والزرافة (žirafa)...الخ.

و هناك أيضا الكثير من الكلمات في اللغات البوسنية والصربية والكرواتية ذات الصلة بالمجالات الآتية: الظواهر الجغرافية والطبوغرافية والشوارع؛ الزراعة والغابات وتربية الماشية؛ الصيد؛ الطب ونظافة البدن؛ الفلك؛ الموسيقا والرقص؛ الألقاب وفئات المجتمع والمهن؛ أسماء أعضاء جسم الإنسان والحيوان؛ الألوان؛ العطور؛ المعادن والخامات المعدنية والعناصر الكيميائية؛ القماش وأشغال الإبرة والخيوط؛ أنواع الجلود؛ وسائل المواصلات؛ تسميات الأقرباء؛ الطبيعة وظواهر الطبيعة؛ الوقت والتقويم؛ الأسماء التجريدية وغيرها من مختلف الأسماء.

والمتعلمون في البلقان، ومنهم المختصون مثلا في علم الفلك يعرفون تماما أن كلمات الفرقد (el-ferkad) والجدي (el-dždedi) والعقرب (el-akreb)...الخ، هي في الواقع كلمات عربية تستخدم في علم الفلك كأسماء للأبراج. وكما نشاهد من هذا المثال، نحن في أوربا نقرأ جزءا ليس بالصغير من السماء بواسطة أسماء عربية معروفة في علم الفلك وأدواته.

انتشار الخط العربي في البلقان

بعد هذه الملاحظات العامة عن العدد الكبير من المصطلحات والكلمات العربية في اللغات البوسنية والصربية والكرواتية وحتى المقدونية، يمكنني أن أجزم بأن هذه المصطلحات قد وصلتنا بصفة رئيسية بفضل انتشار اللغة العربية والخط العربي.

فقد كتب البوشناقيون على مدى القرون الخمسة الماضية آلاف المناظرات والكتب باللغة العربية، نجد المئات منها اليوم محفوظة في حالة جيدة. وأود أن أنوه بأن العلماء ورجال الدين من البوسنيين، وكذلك الشعراء والصوفيون وموظفو الدوائر الحكومية، كانوا خلال قرون عديدة - في الكلام أو الكتابة عن الإسلام - يستخدمون فقط اللغات العربية والتركية والفارسية. ومكتباتنا وعلى رأسها مكتبة غازي خسرف بك تَزْخَرُ بالمخطوطات القيمة المكتوبة باللغة العربية معظمها لمؤلفين بوشناقيين.

وقد نشر أستاذنا حازم شعبانو فيتش كتابا قيما عن البوشناقيين الذين كتبوا مؤلفاتهم في الفلسفة وعلوم الدين

والتصوف وغيره باللغات العربية والفارسية والتركية، وحتى الشعراء كانوا ينظمون قصائدهم بهذه اللغات.

وتلك المؤلفات التي كان معظمها باللغة العربية كُتِبَتْ في علوم التفسير والحديث والفقه والفلسفة والنحو وتركيبَ الجمل وعلم الدلالات والشعر والنثر والتاريخ والتصوف، وغيرها من العلوم.

لذا، نحن في البوسنة والهرسك وفي البلقان قد عرفنا الخط العربي واللغة العربية منذ زمن بعيد وكان لنا في الماضي - كما لدينا اليوم - أخصائيون في كافة فروع علوم اللغة العربية والإسلامية، يكتبون أو يتحدثون باللغة العربية، وهذا ليس بأمر جديد. أما الخط العربي فهو فن محبب جدا، إذ تحتفظ مئات الآلاف من بيوت المسلمين في البلقان بلوحة أو أكثر، مكتوبة بالخط العربي ومزينة بالزخارف العربية الجميلة.

لكن ما قد يكون غير معروف للكثيرين هنا، هو أننا في البوسنة كنا نكتب لغتنا البوسنية بحروف عربية حتى في تأليف الكتب.

وفي بداية القرن العشرين، أوصى زعيمنا الديني محمد جمال الدين تشاوشيفيتش (1870-1938) Mehmed Džemaludin Čaušević الذي كان أكبر علمائنا أيام الإمبراطورية النمساوية الهنغارية، أوصى صديقه أغوف أفندي زيرونيان، وكان صاحب مطبعة، بصنع حروف عربية خاصة تلك الحروف البوسنية الغريبة على اللغة العربية مثل: P، Lj, Δ, Č, C, Ž .. وغيرها. وهذا الخط يعرف في البوسنة باسم

arebica «اللغة البوسنية بالحروف العربية». وقد طُبِعَ بتلك الأبجديات الكثير من الكتب الدينية مثل كتب العقائد.

وبهذا أراد محمد جمال الدين تشاوشيفيتش أن يتخطى الأزمة التي نجمت عن دخول الإمبراطورية النمساوية الهنغارية وقدوم الكتابة اللاتينية معها. فقد كانت الإمبراطورية النمساوية الهنغارية تدعم الخط اللاتيني، بينما أراد محمد جمال الدين تشاوشيفيتش بخطوته هذه أن ينقذ الخط العربي وأن يستخدمه في كتابة المؤلفات باللغة البوسنية.

ويعود الفضل لهذا الانتشار الواسع للخط العربي في البوسنة إلى القرآن الكريم في المقام الأول. فقد كان أطفالنا قرونا عديدة يتعلمون الخط العربي في الكتاتيب لكي يستطيعوا تلاوة القرآن الكريم وتعلمه.

وأود أن أنبه هنا إلى أن عنوان مناقشتي هذه هو «المؤثرات الثقافية العربية في البلقان» وليس «المؤثرات الثقافية الإسلامية في البلقان»، ورغم ذلك يجب أن أقول شيئا عن ترجمات معاني القرآن الكريم للغة البوسنية واللغة الصربية، مع أن الحديث عن ترجمة معاني القرآن الكريم يتطلب محاضرة خاصة.

وقد قام بالترجمة الأولى والوحيدة حتى الآن لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الصربية قسيس صربي اسمه ميتشو ليوبيبراتيتش Mićo Ljubibratić، وصدرت الترجمة في بلغراد سنة ١٨٩٥م.

أما أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة البوسنية فقد كانت على يد محمد جمال الدين تشاوشيفيتش ومحمد بانجا

Muhamed Pandža أحد حفظة القرآن الكريم، ونشرت هذه الترجمة في سراييفو سنة ١٩٣٧ م، مع نص القرآن الكريم. وفي نفس السنة ظهرت في مدينة موستار ترجمة لمعاني القرآن الكريم قام بها علي رضا كارابيغ.

وفي سنة ١٩٧٥م، ظهرت ترجمة أخرى لمعاني لقرآن الكريم إلى اللغة البوسنية، على يد بسيم كوركوت Besim Korkut وصدرت عن معهد الدراسات الشرقية.

وبعد ذلك ظهرت ترجمتان لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة البوسنية إحداهما على يد المهندس مصطفى مليفا Mustafa Mlivo سنة ١٩٩٥م، والثانية على يدي سنة ١٩٩٥م، وذلك شرف عظيم لي.

وأؤكد مرة أخرى بأن موضوع ترجمة معاني القرآن الكريم في البلقان وكذلك دراسة العلوم الإسلامية في البلقان يتطلبان محاضرة خاصة.

ولكن لنعد الآن إلى الأدب العربي وتأثيراته في البلقان.

تأثيرات الأدب العربي

منذ بداية الاحتكاك الثقافي الكثيف، وجدت اللغة العربية في البوسنة والبلقان مؤيدين ومناصرين أقوياء من البوشناقيين والصرب والكروات الذين درسوا اللغة العربية وألفوا القواميس والكتب في النحو والصرف، وبجولة سريعة في التاريخ القريب نجد عددا كبيرا من العلماء الذين وضعوا مؤلفات هامة في قواعد

اللغة العربية، ونخص بالذكر الأساتذة: علي قاضيتش وعلي بوليتش وشاكر سيكيريتش ومحمد خانجيتش ومحمد باشيتش وبسيم كوركوت وتوفيق مفتيتش وراده بوجوفيتش وعمر ناكيتشيفيتش، وغيرهم. ويتربع اسم الأستاذ توفيق مفتيتش على عرش الدراسات العربية في البوسنة والهرسك لما قدمه من خدمات جليلة في ميدان دراسة اللغة العربية، وخاصة كتابه المدرسي الشامل في قواعد اللغة العربية، وقاموسه الضخم العربي البوسني (ظهرت الطبعة الأولى من هذا القاموس في سراييفو سنة ١٩٧٣م، بعنوان القاموس العربي الصربوكرواتي).

أما الشعر العربي فإنه يحتل مكانة مرموقة في الشعر العالمي الذي يُدَرَّسُ في البلقان. وبالنسبة للأدب العربي قبل الإسلام، تحظى المعلقات السبع بشعبية متميزة، وقد نشرت على أجزاء عدة مرات. وكانت أحدث ترجمة للمعلقات السبع بقلم الأستاذ الدكتور أسعد دوراكوفيتش (وهو قيد الطبع)، ومن القصائد المعروفة في البوسنة معلقة عنترة الشهيرة وقد نشرت حولها عدة دراسات. وهناك أيضا ترجمات للشعر العربي من العصر الأموي والعصر العباسي، إلى اللغتين البوسنية والصربية.

أما بالنسبة للشعر الإسلامي، فإن قصيدة البردة لكعب بن زهير تحتل مكانة خاصة، وقد ترجمت هذه القصيدة باكملها أو أجزاء منها إلى البوسنية عدة مرات. وقد اهتم حفظي سولكيتش والأستاذ يوسف راميتش بترجمة شعر المديح الإسلامي من العصور المبكرة، وللأخير أبحاث واسعة في هذا المضمار. وكثيرا ما تنشد قصيدة البردة في البوسنة باللغة العربية. ولا داعي للقول إننا في

البوسنة نعرف جيدا قصائد المديح لحسان بن ثابت، وابن المعتز ولكثيرين آخرين من شعراء العرب. وكثيرا ما تنشد تلك القصائد في عيدي الفطر والأضحى وغيرهما من المناسبات.

وأود أن أؤكد هنا بصفة خاصة أن مدائحنا وابتهالاتنا المحلية باللغتين البوسنية والألبانية كتبت تحت تأثير المدائح والابتهالات العربية. والمواضيع التي تتحدث عنها قصائدنا أو مدائحنا المحلية هي الإيمان ومديح النبي محمد صلى الله على وسلم، وقيمة التقوى ومعنى الحياة والموت وكون الدنيا فانية ...الخ. وقصائد وابتهالات الشيخ سري معروفة في البوسنة. وفي زماننا يبرز جمال الدين لاتيتش، كأفضل ناظم للمدائح والابتهالات في البوسنة. وتتخذ قصائدنا وابتهالاتنا البوسنية والألبانية شكل ثنائيات الأبيات، وهنا نرى بوضوح أثر الشعر العربي. كذلك كان للشعر العربي أثره على الشعر البوسني في شكل الرباعيات. ولا أنسى أن أذكر بصفة خاصة بأن الشعر العربي التربوي له رواج في البوسنة والبلقان، وأشير بهذا الشأن إلى كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي، الذي كان يدرسه تلاميذ مدرسة غازي خسرف بك في سراييفو – مدرسة النخبة – خلال قرون كثيرة .

وقبل حوالي مائة عام جمع محمد بك كابيتانوفيتش ليوبوشاك في كتاب ضخم من مجلدين أشعارا وحكَما وأمثالا تحت عنوان »كنز الشرق« . وأورد في هذا الكتاب َالمئات من أبيات الشعر العربي المليئة بالحكم بنصوصها الأصلية. ويمكن أن نستخلص أن ليوبوشاك ألف كتابه مستفيدا من المؤلفات العربية مثل كتب الأمثال وكتب الشعر ... الخ.

وفي تاريخنا الحديث تُرجمت مؤلفاتٌ للعديد من الشعراء والكتاب العرب المحدثين إلى البوسنية والكرواتية والصربية، مثل عبد الوهاب البياتي و نازك الملائكة وشوقي ضيف وتوفيق الحكيم وغيرهم.

وعن الأقدمين ترجم أساتذتنا في اللغة العربية وآدابها مرات عديدة لأبى العلاء المعري. فقد ترجم البوسني سليمان غروزدانيتش «رسالة الغفران»، وترجم الكرواتي دانيل بوتشان «لزوم ما لا يلزم» إلى الكرواتية.

أما القصة، ونسميها بلغتنا بالحكاية (Hikaja)، فهي الشكل الكلاسيكي الثاني للأدب العربي الذي كان له كبير الأثر في أدب البوسنة والبلقان. ففي أدبنا البوسني توجد مئات بل آلاف الحكايات ذات الأصل العربي أو أننا أخذناها عن طريق اللغة العربية. ومن القصص الشهيرة بصفة خاصة: قصة سيدنا إبراهيم وقصة سيدنا إسماعيل وقصة سيدنا أيوب عليهم السلام، وغيرها من قصص الأنبياء، وأشير بصفة خاصة إلى أنه لدينا أيضا قصة وفاة السيدة فاطمة رضي الله عنها. وكل هذه القصص ألفها البوشناقيون على أساس ما قرؤوه من المؤلفات العربية في التاريخ والأدب وخلافهما.

ولدينا أيضا الكثير من الحكايات التي تلقيناها عن طريق النثر العربي وهي حكايات عن الخير والشر والموت وعن هذه الدنيا الفانية ... الخ. وكل هذه الحكايات ضربت بجذورها عميقا في ثقافتنا وفي أدبنا. والحكايات محببة بصفة خاصة في الأوساط المسلمة التقليدية. وأود أن أذكر أن الأدباء البوسنيين أمثال علي إسحاقوفيتش، ورشاد

قاضيتش، ونجاد ابريشيموفيتش وغيرهم قد استخدموا شكل الحكاية في العديد من كتبهم. وينبغي أن نذكر هنا طبعا أن الناس في البلقان يميزون جيدا الحكايات الفلسفية عن الحكايات الدينية.

وعادة ما يستخدم الأدباء في البلقان الحكايات الفلسفية، بينما يستخدم علماء الدين الحكايات الدينية، كتلك التي أوردها الغزالي في مؤلفاته، ثم السمرقندي في «تنبيه الغافلين»... الخ. وتحت تأثير سرد الحكايات صدرت باللغة البوسنية مؤخرا عدة روايات.

ونذكر هنا بالمناسبة أنه كان لدينا في البلقان منذ قرون أناس يروون القصص شفاهة لهم نفس دور القصاص qussas أو المسامرين musamirin في الثقافة العربية. يعني أن قصاصنا كثيرا ما كانوا أميين، لكنهم يعرفون آلاف الأبيات الشعرية أو الحكايات. فقد كان عبدو مجيدوفيتش – وهو مسلم من السنجق (السنجق اليوم في صربيا والجبل الأسود) يحفظ عن ظهر قلب عشرات الآلاف من الأبيات الشعرية، مع أنه كان أميا! وقد نشر مؤخرا كتابه: زواج اسماعيلاغيتش ميهو (Ženidba Ismailagić Meha).

وقد ظهر قصاصون متأثرون بالقصاصين والمسامرين العرب. ولهم نفس الدور وينتجون نفس الأعمال.

ويسود الاعتقاد في دوائرنا العلمية أن القصة العربية في الأدب البوسني والصربي والكرواتي في البلقان جاءت عن طريق (ألف ليلة وليلة) وكذلك عن طريق (كليلة ودمنة) لابن المقفع. وقد قرأنا نحن في البلقان قصص ألف ليلة وليلة قبل سنين

عديدة ولدينا اليوم عدد من الترجمات لألف ليلة وليلة باللغتين البوسنية والصربية. لكن أفضل ترجمة لألف ليلة وليلة هي ترجمة أسعد دوراكوفيتش، أستاذ اللغة العربية والأدب بكلية الفلسفة في سراييفو. وقد صدرت هذه الترجمة سنة ١٩٩٩م في سراييفو.

وترجم «كليلة ودمنة» إلى اللغة البوسنية بسيم كوركوت قبل أكثر من أربعين عاما. وهو من المختارات المقررة للقراءة في مدارسنا.

أما عن ألف ليلة وليلة، فيمكن القول بأنه كان لذلك العمل الأدبي تأثير كبير على أدبائنا في البلقان. وأود أن أشير هنا إلى جواد قره حسن الذي حصل مؤخرا على جائزة (هيردر The Herder Prize) الأوربية المرموقة عن روايته بعنوان خاتم شهريار (Šahrijarov prsten) ويستخدم جواد قره حسن الفكرة الرئيسية لألف ليلة وليلة ولكن بطريقة تُدخل عليها حوارا حضاريا بين الشرق والغرب. ومن مؤلفات جواد قره حسن أيضا رواية الديوان الشرقي (Istočni divan) وبطل هذه الرواية هو ابن المقفع.

ومن أكثر المقربين إلى قلوب الأدباء والفلاسفة في البلقان ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة). وقد ترجم توفيق مفتيتش هذا الكتاب قبل عشر سنوات.

و أعتقد أنني لن أكون مخطئا إذا قلت بأن البطل الأدبي العربي جحا شخصية جد معروفة في البلقان ولكن باسم نصر الدين خوجا. فقد اكتسبت شخصية جحا العربية عندنا، عن

طريق نصر الدين خوجا التركي، صفات بوسنية محلية أيضا. وقد نشرت عندنا الكثير من الحكايات المازحة وذات المغزى التربوي عن نصر الدين خوجا أو جحا. وقبل حوالي عشر سنوات نشر الأديب البوسني علي إسحاقوفيتش مجموعة قصصية عن نصر الدين خوجا.

وعن طريق الشعر العربي، والابتهالات والقصائد والحكايات، دخلت إلى اللغة البوسنية واللغة الصربية عشرات الأمثال العربية التي ترجمت ترجمة حرفية. وعلى سبيل المثال فان المثل القائل Vrijeme je novac هو ترجمة مباشرة للمثل العربي «المواقيت لا تشتري باليواقيت».

وأعتقد أنه كان بإمكاني وبإمكان من هم أفضل مني من الأخصائيين أن نضع كتبا بأكملها عن تأثير الأمثلة العربية على أدبنا في البوسنة وفي البلقان.

التاريخ والفلسفة

المؤلفات التاريخية العربية والمؤلفات في فلسفة التاريخ معروفة في البلقان ولكن لا يمكن مقارنة أي عمل منها بمقدمة ابن خلدون من حيث شعبيتها وانتشارها. وقد ترجم توفيق مفتيتش هذا الكتاب إلى اللغة البوسنية ويجري إعداد هذه الترجمة للطبع. على أن دانييل بوتشان ترجم أجزاء من مقدمة ابن خلدون إلى اللغة الكرواتية، كما ترجم حسن سوشيتش أجزاء منها إلى اللغة البوسنية في سراييفو.

وترجمت سيرة ابن هشام قبل سنتين ونشرت منذ وقت قريب في سراييفو. وقد قام بترجمتها مصطفى برلياتشا.

أما كتاب العبرة (أو الاعتبار) لأسامه بن منقذ الذي يتحدث عن الصليبيين وصلاح الدين الأيوبي فقد تُرجم في بلغراد قبل خمسة عشر عاما ونشر هناك.

وقد اتخذ الكثيرون من مؤرخينا منهج ابن خلدون في تفسير تاريخ العالم. فقد شرع البروفيسور حيلمو نيمارليا، بعد أن درس ابن خلدون، بدراسة الفيلسوف الألماني أوزوالد شبينغلر. ونشر البروفيسور نيمارليا دراسات عديدة عن ذلك باللغة البوسنية.

وأود أن أشير هنا بصفة خاصة إلى وجود إقبال خاص في البلقان على مؤلفات الغزالي وابن رشد والفارابي... من بين مؤلفات الأقدمين في الفلسفة. فقد نشر دانييل بوتشان مؤخرا ترجمة لكتاب «تهافت الفلاسفة» للغزالي و«تهافت التهافت» لابن رشد. وقد ظهر الكتابان في طباعة ممتازة. كذلك ترجم دانييل بوتشان «كتاب الحروف» للفارابي إضافة إلى «كتاب التنبيهات والإشارات» لابن سينا.

وقد ترجمت من اللغة العربية أعمال فلسفية كثيرة أخرى.

الأدب العربي المعاصر

كان شعر الأمير شكيب أرسلان رائجا في البوسنة وخاصة بين الحربين العالميتين. وقد نشرت الكثير من قصائد أرسلان، كما نشرت مناقشات حول العالم العربي والإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين.

وتماشيا مع العصر الحديث قدمت الكثير من الإنجازات في البلقان في ترجمة الأدباء العرب المعاصرين.

و طه حسين مشهور جدا في البوسنة. وقد ترجم نياز ديزداريفيتش كتابه «الأيام» إلى البوسنية. وقد صدرت الطبعة الثانية من هذه الترجمة سنة ٢٠٠٠م. و«الأيام» من الكتب المحبوبة لدى القراء في البوسنة والبلقان.

وتُرجمت أيضا أعمال لنجيب محفوظ إلى اللغة الصربية فور حصوله عَلى جائزة نوبل.

وأود أن أبرز هنا أيضا جبران خليل جبران. فقد ترجمت الكثير من كتبه ونشرت في زغرب. وفي سراييفو أيضا، وقد أعد البروفيسور أسعد دوراكوفيتش الكثير من أعمال جبران للترجمة والنشر. وأكثر كتبه رواجا في البلقان هو «النبي».

وهناك الكثيرون من البوشناقيين الذين أعدوا رسائل دكتوراه قيمة في الأدب العربي في الآونة الأخيرة. فقد أعد الدكتور أحمد اسماعيلوفيتش رسالة دكتوراه بعنوان «فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر» وقد دافع عن الرسالة في القاهرة سنة ١٩٧٤م. أما الدكتور يوسف راميتش فقد أعد رسالة دكتوراه بعنوان «أسرة المويلحي وأثرها في الأدب العربي الحديث» ودافع عنها في القاهرة سنة ١٩٧٥م.

وقد كتب الدكتور أسعد دوراكوفيتش أكبر عالم للأدب العربي في البوسنة والهرسك دراسة ممتازة عن أدب المهجر.

وفي الختام، إن صح أن أسمي هذا ختاما، أود أن أقول، إن

شعراءنا البوسنيين متأثرون بالشعر العربي لدرجة أنه بإمكان المرء أن يتعرف لدى الكثيرين منهم وفي كل خطوة، على الموروث الشعري العربي القديم. وهكذا يغنى هاجم حيدرفيتش لكل شيء في كتبه الشعرية السبعة، لكن موضوعه الرئيسي هو الماء.

لماذا الماء؟ لأن الماء ظاهر وخفي، وهو رمز مهم، يدل على الله الخالق العظيم!

ونحن في البلقان مدينون كثيرا للمؤثرات الثقافية العربية لأننا أُثْرِينَا بها إلى أبعد الحدود.

(ألقيت هذه المحاضرة في ٢ أكتوبر ٢٠٠٠م بالرياض في مركز الملك فهد للدراسات والأبحاث الإسلامية، ضمن مهرجان «الرياض عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٠»)

كلمة أخيرة عن البلقان

من المعروف أنه منذ ما يقرب من قرنين كان مفهوم البلقان في أوربا كثيرا ما يؤخذ مقرونا بالسلبيات. وقد باتت عبارات «المذبحة البلقانية» و«الحانة البلقانية» و«برميل البارود البلقاني»... الخ مألوفةً منذ زمن بعيد في العلوم الاجتماعية الأوربية. وقد أطلق تلك العبارات في الغالب ذلك الفريق من المؤرخين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين الذين لم يكونوا يحبون البلقان، دع عنك مسلمي البلقان.

ومثل أولئك المؤرخين بآرائهم التقليدية عن البلقان هم الذين كانوا ينشرون في أوربا أفكارا عن البلقان كانت نتيجتها أنهم كانوا على مدى تاريخ قارتنا يشيرون بالإصبع لهذه المنطقة كساحة حافلة بتاريخ دموي.

وما أكثر الأوربيين الذين أكدوا أن كل شبر من البلقان يفيض بأحداث بالتاريخ. زد على ذلك أن الكثيرين يميلون إلى القول أن البلقان يطفح بالتواريخ المتوازية التي تنفي بعضها بعضا.

ومما يثير الاهتمام أن هذه الأقوال والتي تسمى مجازا بالنظريات عن البلقان تعود إلى الحياة من جديد في أزمنة فظائع الحرب، بل أحيانا كوسيلة صريحة للإعداد المباشر والتحريض على تلك الفظائع. وحتى إبان الحرب البشعة الأخيرة في البوسنة

والهرسك وكوسوفو من سنة ١٩٩٢-١٩٩٩م كان هنالك أساتذة أوربيون كتبوا الكثير من التحليلات والكتب من مسافة مريحة وقالوا إن هنالك بلقانا هو بطبعه - أي منذ القدم - «مذبحة» و«حانة مليئة بالدخان» و«برميل بارود». وهكذا وقفوا مجددا إلى جانب القوالب التي تعود إلى القرون الماضية وزادوا عليها.

وليس ذلك فحسب، بل اخترع أبان الحرب البشعة والبوسنة والهرسك تتعرض للدمار والموت، قالب آخر فحواه أن هناك في منطقة جبلية اسمها البلقان يبدأ لتوه «صراع الحضارات»!!! العالمي. وما اكثر وسائل الإعلام الغربية التي أتت أبان العدوان على البوسنة والهرسك الى تلك «البوسنة العجيبة الجذابة» بهدف نقل «صراع الحضارات» عبر الأقمار الصناعية وكأنه عرض تلفزيوني عادي جدا.

وبودي هنا أن أعيد إلى الأذهان أن تلك الصورة العقلية التقليدية التي تسمى «صراع الحضارات» قدمت مصحوبة بزعيق إعلامي منذ سنة ١٩٩٣م في الفترة التي كانت تشهد فيها البوسنة بشاعة الدمار والإبادة على أوسع نطاق.

وكما دشنوا «نظرية الصراع الطبقي» خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين باعتبارها مسيرة عجلة التاريخ التي لا يمكن إيقافها والتي يجب أن تتخذ مسارها الى الجنة الشيوعية على الأرض، على النحو المعروف الذي اتخذته، دشنت الدوائر التي تبغض الإسلام «نظرية صراع الحضارات» عشية الألفية الثالثة وكأنها حقيقة لا جدال فيها وبديهية من البديهيات.

لكن ذلك ليس أخطر الأشياء. بل الأفظع في كل ذلك هو ترقية «نظرية صراع الحضارات» في الكتب ووسائل الإعلام المستلهمة من هنتنغتون Huntington كمصير موضوعي ووحش أسطوري وكارثة حلت، لا يدري أحد من أين، على البلقان والقوقاز وكشمير... الخ. والكثير من المؤلفات التي نشرت مؤخرا حول نهاية القرن تغالي في حكاية حتمية «صراع الحضارات» كعملية لا يمكنك إيقافها، تماما كما لا يمكنك أن تحول دون القدر نفسه.

مثل هذا الاستنتاج الخاطئ يفضي إلى أنه لم يكن من الممكن إنقاذ البوسنة؛ وتفضي في الواقع إلى أن البوسنة كان مكتوبا عليها الدمار لأنها، على حد زعمهم، وجدت في الطريق الذي كانت تخطه يد القدر والذي أطلقوا عليه الآن اسم «صراع الحضارات».

ثم ظهرت الأقلام التي أرادت أن تبرهن على أن حضارات بعينها لها حقوق أكبر في أوربا بينما حضارات أخرى لها حقوق أقل وأن بعض الحضارات «محلية» وبعضها الآخر «جاءت» و«استوردت».

ولا داعي هنا للتوكيد بصفة خاصة على القصد من هذه التفسيرات.

بل إن الكثير من وسائل إعلام المسلمين في العالم وقعت في المصيدة التي تسمى «صراع الحضارات». فقد تعذر على الصحفيين المسلمين أن يوضحوا لأنفسهم أن هدم عدة مئات من الجوامع في البوسنة والهرسك له أي تفسير عقلاني سوى أنه نتيجة «صراع الحضارات» العالمي.

ويجب على المفكرين المسلمين في العالم أن يفضحوا وهم النظريات حول البلقان والتي تتحدث عن هذه المنطقة وكأنها أسيرة قوالب محددة مثل «برميل البارود» و«الحانة المليئة بالدخان» و«ساحة صراع الحضارات». ومن الخطورة بمكان أن نصدق تلك النظريات.

فالبلقان والبوسنة فيه بصفة خاصة، عرف فترات طويلة من السلم والحياة المتسامحة للكثير من الأديان والكثير من الشعوب. وقد مضت خمسة قرون ومدن البوسنة تتميز بالجوامع والكنائس والمعابد اليهودية التي تقف على مقربة من بعضها البعض. وبقدر ما كانت الكنائس والجوامع والمعابد اليهودية مشيدة قريبة من بعضها البعض في سراييفو ومدن البوسنة الاخرى كان المسيحيون والمسلمون واليهود يعيشون معا منذ قرون. نحن في البوسنة لسنا بحاجة لأي حكاوي عن التسامح. فقد عرفت البوسنة كيف تعيش في ظل ذلك التسامح في واقع الحياة.

٢

إنني أرى أن القصد الحقيقي من الحكاية التي تتناقلها وسائل الإعلام حول البوسنة والبلقان «كبرميل بارود» أو «كساحة لصراع الحضارات» ليس ظاهرا على السطح؛ بينما الهدف الرئيسي لتلك الحكاية هو العفو بطريق غير مباشر عن المسؤولية الشخصية لجرائم الإبادة التي ارتكبت في البوسنة والهرسك ضد المسلمين. ومثيرو وأبطال فكرة القالب الواحد المتكرر للبوسنة والبلقان، إنما يريدون أن يثبتوا أن المذنبين في البلقان ليسوا أشخاصا مثل

ميلوشيفيتش وكاراجيتش وملاديتش وتوجمان. ونصراء هذه الموقف التقليدي إنما يصفحون بذلك عن ميلوشيفيتش وشركائه في الجرم، بينما يلقون باللائمة على «صراع الحضارات» المجرد، هكذا ببساطة، ويضيفون إليه «الكراهية التي تسود فيما بين شعوب البلقان منذ عدة قرون.

لقد أريد بذلك إبلاغ الشرطة وقوات الناتو في البوسنة أن تعتقل وتسوق إلى محكمة لاهاي «صراع الحضارات» وليس ميلوشيفيتش.

ولحسن الحظ، بلغ جيل جديد من المؤرخين والخبراء في الشؤون العامة في الغرب سن الرشد، مثل نويل مالكولم Noel Malcolm وفيليب ج كوهين Philip J. Cohen ونورمان سيغار Norman Cigar وسابا رسال الدين Saba Risaludin ومارتن بيل Martin Bell وتون برينغا Tone Bringa ومايكل أ. سيلز Michael A. Sells وغيرهم. فقد بين هؤلاء في أبحاثهم وتفسيراتهم للأحداث في البلقان النوايا الحقيقية لحكاية «صراع الحضارات» أو حكاية البلقان كساحة «لكراهية تعود لقرون عدة» بين الشعوب.

ولم يتوصل مالكولم وكوهين وسيغار ورسال الدين وبيل وبرينغا وسيلز في أبحاثهم إلى شبح اسمه «كراهية عدة قرون في البلقان»، بل بدلا من ذلك بينوا أن في الأمر مشروع ميلوشيفيتش «صربيا الكبرى» الذي لم يخلق من أجل «رسالة حضارية» ولا في سبيل «واجب مقدس» للدفاع عن أوربا ضد الإسلام، بل تم تخطيطه بهدوء للاستيلاء على الأراضي وللزحف على المدن والقرى بغية

النهب والتطهير العرقي ضد جميع من يعترضون على «صربيا الكبرى».

وبودي أن أذكر بأن جيوش ميلوشيفيتش لم تهدم مئات الجوامع فحسب، بل هدمت عشرات الكنائس أيضا. وهاجمت جيوش ميلوشيفيتش الكروات أيضا، وهم كاثوليك. وترقب جيوشه المجريين على الدوام رغم أنهم أيضا كاثوليك. وتحتضن جيوش ميلوشيفيتش الجبل الأسود نفسها لمراقبة ذلك الفريق من أبناء الجبل الأسود الذين يؤيدون استقلال الجبل الأسود، مع أنهم من أبناء الجبل الأسود وغنى عن القول أنهم ينتمون للديانة الارثودكسية.

والغزو والنهب والقتل والسلب والتطهير العرقي وغيرها من سمات صربيا الكبرى هي الممارسة الحقيقية لنظام ميلوشيفيتش وهي هدفه الحقيقي. وستستخدم الآلة الدعائية لميلوشيفيتش وهي تحقق ذلك الهدف كل من لديها من الأكاديميين والمستشرقين والصحفيين وأساتذة المدارس، في المستقبل أيضا، وستستخدم كل من بإمكانهم التفكير في نظرية معادية للمسلمين. وبالطبع سيستخدمون كل النظريات المعادية للمسلمين في العالم شريطة أن يكون بوسعه استخدامها كذريعة لتحقيق المشروع.

٣

ويعيش مسلمو البلقان بعد تدخل حلف الناتو سنة ١٩٩٥ وسنة ١٩٩٩ على مفترق الطرق بين البلقان وأوربا. ولا شك أن الدمار امتد الى الكثير من أجزاء البوسنة التقليدية، كما لحق الدمار بالكثير من أجزاء البلقان.

ومهما استبد بنا الحنين الى البوسنة التي كانت قبل الحرب، فإنها لن تعود. ويقول شاعر عربي أنه يستحيل استعادة الماضي تماما كما يستحيل إعادة الحليب إلى الضرع بعد حلبه.

إننا نشهد اليوم أن الدول الغربية تريد أن تنفذ في البوسنة وفي البلقان خطة «أوربة البلقان»! وذلك، كما يقول محللوهم، برنامج وقائي. فإذا كنا لا نرغب في «بلقنة أوربا، لا بد لنا من أوربة البلقان»!

لكن الغرب تأخر في التدخل في البلقان وخاصة في البوسنة. وكان تأخير الغرب هذا يفسر هنا وهناك في العالم بأنه إثبات لنظرية «صراع الحضارات». ومن الناحية الأخرى، لم تكن نادرة تلك الأصوات القائلة بأن الغرب بتأخره في التدخل في البوسنة اثبت بالفعل قبوله بأن ينجز الصرب العمل لحسابه!

ومهما يكن من أمر فإن قدوم حلف الناتو إلى البوسنة وكوسوفو أمن للمسلمين بقاءهم البيولوجي وأتى بوضع يمكنني أن أسميه «غياب الحرب». وتجري في البوسنة عملية إعادة البناء وإن كانت بطيئة وعودة اللاجئين وإن كانت بنسب ضئيلة.

ويجري في البوسنة والبلقان تنفيذ مشاريع «أوربة البلقان». ومن المعروف أنه لذلك الغرض خلقت «معاهدة الاستقرار في جنوب شرق أوربا»، كهيئة عمل.

وهناك الكثير من التفسيرات لمعنى عملية «أوربة البلقان». وأكثرها ورودا في هذا الصدد هو أنها عملية ستعزز وتفرض أوربا من خلالها على البلقان حكم القانون واحترام حقوق الإنسان.

ومع ذلك لا زلنا نفتقر إلى بيانات ملموسة حول ما إذا كانت معاهدة الاستقرار في البلقان ستفلح في علاج صربيا الصرب الذين أيدوا ميلوشيفيتش من الفاشية. وبصفة خاصة لا نعرف ما إذا كانت صربيا ستعالج بالطريقة التي عولجت بها ألمانيا، بفضل أموال ومشاريع الغرب.

إن ميلوشيفيتش لا زال يحكم. ولا توجد وسط الصرب في البلقان شخصية يمكن أن تأخذ على عاتقها دور تصفية الفاشية كما كان دور اديناور في ألمانيا بعد سقوط النازية.

لكن ليس حكم ميلوشيفيتش ومعه الجيش والشرطة، هو العقبة الوحيدة الكبرى أمام أوربا و«معاهدة الاستقرار» في الطريق نحو «أوربة البلقان».

إن ما يقف أمام «معاهدة الاستقرار» كأكبر عقبة هو مناخ «الخطر الإسلامي» الذي أنتجته العديد من المؤسسات ووسائل الإعلام والكتب المدرسية الصربية على نطاق واسع.

فلا زال يعم ذلك الجزء من البلقان فيض حقيقي من الكتابات المعادية للمسلمين التي تكتب بنفس الطريقة وحسب نفس الفكرة التي كانت تكتب بها المقالات المعادية لليهود في ألمانيا في الفترة من ١٩٢٩ - ١٩٤٠م.

والدوائر الأكاديمية الصربية التي تؤيد ميلوشيفيتش تنشر القول بإرهاب الاسلام في البلقان. وكل ما يظهر في الغرب بفحوى معاد للاسلام، يترجم الى اللغة الصربية. وبذلك الهدف ترجم مؤخرا إلى اللغة الصربية كتاب «التهديد الاسلامي» (Islamic Threat) من تأليف جون اسبوزيتو John Esposito.

ويكتب ويقول عن الاسلام والمسلمين كل تلك الأشياء التي يطيب الاستماع إليها في تلك الدوائر الأوربية التي قبلت بالقوالب الجامدة عن الاسلام والمسلمين وعن البلقان.

ويمكن القول بالتأكيد إن الطرق التي تكتب بها المقالات الصحفية والتقارير عن الإسلام في العالم (التي تناولها بشكل تحليلي وموثق ادوار د سعيد في كتابه «تغطية الاسلام» (Covering Islam)، هي الطرق المتبعة اليوم في صحف البلقان وخاصة في صحف نظام بلغراد.

ومنذ زمن بعيد تعرض صحافة نظام بلغراد بصورة شوهاء تلك القرون من الحياة في ظل السلم والازدهار والتعاون القائم على حسن الجوار بين العديد من شعوب البلقان وكأنها عصور الظلام والعبودية للأتراك والعبودية تحت الإمبراطورية النمساوية الهنغارية وعصور الكراهية العرقية التي امتدت لقرون!!!

فهذه الوسائل الإعلامية تظهر البوشناق والألبانيين كأنهم مخفر أمامي (للمحيط الإسلامي) الذي ينتظر بفارغ الصبر ليبتلع أوربا. والبوشنياق والألبانيون هم موضوع الحملة الصحفية التي يمكن أن أسميها «التصنيف الحضاري». فهم ينعتون «بمكر الشرقيين» و تنسب إليهم المؤامرة المحسوبة ضد أوربا «عن طريق النسبة العالية للتناسل»... الخ. ويوصف الإسلام «بالدين الغريب» و«الدخيل» و«الدين الآسيوي».

وصحافة النظام والنظام التعليمي عموما في صربيا اليوم لا يعطيان الفرصة لرأي مخالف. والصرب الذين يقولون بأن الإسلام والمسيحية كلاهما جاءا أصلا من آسيا وأن الإسلام والمسيحية،

بحكم طبيعة الحالة نفسها، لهما حقوق متساوية في أوربا، تسكت أصواتهم ويعتبرون متحولين فكريا إلى الإسلام.

و تكتظ الصحافة، مستخدمة الأطر المقولبة عن الصفة المسيحية المزعومة للحضارة الغربية، بالصيحات الموجهة للبوشنياق والألبانيين: «اذهبوا إلى آسيا».

ولهذا الشعور المعادي للإسلام آثاره العملية العديدة في البوسنة ما بعد دايتون، وخاصة في تنفيذ قوانين الملكية. فلا زال الحصول على التصاديق متعذرا لإعادة بناء الكثير من الجوامع التي هدمت سنة ١٩٩٢ وبعدها. و كثيرا ما تأتي من جانب السلطات الصربية ادعاءات سخيفة بأن أراضي الأوقاف التي بنيت عليها الجوامع، إنما انتزعت من الصرب قبل خمسمائة سنة!

ويطبق التمييز العرقي على نطاق واسع في النظام التعليمي للبوسنة والهرسك. فالبرامج الدراسية الصربية والكرواتية تشتمل على القليل جدا أو لا تشتمل إطلاقا على العناصر البوسنية - الهرسكية المشتركة في الأدب والتاريخ.

وقد وضعت «أوربة البلقان» نصب عينيها مهمة إقامة نظام تعليمي مشترك في البوسنة والهرسك.

٤

قلنا قبل قليل أن في البوسنة وفي البلقان حاليا «غياب الحرب». ومعروف أن غياب الحرب ذلك ناتج عن قدوم حلف الناتو. فقد وضع الناتو حدا لمأساتنا نحن المسلمين؛ لكن مسبباتها

وآلياتها وفاعليها وبصفة خاصة مردوداتها وآثارها لم تمح. وبالطبع، لا يستطيع الناتو إحياء الموتى والمذبوحين، ولكن باستطاعته، بعمله الحازم أن يعيد المشردين واللاجئين.

وقد تم ذلك في كوسوفو؛ أما في البوسنة فإن نسبة ضئيلة من المشردين واللاجئين عادوا إلى ديارهم.

والاقتصاد متعطل أو ذو أداء ضعيف؛ ومن ثم نشهد الموجة الكبيرة من هجرة الشباب إلى دول الغرب. ويمكن أن نشاهد في سراييفو كل يوم تقريبا أمام سفارات الدول الغربية صفوفا طويلة من الشباب الذين يطلبون تأشيرات الدخول.

وقد وصل البوشنياق من جراء الحالة العسيرة للدولة والاقتصاد والمؤسسات الثقافية إلى حافة البقاء!

وهكذا نصل إلى صورة مظلمة جدا لمستقبل المسلمين في البلقان. فمسلمو البلقان يعيشون اليوم بين واقع البلقان وما يعلقون من آمال على أوربا.

لكن مسلمي البوسنة ذاقوا طعم أوربا كلاجئين، لا كشركاء عمل.

ويبقى أن نرى ما إذا كنا سنستطيع دخول أوربا كرجال أعمال مسلمين بوسنيين، عن طريق برنامج «أوربة البلقان».

في مكتبات ومحلات بيع الكتب في المملكة العربية السعودية

لم أعرف المملكة العربية السعودية جيدا، وذلك أنني زرت هذه المملكة من قبل زيارتين قصيرتين بروتوكوليتين. والواقع أن إقامتي من قبل في الرياض ومكـة وجدة كانت مجرد إقامات عابرة، تركت لدي، من جراء السرعة، انطباعات مهزوزة.

أما هذه السنة فقد كان شهر أكتوبر بأكمله أول فرصة لي لأرى وأسمع نبض هذه الإمبراطورية عن كثب، إبان إقامتي في مركز الملك فيصل للأبحاث والدراسات الإسلامية في الرياض.

وكان أول أحاسيسي وأنا أسافر في أرجاء المملكة العربية السعودية هو الانطباع بأن هنا بلدا واسع الأرجاء، يمتد بلا حدود. وقد تعودنا ونحن ننظر الى شبه الجزيرة العربية وموقعها في الخرائط الجغرافية محصورة بين أفريقيا الكبيرة وآسيا الأكبر منها، على أن نتصور هذا البلد، على ضخامة مساحته، بأنه بلد صغير. والواقع أن المملكة العربية السعودية وحدها تمتد على مساحة مليونين ومائة وخمسين ألف كيلومتر مربع! أما شبه الجزيرة العربية ككل فهي تساوي ثلث مساحة أوروبا.

وفي عاصمتها الرياض تستقبلك السعة والضخامة والجمال في كل مكان. ويتولد لديك إحساس بالخفـة والحيوية يدغدغك

من كل جانب وأنت تمشي في شوارع الرياض الواسعة أيام الخريف وقد باتت أشعة الشمس أقل سعة ويكون الهواء لطيفا.

ولكن إذا كان الجمال والسعة والضخامة تستقبلك حيثما كنت في الرياض فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلي الهدوء. ففي شوارع الرياض الواسعة الممتدة على مدى البصر تسير مئات الألوف من السيارات وفي الغالب أفخرها؛ ويمكن القول أنك ترى أنهارا من السيارات الفخمة التي يسرع فيها عالم التجارة والمال في أعماله اليومية.

وفي سماء الرياض ترى كل يوم مئات الطائرات المدنية تقلع أو تهبط، فتلاحظ في الأجواء أيضا سرعة في الحركة.

ولا تعلو ثرثرة الآلات على الأرض أو في سماء الرياض الا أصوات الأذان، تدوي من مئات الجوامع البيضاء. وإن صحت مقارنة جوامع الرياض بالصيدليات، لقارنتها. فجوامع الرياض عموما في منتهى النظافة وتفوح منها رائحة البخور. وهم يحافظون على الحصائر والبسط التي يضع عليها المصلون جباههم في الصلوات الخمس كل يوم، نظيفة، حيث تعمل على ذلك فرق خاصة من الناس مستخدمين المكانس الآلية القوية. وجوامع الرياض مزودة أيضا بأجهزة التكييف الصامتة. ويدخل مئات الألوف من المتعبدين لله دور العبادة هذه لا للاستجمام الروحي فحسب، بل أيضا للاستجمام والانتعاش الجسدي.

وما أكثر ما يمكن أن يكتب عن الرياض من الأشياء الجميلة، مثلا عن الشوارع الواسعة والمحلات التجارية الضخمة. والواقع أنها ليست مجرد محلات، بل هي مبان بحجم الأحياء تعجز العين

عن استيعابها بنظرة واحدة، وكأنما هي مدن في مدن. وفي تلك المباني نجد ما نسميه بالمحلات التجارية. على أن المحلات التجارية السعودية تصل إلى سعة أضعاف محلاتنا التجارية في البوسنة والهرسك. وفيها يسرع الناس، بل يهرولون. فقد التقى هناك الشرق والغرب عن طريق التجارة. والرياض تعرض السلع المحلية (تهامة مثلا) والغربية. وتجد هناك مئات الدكاكين التي تبيع السلع الفاخرة مثل منتجات فرساتشي وهوغو بوص وكريستيان ديور وتشيروتي...

أما الأماكن التي وجدت فيها مسرة وراحة بمعنى الكلمة، فهي المكتبات الضخمة ومحلات بيع الكتب في مدينة الرياض.

وفي مكتبات الرياض تلاحظ أن المملكة العربية السعودية تعيش بإيقاع أسرع مما كان في الماضي.

والواقع انك حين تجد نفسك في مكتبة جرير في شارع العلية الضخم أو في أية مكتبة أخرى مثل مكتبة الشقران أو العبيكان أو تهامة، تشعر كأنه جلب إليها كل كتب العالم. وبلغة الأرقام تجد نفسك بين ملايين الكتب المصنفة بعناية حسب ما تتناوله من ضروب المعرفة - الأدب، الفقه، العلوم الطبية، المعاجم، علم المعلوماتية والكومبيوتر التي لا بد منها.

ولو لا خوفي من الاستخفاف من قيمة الكتب، لقلت إنني رأيت في مكتبة جرير لبيع الكتب وغيرها من مثل هذه المحلات والمكتبات في الرياض على شاكلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مئات بل آلاف الأطنان من الكتب.

وهناك تأملت في العراقة المدهشة للغة. إن العرب يفخرون بأبدية لغتهم ويتباهون بذلك، إن جاز التعبير. وفي مكتبة

جرير هذه (سلسلة مكتبات جرير موجودة، الى جانب الرياض، في مدن الخبر وجدة والدمام... أيضا التي زرتها جميعا)، في هذه المكتبة تجد الكتب باللغة العربية مصنفة حسب القرون، إن صح التعبير. فهناك الشعر الجاهلي في رفوف خاصة وهناك تتصفح كتب الشعر العربي ودواوين الشعر من القرن الثاني والثالث والرابع والخامس الميلادي. عند تلك المجلدات الفاخرة من الشعر العربي الجاهلي الراقي تجد نفسك أمام الشاعر عنترة وكتاب المعلقات السبع أو العشر، التي كان العرب يكرمونها بتعليقها على جدران الكعبة.

ثم تأتي في هذه المكتبات الضخمة الى القرون الإسلامية الي تمتد لخمسة عشر قرنا. وبالطبع تجد أولا أمامك القرآن بمختلف الطبعات، من طبعة الجيب المكتوبة بماء الذهب الى الأقراص المدمجة. وعلى الرفوف أيضا ترجمات القرآن، ثم التفسير مصنفا حسب القرون.

وفكرت في ذاك المثل القائل بأن عليك أن تعيش مائتي عام لكي تتمكن من قراءة تلك التفسيرات الضخمة للقرآن باللغة العربية القديمة. ولكن لا يمكن أن يمتد العمر بالإنسان كل تلك السنين.

كذلك تجد أصنافا من كتب الحديث والفقه مرصوفة في أقسامها إلى جانب القرآن الكريم وتفاسيره. ثم هناك أقسام الكتب التاريخية (تاريخ بغداد، تاريخ دمشق، تاريخ القاهرة... وهي قليل من كثير. ومقدمة ابن خلدون معروضة بمختلف الطبعات ومن بينها طبعة فاخرة مخطوطة على الطريقة التي يتبعها (في البوسنة والهرسك) السيدان زعيموفيتش وأكشاميا في إعداد الكتب.

وهناك أقسام أو أجنحة بأكملها من الانسيكلوبيديات (دوائر المعارف) العربيــة والإنجليزية والفرنسية... الخ، الملأي بدرجة تذهل العقل، لا بأسعار ها فحسب، بل أيضا بصفحاتها ومجلداتها. وآخر موسوعة تحمل اسم الموسوعة العربية العالمية المكونة من عدد من الكراسات على طول متر بأكمله؛ وهي آخر ما أنتج الناشرون العرب.

ثم تأتي القواميس، العربية - الإنجليزية، الإنجليزية - العربية، العربية - الفرنسية، الفرنسية - العربية... وهكذا - قواميس عربية - أسبانية، روسية، ألمانية، إيطالية، صينية... وبالعكس. ثم هناك رفوف من القواميس المتخصصة، العربية - الإنجليزية وبالعكس، والطب والفيزياء والكيمياء والأحياء والفسيولوجيا وعلم النبات وعلم الضبط (Cybernetics) والمعلوماتية.

والناشرون يسيرون قدما بخطوات كبيرة أيضا في مجال ترجمة ما نسميه بالأدب الجميل والأعمال الفلسفية الكلاسيكية. فقد شاهدت أعمال تولستوي الأدبية مترجمة للغة العربية مثل الحرب والسلم والبؤ ساء لفيكتور ايغو... الخ. وأعمال دوستويفسكي أيضا مترجمة، مثل روايته «الجريمة والعقاب»... الخ. وثمن الأعمال الكاملة لأفلاطون يزيد قليلا عن خمسمائة ريال (حوالي مائتين وخمسين مارك ألماني)؛ لكن الناشرين العرب لأعمال أفلاطون هذه انزلوا الفيلسوف اليوناني بهذه الطبعات أرفع منزلة.

وهناك أقسام بآلاف الأمتار المربعة مخصصة للكومبيوترات

(الحواسيب) والتقنية التابعة لها والدلائل المعلوماتية وأدبياتها. وكل شيء مترجم للغة العربية، كل البرامج - Word, Windows... الخ. وتجد كل ما هو مهم في الأقراص المدمجة العربية من معاجم الطب وعلم الأحياء والفلسفة الى تفسير القرآن الكريم ودوائر المعارف والقواميس.

ومما يسر المرء، ان الناشرين العرب فعلوا الكثير في تقنية الوسائل البصرية والسمعية لتعلم ونشر اللغة العربية. وكل ما شاهدته في مكتبة مارك آند سبنسر في اكسفورد بالنسبة لتعلم ونشر اللغة الإنجليزية شاهدته في الرياض بالنسبة لتعلم ونشر اللغة العربية.

ونجد في أشرطة المسجلات والأقراص المدمجة وما شابهها من الوسائل، الحكايات العربية الكلاسيكية، مثل كليلة ودمنة ومختارات من ألف ليلة وليلة، كما نجد الكثير من الترجمات والتسجيلات العربية في أشرطة الكاسيت لأساطير لافونتين الخيالية على لسان الحيوان والطير وكذلك الحكايات الروسية... الخ. ويقرأ أشهر الممثلين والممثلات العرب هذه النصوص باللغة العربية الفصيحة الصحيحة.

وتبيع المكتبات في السعودية بشكل طبيعي جدا الكتاب الإنجليزي والفرنسي والألماني... في مجال العلوم والأدب والفن والرياضة والطهي والبساتين والموسيقا. وقد لاحظت أقساما خاصة للكتب المتنوعة عن الخيل، بل أكثر من كتاب عن الإبل، كما لاحظت أنواعا من الكتب عن رياضة الخيل.

وللأدب الإنجليزي وجود خاص. فقد رأيت عدة طبعات للأعمال الكاملة لشكسبير وسلسلة غنية من كتب بينغوين ومئات من الكتب الإنجليزية والأمريكيـــة والإسترالية التي وجدت أكبر الرواج في مختلف الفترات.

وبالطبع هناك أكداس من كتب تعلم اللغة الإنجليزية على الرفوف وكذلك الكتب الإسلامية باللغة الإنجليزية.

وفي المكتبات السعودية أقسام خاصة للصحف، حيث يمكن فيها شراء عشرات الصحف اليومية ومئات الصحف الأسبوعية باللغة العربية والإنجليزية والألمانية والفرنسية...

ومن الصعب أن نقيس بالمعايير الصحيحة لمكتباتنا ضخامة وثراء المكتبات ومحلات بيع الكتب السعودية، إضافة لفخامتها المعقولة. وتترك المكتبات السعودية لديك انطباعا بأنك في معرض فرانكفورت وأنت ترى آلاف الزوار من الرجال والنساء. ولاحظت النساء السعوديات والأمريكيات والباكستانيات والإنجليزيات في المكتبات، وفي الغالب وقد أنزلن خمرهن قليلا حيث تظهر وجوههن وأحيانا بعض الضفائر. ولا يتوقف شراء الكتب ليلا أو نهارا مع الصحف وأفلام الفيديو.

وحين يأتي وقت الصلاة سواء كنت في مكتبة أو محل تجارى آخر، سيرجو منك المذيع بصوت لطيف مهذب باللغة العربية والإنجليزية أن تتوجه نحو مكان الدفع لأنه في فترة حوالي عشرين دقيقة هناك وقت للاستراحة للصلاة لله. أما بالنسبة لمن لا يرغبون في الخروج فهناك مكان للجلوس أو إذا كانوا مسلمين ان يصلوا في المساجد الداخلية المقامة على البديهة.

لقد شاهد كاتب هذه السطور المملكة العربية السعودية كبلد ذي تقدم هائـــل ومعقول. فقد شاهد مسلمين متعلمين، عاملين، أثرياء... وفي كل مكان ترى أنه بدأت تظهر طبقة وسطى مستعدة لقبول حوار مشرف مع الغرب.

تفسير القرآن الكريم ومصير العالم الإسلامي

في نهاية القرن التاسع عشر كتب محمد عبده مبدأ مهما في التفسير المعاصر للقرآن الكريم، والذي تحول فيما بعد إلى هتاف ينادي به الكثيرون من أتباعه: «إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه، وإنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا إلى الصراط المستقيم!».[1] وبما أن هدف هذا الموضوع ليس ذلك الموجود في عقول الإصلاحيين أو المحدثين في مجريات التفكير الإسلامي المعاصر، فإننا سنعالج بأسلوبنا الخاص فكرة محمد عبده هذه، وسنبحث في ضوئها مسائل العلاقة بين تفسير القرآن الكريم والمصير الحالي للعالم الإسلامي.

لقد نطق محمد عبده بهذه العبارة في زمن كان يسوده إدراك مؤلم بأن تفاسير القرآن الكريم التي كتبها المسلمون في القرون الميلادية السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، لا تواكب أو تهتم بمصير العالم الإسلامي، ولا تتعامل مع المصير الدنيوي الراهن للعالم

١) تفسير المنار، ١، القاهرة، ١٣٤٦هـ، ص: ٢٦. (وردت هذه الجملة حسب تعليقات تلميذ محمد عبده وتابعه الأمين رشيد رضا، الذي كتبها هي ومقدمة المنار بأكملها من ذاكرته).

الإسلامي. بل ظهرت هنا وهناك بعض الآراء القوية، التي تقول بأن المسلمين في تلك القرون ليسوا بحاجة إلى تفاسير جديدة للقرآن الكريم. ولقد تعرض محمد عبده نفسه إلى مضايقات بعد نشره للأجزاء الأولى من تفسيره «المنار»[٢]، فكم كان مؤلما مجرد الإدراك بأنه قد أتى وقت يعتبر فيه معظم علماء المسلمين أنهم لا يحتاجون لتفسير جديد للقرآن الكريم! إن هذه الحقيقة تشير، على أقل تقدير، إلى عدد من الأشياء التي لا خلاف حولها:

– حدوث تغير كبير في المزاج الروحي لإحساس المسلمين بالزمن: إن عدم وجود الرغبة والحافز لكتابة «تفاسير جديدة للقرآن الكريم» إنما يدل على بؤس العالم الإسلامي وضعفه في القرون الأخيرة؛

– لم تشهد الحضارة والثقافة الإسلامية في القرون العشرة الأولى ظهور «تفاسير جديدة للقرآن الكريم» وحسب، بل عرفت أيضا دراسة مستديمة للعالم و«تفسيرا له». وبرز بوضوح «القرآن التدويني» و«القرآن التكويني»، لأن كتابة تفسير جيد للقرآن الكريم، ممكنة فقط في عصر يحيط فيه الإسلام المقتدر بالعالم كله.

– و كذلك، فإن عصر الثقافة الإسلامية الذي غاص في الأعماق القرآنية ومجالاته العريضة، هو وحده الذي استطاع تأمين السيادة لمسلمي العالم، وقدم التفسير الإسلامي للعالم!

٢) يقول محمد عبده: «ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر لا حاجة إلى التفسير والنظر في القرآن لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنّة واستنبطوا الأحكام منهما، فما علينا إلا أن ننظر في كتبهم!».

٢

لا شك في أن المزاج الروحي عند المفسرين المسلمين في التفاسير الكبيرة الأولى للقرآن الكريم كان مطبوعا بأخذ قوي من عموم القرآن الكريم. فالقرآن يمثل نبعا للإلهامات الدينية والسياسية والاقتصادية والقانونية والصوفية... وتطل علينا من تفاسير القرآن الكريم في تلك العصور قوة عظيمة، والأهم من ذلك أنها كانت قوة متعددة الجوانب والمعارف. وتخبرنا تلك القوة عن انبهار المسلمين بالقرآن الكريم وبالكون على حد سواء: فجبال الهندوكوش مثلا، كانت تفهم تماما كفهم سور القرآن الكريم دينيا وسياسيا وصوفيا... وكانت مساحة الحكم الإسلامي متناسبة مع حجم وشمولية تفسير القرآن الكريم، وكان يطبق مبدأ التفسير الموازي لكل من القرآن الكريم والكون،[٣] لأنهما وبكل بساطة كلام الله وينبعان من مصدر واحد. وباختصار، إن القرآن والكون آيتان ربانيتان أو مجموعة لا متناهية من الآيات الربانية الموجودة في آفاقه العديدة.

إنه لا يمكنك أن تكون «قويا إسلاميا» في هذا العالم، دون أن يكون لك دوما تفسير للقرآن «جديد، ولكنه في حقيقته تقليدي عميق» وقائم على التراث الإسلامي، أي أن الكون والقرآن يجريان ويصلان إلينا كنبع دافق لأحد الأنهار، أو كأمواج بحر قوية - وهذه المياه والأمواج «هي نفسها، ولكنها تطل علينا بأشكال

٣) كان العلماء المسلمون الكلاسيكيون كثيرا ما يرددون عبارة: «القرآن كون ناطق والكون قرآن صامت»، فينبغي في نفس الوقت الإصغاء إلى قول القرآن وصمت الكون، وتفسير كليهما في الوقت نفسه وبشكل متكامل.

مختلفة». كذلك، وفي جميع العصور، لا بد لنا من تفسير جديد للقرآن الكريم والعالم، يقوم على الطرق التقليدية.

لا بد لنا أن نتذكر هنا، ولو باختصار، بأن المسلمين كان لديهم أكبر تصوف، عندما كانوا في أوج قوتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية! فالتفاسير الصوفية للقرآن الكريم، كتفسير ابن عربي مثلا، تعبر عن قوة الوجود الإسلامي في العالم آنذاك، كما تعبر عنها التفاسير القانونية كتفسير القرطبي. كما أن التفاسير اللغوية للقرآن الكريم كتفسير الزمخشري، تقدم لنا القرآن الكريم ككتاب متعدد الأفكار، بل كتاب ذي أعماق لمفاهيم خارجية لغوية، تماما كما يطل علينا كتاب «الشفاء» لابن سينا كمفسّر متميز لأعماق الطبيعة.

وكما أن الزمخشري لا يسمح بحبس معاني القرآن الكريم في معايير القراءة العقدية المنعية للنص،[٤] فإن ابن سينا لا يسمح بالرؤية السطحية أو المنفردة للطبيعة، إذ نتعرّف في كتابه الشفاء على الروح المسلمة الملكية، تلك النفس المسلمة وذلك القلب المسلم المعجبين بالله وبمخلوقاته. ومن المؤسف أنه يصعب اليوم رؤية عالم مسلم معاصر يتعامل مع الطبيعة بهذا الأسلوب التقليدي، وكأن ابن سينا كان له عينان مختلفتان، وأذنان مختلفتان، يرى ويسمع بها أعماق الكون، ولا مندوحة لنا في

٤) حول الرؤية الإسلامية للتراث، انظر: سيد حسين نصر، Traditional Islam in the Modern World، لندن، ١٩٩٠م، وانظر أيضا بحثه بعنوان: What is Tradition? المنشورة في كتابه Knowledge and Sacred، لاهور، ١٩٨٨م.

هذا المقام من أن نذكر مقطعا يتحدث فيه هذا المفسّر للطبيعة ابن سينا (غير ناسين أن له تفسير غاية في الأهمية لبعض قصار السور) عن الأسماك التي تسمع الموسيقا:

«نؤكد: بل إنني رأيت أسماكا تطفو وراء حويصلات تحتوي على مشتقات الحليب فيسهل اصطيادها. ورأيت أسماكا تسبح باتجاه الغناء وأنغام العود والصنج، فإذا اقتربت من مكان الجلوس والطرب، اتخذت وضعية المستمع ولم تبرحه، فإذا توقف صوت الموسيقى تفرقت الأسماك، لتعود ثانية مع تجدد العزف.

(...) وتصاب الدلافين وأنواع أخرى من الأسماك بالاضطراب عند سماعها قرقعة الأواني، ودوي الرعد، فتفرّ هاربة إلى الأعماق، فيمسك بها الصيادون وكأنها سكرى.

إضافة إلى ذلك، فإن الأسماك تشمّ، بل إن بعضها يعلق بالصنارة بواسطة طعم كريه الرائحة، وبعضها الآخر برائحة الحمض، وثالثة تصاد بالروائح المالحة والحادة...»[٥]

يعتبر هذا المقطع واحدا من آلاف التفاسير التي قدمها ابن سينا للطبيعة. فالأسماك لا ينظر إليها كمجرد ثروة اقتصادية، بحيث يكون الناظر خاليا من أي «إعجاب» بالأسماك باعتبارها آية من الآيات! لذلك فإن ابن سينا ينتمي إلى قرون المسلمين المتعددة الجوانب: ففي مؤلفاته ومؤلفات الكثيرين من معاصريه، من المغرب وحتى أقصى حدود فارس، بل وإلى أقصى المشرق، تتذوق العلاقة بين الفن والحيوانات (الموسيقا والأسماك في المقطع

٥) ابن سينا، «الشفاء»، (الطبيعيات)، (الحيوان)، ١- ٨، القاهرة، ١٩٧٠، ص: ٦١.

المذكور)، ولم يقتصر هذا الأمر على الحيوانات فقط ، بل شمل الفلذات والمعادن والمواد الأخرى.

لقد كان هذا ممكنا لأن الإسلام نفسه أيقظ أكبر مظهر عرفته الأرض من الإعجاب بالله! ومع ذلك، فإن هذا «الإعجاب بالله» قد أنتج «إعجابا بالكون» والطبيعة ورحابة الأرض. لقد أدى هذا الأخذ الواسع والعميق من كلمات القرآن الكريم، إلى أخذ واسع وعميق من الكون.

غالبا ما نذكر هنا كلمة «تفسير» مشيرين بها إلى تفسير العالم وتفسير القرآن الكريم. ويمكننا القول وبكل تأكيد أن المسلم كان يشغل موقعا هاما في العالم، ويجب عليه اليوم إيقاظ هذا الموقع في ذاكرته الموروثة بسرعة قصوى، وذلك هو «موقع التفسير»، فأي شيء نقرأه من مؤلفات العصر التقليدي للإسلام، فلا بد لنا من أن نلتقي مع ذلك الموقع.

لنأخذ مثلا كتابات ابن بطوطة، فإن هذا الرحالة المسلم الأكثر شهرة كان يسافر مع موقع التفسير. إنه يفسر العالم، دون أن ينتقده. فالعالم بالنسبة له متنوع في وحدة، وعالم الإسلام ذاته بالنسبة له فاتن التنوع في هذه الوحدة. إن عين ابن بطوطة تفرح بعالم النباتات، والحيوانات، والبشر، إذن، يسافر ابن بطوطة بوعي «ملكي» عبر مختلف أرجاء العالم الإسلامي، الذي امتص، دون التخلي عن إسلاميته، كل ما بقي من ميراث حضارات الشرقين الأدنى والأوسط القديمة التي سبقت الإسلام. ويكفينا أن نتذكر كم حزن ابن بطوطة بسبب الحالة البائسة المترهلة لمنارة الاسكندرية القديمة، والتي هوت فعلا بعد مضي عقود على وفاة ابن بطوطة.

ومن المؤسف أن نرى العالم الإسلامي اليوم لا يملك ذلك المزاج الروحي «الملكي»، بل إنه لا يملك مجرد المزاج الروحي الذي يمكنه عقد مقارنة نوعية بين «رحلات» ابن بطوطة و«تيهان» أوديسيا!

٣

لقد استطاع ابن سينا وبشكل رائع تفسير الطبيعة إسلاميا[٦]، وذلك بسبب وجود خلفية فكرية جيدة في تفسير القرآن الكريم. كان بمقدور المسافر في عموم العالم الإسلامي في ذلك الوقت أن يجد الكثير من مدارس تفسير القرآن الكريم، تكمل الواحدة منها الأخرى. كانت مراكز المسلمين الفكرية ودوائرها تعج بالتفاسير المتنوعة للقرآن الكريم. فالزمخشري نفسه (المتوفى عام ١١٤٤ للميلاد) كان فارسيا معتزليا، ولكن ذلك لم يمنع علماء القرآن في مكة من دعوته ليعرض عليهم تفسيره اللغوي للقرآن الكريم، وزادوا على ذلك أن أطلقوا عليه لقب «جار الله» تكريما له!

واليوم لا يمكننا مجرد تخيل أن تقوم جامعة مكة المكرمة، أو أية جامعة غيرها في تلك المنطقة، أو حتى الأزهر ذاته بدعوة أحد المرجعيات الشيعية من قم، أو فيما يتعلق بذلك، بدعوة مفسر من سراييفو، ليلقي عليهم محاضرة في تفسير القرآن الكريم أو

٦) انظر سيد حسين نصر An Introduction to Islamic cosmological Doctrines، لندن، ١٩٧٨م. يتحدث هذا الكتاب بأفضل الأساليب عن التفسير الإسلامي للطبيعة في أعمال إخوان الصفا، والبيروني، وابن سينا. ومن المؤكد أن تلك المؤلفات كان لها نظائرها في التفاسير الكبيرة للقرآن في ذلك العصر.

في غيره من العلوم الإسلامية. والعكس صحيح. ومن الأفضل أن نقول: إن المفكرين المسلمين أنفسهم، من مختلف أقطار العالم الإسلامي اليوم، غالبا ما يلتقون في المؤتمرات التي تنظم في الغرب!

هذه واحدة فقط من النتائج الكثيرة «لانسحاب الإسلام نحو السلام الشرقي»[٧] على مر القرون الأخيرة .

لقد حصل هذا الانسحاب بشكل واسع، ونتعرف عليه في تفاسير القرآن الكريم ذاتها.

لم تعد تفاسير القرآن الكريم التي نشأت في عصر «انسحاب الإسلام نحو السلام الشرقي» ثرّة وغنية ومتعددة الأبعاد، وطبعا باستثناء النادر منها التي حافظت بقوة على التفسير التقليدي للقرآن الكريم. إنها نتيجة مباشرة لفقد المسلمين للقوة في هذا العالم، وكذلك لفقدان القدرة على التفسير الفعّال للكتاب. إن تفسير القرآن يجب أن يكون مرتبطا مع الوضع الراهن للمسلمين، أي يجب أن يكون واقع المسلمين هو المفسر الحقيقي للقرآن، كما كان الأمر عليه في الماضي.

لقد وصف محمد عبده حال المسلمين في القرون الأخيرة قائلا: «يمكننا القول أن الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية والضالين في زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم».[٨]

٧) هذه الجملة لهيغل، ونجدها في كتابه فلسفة التاريخ. وأشار إليها أيضا في كتابه تاريخ الفلسفة.

٨) المنار، ١، ص: ٢٧.

ويقصد محمد عبده العالم الإسلامي ذاته، بغض النظر عن وجود الملايين من المصاحف على رفوف بيوتهم ومكتباتهم! إنه من غير الممكن أن تكون في مكانة وضيعة ومهينة في العالم، وأن تمتلك دينا قويا مقتدرا، وبعبارة أخرى، لا يمكنك امتلاك العالم الآخر دون أن يكون لك دور فعال ومؤثر في هذه الدنيا.

٤

لقد ذكرنا عدة مرات عبارات «التفسير الإسلامي للطبيعة»، وأن تكون «قويا إسلاميا في العالم» و«الامتصاص الإسلامي لموروث الحضارات القديمة»، إلخ، ومن الضروري بالطبع، توجيه الأنظار إلى المقصود بهذه العبارات.

كانت القرون العشرة الأولى للثقافة والحضارة الإسلامية تمتلك علما «إسلاميا»، وشعرا «إسلاميا»، وأدبا «إسلاميا»، وتفسيرا «إسلاميا» للقرآن الكريم، وفلسفة «إسلامية»، وإبداعا «إسلاميا»، إلخ. كل هذا كان في حوزة الإسلام، بشكل متواز ومتكامل. كان المسلمون يملكون في الروح والفكر ما يملكونه في عالم التاريخ وعالم الطبيعة، ألا وهو التنوع والإحاطة الشاملة بجميع أبعاد العالم. وفي الواقع، كانت الشرايين الرئيسية للبشرية كلها تنبض حيث كان الإسلام قويا.

إننا نعتقد أن الأمر كان على هذا الشكل بفضل التفسير المتنوع والمتكامل للقرآن الكريم. فقد فسرّت كل آية بالطاقات البشرية المتنوعة، بل إن كل كلمة في القرآن الكريم كانت تفسر

في طيف مدهش من الاحتمالات الممكنة، ولنضرب مثلا على ذلك بعرض أقوال المفسرين التقليديين في كلمة «الرقيم» (سورة الكهف، الآية: ٩)، فقد أورد الماوردي الشهير (المتوفى عام ٤٥٠ هـ) في تفسيره الآراء الآتية:

«وأما الرقيم ففيه سبعة أقاويل: الأول أنه اسم القرية التي كانوا منها، قاله ابن عباس. الثاني أنه اسم الجبل، قاله الحسن. الثالث أنه اسم الوادي، قاله الضحاك. الرابع أنه اسم كلبهم، قاله سعيد بن جبير. الخامس أن الرقيم هو الكتاب الذي كتب فيه شأنهم. السادس الرقيم الدودة بالرومية... السابع أن الرقيم قوم...»[٩]، والملاحظ أساسا عند الماوردي هو شفافية التفسير، «فتح الاحتمالات الموجودة في كلام الله»، إنها الحركة في خطوط متعددة وليست في خط مستقيم واحد.

يتعامل الماوردي مع القرآن الكريم بنفس الطريقة التي تعامل بها ابن سينا مع الطبيعة، فهو يتفحص طبقاتها المتعددة، ويخترق أعماقها، ويقارن بين طبقاتها المختلفة، ويفتح لها بصداقة مجامع قلبه. لقد كان عصرهم عصر «الإسلام القوي»، ذلك العصر الذي لم يكن فيه التفسير إسلاميا والفيزياء غربية. في الحقيقة، عندما تتوقف الفيزياء في العالم الإسلامي عن كونها إسلامية، يصبح التفسير نفسه مجرد جمع وتصنيف، أو مجرد خلاصة للكثير من الآراء الأحادية الاتجاه والمحتويات غير المترابطة.

يلاحظ في «تفاسير» العصر التقليدي، وبوضوح تام، انفتاح الثقافة والحضارة الإسلامية بطريقة «التفسير الإسلامي المكرر»

٩) الماوردي، تفسير ٢، الكويت، ١٩٨٢م، ص: ٤٦٧-٤٦٨.

لكافة الثقافات الزاحفة نحو المملكة الثقافية الإسلامية. ولنتذكر أن أرسطو أصبح في أعمال الفلاسفة المسلمين «مسلما»[١٠]، وهكذا يحصل أرسطو على هذا التفسير المكرر والفعال بشكل يتلاءم مع الرؤية الإسلامية للعالم، وفي مثل هذا السياق لم يكن لأعماله أي تأثير هدّام على الروح المسلمة. لقد كان بمقدور هذا الموروث المحلي القوي تطبيق التفسير المكرر على التراث الثقافي اليوناني، والفارسي، والهندي وغيرها، لأن تفاسير القرآن، وببساطة، كانت قد ضمنت فهما قويا لهذا العالم.

والحقيقة المهمة الثانية التي لا يجب أن تغيب عن النظر هي التفوق الإسلامي في مجال القوة الدنيوية. فعندما ترجم المسلمون أعمال أرسطو لم تكن جيوش الإغريق واقفة خلف تلك الأعمال. إن مسلمي العصر التقليدي لم يعرفوا المزاج الروحي الدوني، والإسلام كدين وحضارة وثقافة وسند للشعر السامي والعمارة الفاخرة ... إلخ، كان إسلاما رحبا، إسلاما تقليديا قويا[١١]، لم تساهم فيه روح دونية وضيقة الصدر. والأكثر من ذلك هو أننا نستطيع أن نأخذ وبكل ثقة كتاب ألف ليلة وليلة كتفسير استثنائي

١٠) يذكر عدد من الفلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وإخوان الصفا أن أرسطو رأى رسول الله محمدا في منامه يقول له بأنه لو عاش في عصر الإسلام لكان مسلما. وعلينا أن نفهم هذه المعلومة بمعناها المجازي، ورغم ذلك، فإنها تتحدث عن انفتاح الروح الإسلامية ، وليس عن انغلاقها وضيق صدرها.

١١) حول هذه المشكلة الهامة انظر سيد حسين نصر Traditional Islam in the Modern World، وكذلك Islamic Studies، بيروت، ١٩٦٧، The Encounter of Man and Nature، لندن، ١٩٦٨. وجميع أعماله تهتم بهذه القضية.

للقرآن الكريم حسب المعنى الأوسع للكلمة، أي كنص يتحدث عن علم النفس، والإيمان، والمعايير، والمكانة الرفيعة لمجتمع أساسه القرآن!

تتحدث ألف ليلة وليلة في الحقيقة عن مجتمع كان الإسلام فيه شاملا وعادلا؛ ففي مجتمع ألف ليلة وليلة المسلم، تظهر الملائكة والشياطين وكذلك الجن في إطار النظرة الإسلامية على العالم، الإسلام العالمي الذي لم يزحزحه عن موقعه علم الفلك والرياضيات البابلي، أو الزاردشتية الفارسية، أو أي من التأثيرات الهندية، أو حتى الفلسفة الإغريقية. إن هذا كله كان آنذاك موجودا في المجتمع المسلم، ولكن وجوده كان منسجما مع المحاور الرئيسية للرؤية الإسلامية للعالم. وباختصار، فالمسلمون أنفسهم وبأسلوب معين قد جعلوا جميع المؤثرات الخارجية «تعتنق الإسلام»!

عندما كان للإسلام في تلك الأزمنة أدب إسلامي، وفيزياء وعلم كونيات إسلاميين، وشعر إسلامي... الخ، استطاع مجابهة التأثيرات الخارجية بقوة وإقامة لقاء مثمر معها. لقد كان ذلك ممكنا بسبب الانفتاح والسعة في تفسير القرآن الكريم الذي وفر للمسلمين سندا قويا - كما أشرنا مرارا - سلّحهم بروح القوة والتفوق.

إذن، وبالرغم من امتصاص الإسلام لثقافة التقاليد الإغريقية الأرسطية والأفلاطونية، إلا أنه لم يصبح «إسلاما إغريقيا»! ومع أن المسلمين ترجموا أيضا المؤلفات الهندية، إلا أنهم لم يصبحوا هندوسا! وينطبق هذا أيضا على استقبال التراث الفارسي القديم، حيث بقي المسلمون مسلمين رغم التفوق الثقافي لفارس القديمة

والمواجهة مع تراثها. هذا يعني شيئا واحدا فقط، كان المسلمون أقوياء في هذه الدنيا «بأسلوب إسلامي». إذا كنت في هذه الدنيا دونيا، فلا يمكنك أن تحقق التفوق الروحي، أي إنه من غير الممكن بواسطة الفلسفة الإغريقية أن تصبح «قويا إسلاميا» ومؤثرا في العالم! أو أن تكون قويا إسلاميا مع خضوعك للروح الإغريقية!

إن مشاكل العالم الإسلامي الأساسية اليوم تأتي في الحقيقة من رغبة المسلمين في أن يكونوا أقوياء بواسطة التقنيات الأجنبية، والفيزياء الأجنبية، والصناعة العسكرية الأجنبية. فحصلوا على الدونية بدلا من القوة، وبدلا من الصناعات النظيفة القوية حصلوا على مشاكل بيئية، وبدلا من التقدم والمشاركة الأوسع في العالم، فإن المسلمين غالبا ما يخسروا الدنيا والآخرة!

ولكن، سنعود إلى هذه المشاكل بعد قليل.

٥

لقد ذكرنا هنا أكثر من مرة عبارة «التفسير التقليدي للقرآن الكريم»، ويتحتم علينا توضيحها، لأننا لانقصد بعبارة «التفسير التقليدي للقرآن الكريم» التفاسير التقليدية المطوّلة والمتعددة المجلدات فقط، بل إننا نقصد أولا «روح تفسير القرآن الكريم في عصر الإسلام القوي حضاريا».

لقد كتبت رحلة ابن بطوطة كتفسير حي ورائع للقرآن الكريم، وبالأحرى كشرح لآرائه عن الأسفار المليئة بالمعارف والعبر والآراء

عن الآخرين، والأديان الأخرى، كالنصارى والصابئة والمشركين ... ومقدمة ابن خلدون أيضا تفسير متميز للقرآن الكريم عن سقوط المجتمعات ونشأتها، وكيف «يستبدل الله أقواما بأقوام آخرين» على الأرض. وليس «طوق الحمامة» لابن حزم بكل تأكيد سوى تفسير حسي للقرآن الكريم ولأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن العلاقة بين الأزواج، وعن الغرام والعشق والحب الطاهر. ومعجم «لسان العرب» لابن منظور هو بدوره تفسير لغوي واسع للقرآن الكريم، مكتوب بطريقة متزامنة وغير متزامنة، إنه تفسير نشاهد فيه المعاني التي تحصل عليها الكلمات في فترات زمنية ممتدة... لقد كتبت هذه الكتب وغيرها بمعارف «الإسلام القوي» الذي كان – في كامل مداره الروحي الذي نجده اليوم مدونا في الكتب – شرحا وتقديما للقرآن في الزمن ومن أجل الزمن.

لكن علينا بالطبع أن نتذكر بأن عمارة ذلك العصر أيضا، وثقافة السكن، والتغذية ... إلخ، كانت جميعها، وبأسلوب معين، عبارة عن تفسير للقرآن. إن هذا كله يمثل في الإسلام تفسيرا للقرآن. ومن غير الضروري أن نذكر هنا بأن علم البستنة كان تفسيرا لآيات القرآن الكريم عن رياض الجنة. والمنمنمات الإسلامية هي تفسير مباشر للقرآن الكريم وآياته عن الخلق، وترابط العالم والزمان والمكان. لا يوجد شيء يترجم جمال الفكرة القرآنية بشكل أكثر فعالية من الحضارة الإسلامية نفسها، وموسيقاها، والنافورات، والخضرة، وقناطر وقباب المساجد في أصفهان...

يمكننا التحدث بإسهاب عن هذه الأمور، ولكن لا حاجة لإيضاح قصدنا الواضح جدا: فتفسير القرآن الكريم ليس هو فقط ما يكتب ويوضع بين جلديه، بل إن التفسير الإسلامي للقرآن

الكريم هو ما يقدمه المسلمون بأسلوب إسلامي للحضارة والثقافة، وبكل بساطة هو كل مانراه من الآيات القرآنية «متحققا» أو «مفسّرا» في حدود هذا العالم، أو حتى في حيز الخيال، والزخارف، والتأملات. هذا مانشاهده في مقولة الحافظ الشيرازي: «الفضل للقرآن في كل ما توصلت إليه». وكما هو معروف، فالحافظ الشيرازي كان شاعرا لامعا، وليس فقط مفسرا للقرآن الكريم بالمعنى الضيق لهذه الكلمة. والمعماري «سنان» كان بنّاء عظيما، لكننا نشاهد في أقواسه وقناطره التي أهداها للأبنية، من خلال نقشها على الحجر والمواد الأرضية، تفسيرا لآيات القرآن الكريم في العالم، أي في عالم الإسلام القوي.

من الواضح أن سندا روحيا قد سبق كل ذلك، إنه السند الذي تغلغل في كل شيء، وغطى كل شيء، بأسلوب شمولي دون استبداد وعندما نقول هذا فإن أول ما نقصده هو بقاء الفروق التقليدية بين مدارس الفكر الإسلامي التقليدية وعلاقة التسامح فيما بينها. لأجل هذا وجد الآخرون مكانا لهم في الحضارة والثقافة الإسلامية، ولم يبادوا أو يُمسحوا. ولا حاجة إلى التأكيد على أن أفضل عيش لليهود كان مع المسلمين، حيث حققت ثقافتهم وديانتهم اليهودية عموما الازدهار في تلك الفترات الطويلة. كانت تلك هي فترات «يهود الإسلام»، كما عبر عنها برنارد لويس.[١٢] كما بقيت الأبرشيات النصرانية حيث هي، ووصول الإسلام إلى أماكن سيادتها لم يجتث نصرانية الشرق! وعلى كل حال، فهذا الموضوع له مكان آخر.

١٢) برنارد لويس، The jews of islam، برينستون، ١٩٨٤م.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، ماهو الشيء الذي أعطى هذه النغمة الروحية الفريدة لجميع مرافق الحياة في عصر الإسلام القوي حضاريا ؟ والجواب عن هذا السؤال يكمن قبل كل شيء في «التفسير الحركي للقرآن الكريم». وفي نفس الوقت تم تفسير القرآن قانونيا، وسياسيا، وجماليا، وصوفيا ... وهذا يعني أن القرآن كان يفسر بشكل متواصل ويومي، وبدون توقف! كما أن القرآن الكريم كان يفسر «تفسيرا مختلفا» باختلاف الزمان والمكان.

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن المشكلة الرئيسية اليوم في تفسير القرآن الكريم تكمن في الفهم غير الدقيق للزعم القائل «بأن القرآن الكريم لا يفهم بنفس الأسلوب في الأزمنة المختلفة»، فهذ الزعم، وبكل بساطة، ليس كفرا، لأنه ينبغي لكل جيل من المسلمين أن يمتلك تفسيرا للقرآن مبنيا على التراث، ويجب عليه القيام بكل هذا إذا كان يرغب فهم الإسلام، وإذا كان لا يرغب البقاء مجرد متطفل على التفاسير السابقة للقرآن الكريم!

هذه هي مشكلة المسلمين الرئيسية اليوم، إنها مشكلة مؤسساتهم وعقولهم وتفكيرهم. إنهم، على الصعيد العالمي، لم يحققوا أخذهم الذاتي من النبع القرآني، ليضمنوا به لأنفسهم السند الروحي الذي كان في العصر التقليدي متوفرا دائما بشكل طازج.[١٣]

لذا، فإن الثراء الموجود لدى بعض الدوائر الإسلامية ليس ثراء ناتجا عن العمل، بل إنه وبكل بساطة نتيجة لرحمة الله

١٣) انظر عبد الحميد أحمد أبو سليمان، «أزمة العقل المسلم»، هرندون، فيرجينيا، ١٩٨١م، انظر بشكل خاص باب أزمة المؤسسات الإسلامية اليوم.

المسماة بالنفط. بالطبع، فإن لله سبحانه وتعالى أشكال دائمة للرحمة، وأشكال أخرى محدودة الأجل. هذا يعني أن النفط لا بد له أن ينتهي يوما ما، أما الإسلام فإنه لن يزول أبدا! وعلى المسلمين أن يفكروا عميقا بهذه الحقيقة![١٤] ولكن هذا الموضوع أيضا يحتاج لتحليل خاص.

٦

إن مصير الشعوب الإسلامية مرتبط بشكل مباشر مع تفسير القرآن الكريم، ذلك التفسير الذي لفتنا إليه الأنظار هنا.

ولنستفد هنا من الأمثلة المتزامنة وغير المتزامنة، التي تبين أسباب ديناميكية التفسير التقليدي للقرآن الكريم، ولماذا نجد الكثير من ذلك كاركاتوريا في التفاسير المعاصرة للقرآن الكريم، أو على الأقل غير عملي ولا يلبي احتياجات مسلمي اليوم. ولنبدأ أولا من بعض الافتراضات :

كان للإسلام التقليدي علومه الإسلامية الذاتية عن المجتمع والطبيعة. فاستطاع بناء على ذلك امتلاك طاقات فكرية تمكنت بتفسير القرآن من توفير مجال التطبيق، بل توفير مجتمع ذي معايير. (دين الإسلام يقتضي وجود معايير للعيش. والقرآن ذاته يقدم صورة للبشر المكرمين، الذين يشربون من الأكواب الموضوعة، ويجلسون على النمارق المصفوفة .. إلخ). ورغم عدم إمكانية

١٤) يكرر فضل الرحمن هذه الجملة في عدد من مؤلفاته، مثل «Islam»، شيكاغو، ١٩٨٧م.

وجود الجنة في الأرض، فإنه من الممكن على الأقل أن توجد تراجم تقريبية لصور الجنة التي يزخر بها القرآن الكريم.

المسلمون في عصرنا هذا لا يملكون علومهم وتقنياتهم الذاتية. إنما يملكون نفايات التقنية الغربية أو مخترعاتها من الدرجة الثالثة. إنهم لن يستطيعوا بالاعتمادا على هذه الوسائل تأمين المقدمات الروحية والاجتماعية التي ستمنحهم الفرصة، أي فرصة، لتفسير القرآن الكريم على أسس تقليدية.

إنه من الضروري تفعيل هذين الافتراضين المتكاملين، في التفاسير التقليدية والحديثة للقرآن الكريم.

ولنأخذ على سبيل المثال كتاب الغزالي «الحكمة في مخلوقات الله»[١٥]، وتفسير طنطاوي جوهري[١٦].

ويمكن وصف هذين الكتابين بأنهما تفسير للقرآن بالظواهر الخارجية، أي بالظواهر التي تهتم بها العلوم قبل أي شيء آخر.

فعند الغزالي، نجد أن الطريقة التي يتحدث فيها عن تلك الظواهر طريقة إسلامية خالصة، وفي حدود الكون الإسلامي الواسع. والاستغراب الذي نستخلصه من ريشة الغزالي إنما هو استغراب خاص به. ونجد الغزالي واثقا من نفسه عندما يتحدث عن تشريح العين، وعن الآيات التي تتحدث عن حاسة البصر عند

١٥) «الحكمة في مخلوقات الله»، بيروت، ١٩٨٦م.

١٦) بدلا من تفسير طنطاوي جوهري، كان بإمكاننا ذكر مثال أحدث من هذا النوع. إن إنتاج تفسير القرآن العلمي الرخيص ظاهرة منتشرة في مصر. وهناك من ينسى أنه لا يمكن معالجة النتائج النفسية لاحتلال نابليون لمصر «بالتفسير العلمي» للقرآن الكريم.

الإنسان، وعن العين عموما! فهنا لا تطرح الأسئلة حول صحة المعرفة البشرية، والعلمية منها بشكل خاص، المتطورة، والمتبدلة، والمتغيرة. إنما الأهم هو طرح الأسئلة عن الوظائف والفهم. لقد وفر الغزالي الوظائف والإدراك داخل المحيط الواسع للتقاليد وكل ما هو تقليدي، أي داخل تفسيره الشخصي للعالم والقرآن الكريم. ولنعرض هنا مقطعا للغزالي يبرهن على امتلاكه سندا إسلاميا تقليديا في تفسير القرآن الكريم:

«يخلق الله سبحانه وتعالى الذكر والأنثى من سائل «مخصب» يتحول إلى قطرة متخثرة، ثم تتحول تلك القطرة إلى علقة، وتتحول العلقة إلى مضغة، ثم تتحول المضغة إلى عظم، ومن ثم يكسو العظم باللحم، ويمده بالأعصاب والعروق ويصله بالأوردة. ثم يخلق الأعضاء والأطراف ويجمعها، ثم إنه سبحانه يدوّر الرأس، ثم يشق ويخلق فيه فتحات للسمع والبصر والأنف والفم، ويخلق فتحات أخرى غيرها.

لقد أعطى العين لنبصر بها، ومن عجائب العين سر حقيقتها، بأن ترى الأشياء وهذا أمر لا يمكن بيان سرّه. لقد كوّن الله سبحانه وتعالى العين من سبع طبقات، لكل منها صفتها وشكلها الخاص بها. فإذا فقدت أو زالت طبقة من طبقات العين، فعندئذ لن تستطيع العين الإبصار!

راقب شكل الرموش التي تحيط بالعين، وكيف خلق الله سبحانه وتعالى الرموش والأجفان بحركتها السريعة لحماية العين من أي شيء قد يدخل إليها أو يضايقها، كالغبار أو أي شيء آخر. فالجفون والرموش هي بمثابة الباب، يفتح كلما دعت الحاجة لذلك،

ويغلق عندما تنتفي الحاجة للنظر. وبما أن غاية الخالق كانت تجميل العين والوجه بالأجفان، فخلق الرموش بالقدر الكافي، ولم يجعلها طويلة فوق الحد اللازم لحماية العين، أو قصيرة تؤذي العين. وخلق أيضا في رطوبة العين ومائها ما يمسح ويطرد كل ما يقع فيها. وإلى ذلك انظر كيف خلق زوايا جفون العين منخفضة دون مستوى مركز العين حتى يخرج ما يقع فيها عبر إحدى هاتين الزاويتين، وجعل الحاجبين زخرفا وزينة للوجه، ووقاية للعيون... »[١٧]

إننا نرى في أفكار الغزالي استغرابا وإعجابا في آن واحد، واستمتاعا بالجمال كبرقع يخفي خلفه الجمال الإلهي، ويتدفق من كل جملة الثبات والاستعلاء الإسلامي.

وفي الجهة الثانية، فقد قيل عن تفسير الجوهري أن أكثر ما فيه ليس من تفسير القرآن. إن هذا «التفسير للقرآن الكريم» يعبر عن الروح الانهزامية عند المسلمين، والانكسار، والانقطاع عن الحبل السري الذاتي (التراث). وفي كل صفحة تقريبا «يفسر» المؤلف آيات القرآن الكريم بشكل غير إسلامي وغير تقليدي؛ ويبدو بوضوح محاولة إقحام المفاهيم والمصطلحات الإسلامية التقليدية، كالملائكة والجن ...الخ، في إطار كون غريب، وسماء غريبة لا يستطيع الجوهري فهمها. لقد بدت في عصره جميع النقاشات حول البرقيات والطاقة الكهربائية، والسفن البخارية... التي دخلت »كتفسير« للقرآن الكريم، مضحكة، لأن الطاقة الكهربائية ليست عفريتا إسلاميا تقليديا! إذ لو كان هذا صحيحا، فكيف لم يعرف العالم الإسلامي كله قبل طنطاوي جوهري وبشكل

١٧) «الحكمة في مخلوقات الله»...، ص: ٢٦.

مؤكد حقيقة العفريت! وبنفس الطريقة نستطيع نقض جميع جهوده «التأويلية» الأخرى.

وهكذا نعود من جديد إلى الزعم القائل بأنه لا يمكن تفسير القرآن الكريم بالعلوم الأجنبية، مهما كان نقلها والإلمام بها صحيحا أو سطحيا، كما في حالة الجوهري، وأن تلك التفاسير لا يمكنها تقديم أي تطور اقتصادي، أو سياسي، أو ديني ... للعالم الإسلامي. ومن المعروف أن تفسير الجوهري للقرآن الكريم لم يشجع نشوء قوة اجتماعية في العالم الإسلامي تحاول تغيير حالات السبات البائس في عصره.

وكما أنه لا يمكن تطعيم الأشجار المختلفة بنوع واحد من الأشجار، فإن أشكال التراث الروحي تأبى التطعيم بتراث روحي آخر، مهما كانت النوايا والأهداف سامية.

إن المخرج يكمن قبل كل شيء في تنمية العلوم الذاتية، ولتحقيق ذلك لابد من معرفة العلوم الغربية، ليس بسبب تفوقها الحالي، بل من أجل التعرف على نتائجها العملية. وبنفس الطريقة وبكل بساطة يجب التعرف - كما يقول الغزالي في كتابه «المنقذ» على وجود أناس مسلحين بالعلم، ومروضين للثعابين، وبأن تلك الثعابين لا تمثل خطورة بالنسبة لهم. لا يمكن لجميع البشر أن يكونوا مروضين وسحرة للثعابين!

وفي هذا الميدان بالذات تسود الفوضى اليوم في العالم الإسلامي. ففي القاهرة يفسر أحد الأطباء ومنذ سنوات القرآن الكريم[١٨]، وفي الوقت ذاته يكتب كثير من مفسري القرآن الكريم

١٨) نقصد بذلك النشرات الكثيرة لمصطفى محمود.

في الطب[١٩]. لقد عرف الإسلام التقليدي تجربة التوزيع الدقيق للاختصاصات. لقد كان الإدراك للكلّ موجودا، وفي عصر الإسلام التقليدي ساهم كل عاقل من طرفه في بناء ذلك الكلّ بشكل «تلقائي».

٧

إن العالم الإسلامي اليوم محاصر سياسيا، تماما كما حوصرت سراييفو، وهذا سبب إضافي لهذا الاستسلام اليائس والعميق الذي نراه في التفسير الراهن للقرآن الكريم، أو لظهور أنواع من التفاسير العاطفية والهائجة للقرآن الكريم. وسيكون لنا كلمة عن ذلك في خاتمة هذا المقال.

كما كانت القوة الصوفية الإسلامية التقليدية مدعومة بقوة سياسية قوية، فإن القوة السياسية القوية للإسلام كانت تستند إلى صوفية قوية بجانب العوامل الأخرى، لذا وبنفس الطريقة يجب أن يقف اليوم غطاء دنيوي خلف إنجازات المسلمين الفكرية، في تنظيم قوي وقادر، يحظى باحترام الآخرين، والأهم من ذلك كله، باحترام المسلمين أنفسهم له.

لا حاجة هنا لذكر جميع التفاسير، ولكن يوجد تفاسير للقرآن الكريم كتبت في حالة من الاستسلام اليائس، وبناء عليه فهي لا تعالج مشاكل المسلمين المعاصرة.

١٩) هناك العديد من المؤلفات التي وضعت على عجل حول هذا الموضوع، مثل «الإعجاز الطبي في القرآن الكريم» للدكتور سيد الجميلي، بيروت، ١٩٧٥م.

وزيادة على ذلك، يلاحظ وجود خوف من الخوض في تلك المشاكل بشكل يتلاءم مع الزمان والمكان، وهذا بدوره يؤدي إلى سيل متفجر من العواطف، أو إلى محاولة حل تلك المشاكل بأسلوب قديم ومستهلك.

يجب القول فورا بأنه لا توجد حلول جاهزة لمشاكل المسلمين المعاصرة في التفاسير التقليدية، ولكن يوجد فيها آثار معرفة قوية حاولت تفسير الحياة البشرية في ظلال القرآن. وما علينا إلا أن نأخذ من التفاسير الإسلامية التقليدية مبادئ التفسير والتأويل، من دون أخذ الحلول المحددة! لأنه ينبغي لكل جيل مسلم أن يكون ذا موقف مسؤول نحو القرآن الكريم والزمن الذي يعيش فيه.

إن حلول مشكلات المسلمين في عصرنا هذا يجب أن تنطلق من المسلمين أنفسهم، ومن تفسيرهم للقرآن الكريم وللعالم الذي يعيشون فيه.

إلى ذلك، فالمسلمون اليوم متدينون جدا، ولكن تدينهم بدون رصيد، وبدون مشاركة مؤثرة في القوة الدنيوية. ويلاحظ في جميع أنحاء العالم الإسلامي وجود تدين ناجم عن الاستسلام اليائس، المصحوب بمظاهر الهياج والتلويح بالأيدي العارية في وجه الغرب القوي. فمن الأفضل لهم أن يعجلوا بجمع طاقة التدين إلى طاقة الهيجان وضمهما في قوة واحدة قادرة على الاستفادة من دهاء العقل ورقة الروح. فدهاء العقل سيدعم نشأة مفهوم إسلامي للعلوم مبني على التراث الإسلامي الذي ما يزال حيا. ورقة الروح ستقدم تفاسير جديدة للقرآن الكريم، «سداها» التراث، و«لحمتها» حلول مشاكل المسلمين في هذا العصر.

إن جهاد المسلمين في هذا العصر ليس في إسقاط طائرات الجامبو الغربية، إنما الجهاد الحقيقي لمسلمي اليوم يتمثل في تصنيع وإنتاج مثل هذه الطائرات القوية في مصانع المسلمين. لذا فمن الأفضل أن يستند تدين المسلمين الصادق إلى رصيد من قوتهم الذاتية، وليس إلى انتقاد القوى الأجنبية، وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف!

الأهمية الحضارية التأريخية للتفسير الصوفي للقرآن الكريم

إن الزمن جزيرة في بحر الأبدية، كما يقول الصوفية المسلمون. لكنها جزيرة مهمة، لأننا نجري عليها الاستعدادات للأبدية، منها ومن خلالها نحيط بعمق الأبدية، بعمق واتساع ذلك المحيط المحاصر للجزيرة.

من الممكن القول دون الخوف من الوقوع في الخطأ، بأن الشريعة تنظم تطبيق وتنفيذ ارادة الله الخالدة في الزمن، هنا «تحت مدار القمر» كما يقول المتصوفة المسلمون. فهمت الشريعة بهذه الطريقة، أي بأنها قانون ظاهري ينظم الحياة وسلوك المسلمين من بداية تخلقهم وحتى موتهم، وفي بعض الأحيان بعد موتهم. يرى التصوف في مساراته الرئيسية بأن الشريعة هي الجانب الظاهري للإسلام، والوجه الظاهري الذي ينظم بأحكامه، وعلى المستوى الظاهر، علاقة المسلمين نحو الله، ثم العلاقات بين بعضهم ونحو الأناس الآخرين، نحو الطبيعة، ونحو التأريخ.

إلا أن الإسلام يشمل كذلك ما سموه بالحقيقة، وهي وجهه الداخلي، حقيقته الباطنية غير المحددة بالزمان أو التأريخ. كان الصوفية، مثل الشيعة، يهتمون اهتماما خاصا بالنظر إلى الإسلام

بهذه الطريقة، مميزين الوحدانية الاسلامية بواسطة وجهيه المهمين ـ الشريعة والحقيقة.

ولكن هذا كله، بطبيعة الحال، أمر مستحيل إن لم تتم قراءة القرآن الكريم بطريقة خاصة تضمن الغوص في كلماته وفهم مقاصده بناء على الطبقات الداخلية للنص. كان التصوف منذ بدايته مصرا عند قراءة وتأويل القرآن على التمييز بين معانيه الظاهرية والأخرى الباطنية، إضافة إلى إصراره على القراءة الرمزية للنص. وحتى نوضح ولو بشكل سطحي معنى القراءة الرمزية للنص علينا بعض التوضيحات الأخرى.

نبع العالم من صفحات الكلمات الإلهية. وبما أن الإنسان نفسه كلمة من كلمات الله العظيمة - أو بالأصح، هو آية من الآيات الكبرى في آفاق العالم - فهو الوحيد «تحت مدار القمر» قادر على تفسير كتاب الله - القرآن، وتفسير كتاب مفتوح آخر لله سبحانه وتعالى كذلك، وهو العالم. يقول ابن عربي إن العالم كتاب إلهي مسطور يجب تفسيره مثل تفسير القرآن الكريم نفسه.

يصر التصوف على أن تفسير القرآن والعالم كليهما يتم بتأويل واحد مشترك، تأويل غير محدد بالتأريخ. والتصوف ذاته لا يرفض التفاسير التأريخية للقرآن الكريم ولا يلغيها، لكنه يعتبرها محدودة وغير كافية فيما يخص إدراك المقاصد الخالدة الواردة في نص القرآن الكريم ومحتوى العالم! إن التفاسير التأريخية للقرآن والعالم صحيحة ومبررة ولكن ذلك على مستوى نفسها فقط. إن التصوف لا يبحث عن المعنى الزمني للقرآن والعالم، أو بالأحرى هو لا يضع همّه الرئيسي عليه، ولذا فإن له

أسلوبا متميزا للبحث عن المعنى الخالد للقرآن الكريم، وآثار الخلود الواردة والنابعة من آيات العالم نفسها في آفاق التأمل.

ما هو إذا ذلك الأسلوب الصوفي المنسوج في التأويل الصوفي، وما تلك الشروط التي يضعها أمام قارئ القرآن الكريم والعالم كذلك؟

٢

يقول التصوف إن البحث عما هو خالد لا يكون صحيحا في أساسه إلا إذا كان « ... يسمع القرآن من الوجود ويرى الوجود في النص القرآني..! »

لكن، حتى يكون تطبيق ذلك ممكنا، يجب القيام بعمل مهم يسمى الاعتبار. ويعتبر ابن عربي هذا العمل شرطا لا بد منه عند بدء البحث عن المعنى الخالد للقرآن الكريم، والمعنى الخالد للعالم كذلك! و يفسر ابن عربي الآية القرآنية (فاعتبروا يا أولي الأبصار – الحشر ٢) بطريقته الخاصة وهي طريقة يتميز بها المنهج الصوفي عند تعامله مع النص، والعالم طبعا. يقول ابن عربي في الفتوحات : « أي جوزوا مما رأيتموه من الصور بأبصاركم إلى ما تعطيه تلك الصور من المعاني...! »

إن لهذا القول معان كثيرة، لكن ما يمكن خصه بالذكر هنا أن هذا القول لابن عربي تأكيد للقراءة الرمزية لعوالم القرآن والعالم عموما، القراءة الرمزية التي يروجهاويدعو إليها التصوف. إن عوالم القرآن والعالم ذاته مليئة بالرموز والإشارات. و يمكننا القول في النهاية بأن التصوف قد « نشأ » أصلا كمدرسة تطالب بالقراءة

الرمزية لكل من القرآن الكريم والعالم، القراءة الرمزية التي لايصنع الإنسان من خلالها رموزا حسب مشيئته، انما هو يفسر فقط الرموز الواردة في القرآن والعالم! وهذا هو ذلك الاعتبار (الاعتبار مما هو ظاهر بحث إلى الرمز، ومن الرمز الى المرموز! وليس ذلك المرموز سوى الله الخالد سبحانه وتعالى! الخلود ذاته !).

هذا القول في أساسه صحيح، ولكن هذا الأساس يجب توضيحه، بطريقة تتماشى مع التصوف.

فاللغة ذاتها، حسب المسارات الرئيسية للتصوف، ليست سوى مجموعة من الرموز. واللغة البشرية العادية، كل لغة بشرية، ليست إلا صدى للغة الالهية أو مظهرا لها على المستوى الوجودي...!

تدل اللغة البشرية العادية على اللغة الالهية، واللغة الالهية على الوجود، على المطلق. إن اللغة الإلهية ،من أمثال القرآن الكريم، يتضمن على إشارات لا يفهمها إلا أهل الله خاصة...

هؤلاء الأصفياء هم أولا وقبل كل شيء صوفيون أصلا. فهم في كل ما يرون، وفي كل ما يسمعون، وفي كل ما يخطر ببالهم وتأملاتهم، يكتشفون ويتعرفون على الرموز، وبواسطة تلك الرموز يرون المرموز !

في التأويل الصوفي للقرآن الكريم ذاته، والذي لعب وما يزال يلعب دورا رائعا في تأريخ الحضارة الاسلامية، توجد أسس التفسير الظاهر والباطن للنص. إن العلاقة بين الكلمة والمعنى الذي تشير إليه مثل العلاقة بين الظاهر والباطن، فالعارف يقرأ في القرآن الوجود بأسره...

وحتى يوضح هذا ، كان التصوف في الغالب يستخدم الأمثلة من القرآن ذاته.ومثل ما ورد في آيات النور من تداخل الزجاج والنور والانفتاح لبعضهما البعض، يتداخل الظاهر والباطن بين بعضهما ، إلا أنه لا يمكن على الإطلاق شرح الباطن بالظاهر، مع حتمية شرح الظاهر بالباطن!

وقد كان هذا التعليم في الصوفية يشرف ويحافظ على منزلة العلم والمعرفة وأهدى هذه الفكرة الى الحضارة الاسلامية.

٣

بناء على ذلك، لقد كان التصوف في الإسلام دائما يمسك الشعلة مرفوعة عاليا ، وبواسطتها كانت تتم قراءة وتفسير القرآن الكريم والعالم على اتساعهما وعلى عمقهما. لقد نقلنا في المقطعين السابقين بشكل مبدئي فقط بعض النظريات الصوفية الرئيسية والأساسية.

لكن، من الضروري هنا أن نذكر كيف حقن التصوف مبادئه، بشكل مرئي وغير مرئي، في المضامين الغنية للحضارة الاسلامية.

إن أول ما حقنه التصوف في الحضارة الاسلامية الذكر، ذكر الخلود. فالاسلام ذاته ليس سوى تذكير كبير مستمر بالخلود. أي أن المبدأ الأساسي للاسلام: لا إله إلا الله، يعني بأن جميع مظاهر وظواهر هذا العالم، والعالم نفسه كذلك، ليست سوى شهادة بالمطلق، الوجود الحقيقي، الخلود. يحب الصوفية تسمية تلك المظاهر «التجليات».

وهذه الفرضية الصوفية نراها ونتأكد منها في جميع ما أنتجته وتنتجه الحضارة الإسلامية. وذلك لأنها هي ذاتها تذكير كبير بالله الخالد.

لنتذكر الآية القرآنية عن الزجاج والنور، ولنمنح أنفسنا حرية القراءة لكامل الحضارة الإسلامية في سياق مقصد تلك الآية. لقد بنيت بيوت المسلمين ابتداء من البوسنة وحتى أندونيسيا سعيا للقبض على النور بشكل مشابه لقبض الكف على الماء. فوجهت بيوت السكن تلك نحو الشمس، بأروقة مضيئة وغرف منيرة. تسعى تلك الأبنية في الحقيقة إلى أن تكون خفيفة بحيث أنها تزيل أي تفكير عن المصمت، المصمت الذي قد يثير في الإنسان رغبات الإبداع على الأرض ونسيان الله الخالد.

كان التصوف في كل حضارة إنسانية، وبالأخص في الحضارة الإسلامية والتي قد شارك مشاركة بعيدة في إنشائها وصياغتها، يرى الأحقاف وهو يستمد رؤيته تلك من الآية القرآنية المذكورة فيها الأحقاف. وذلك أن كل ما تم بناءه في تلك الحضارة بطريقة متماشية مع مبادئ العمارة الإسلامية التقليدية يذكر بما يسميه التصوف التجليات، وهي مظاهر الحق سبحانه وتعالى في هذا العالم.

إن أي بناء أخذناه للمثال دال على ذلك. فالجسور المبنية أيام الخلافة العثمانية في البوسنة والهرسك وصربيا ومقدونيا وما هو أبعد شرقا كانت تبنى عادة من الخفّان والحجر الأبيض، حيث أن الإنسان، عندما تنشر الشمس بأشعتها على الماء تحت الجسر أو على الجسر ذاته، يبدو له أنه ناظر إلى شيء مطرز، إلى امتزاج

عجيب لكل من الضوء والماء وبياض الحجر، امتزاج ما هو واقعي وما هو خيالي... ومما هو المهم أنه يشعر عند ذلك باليسر والراحة.

يبدو للإنسان وهو يعبر نهر درينا مشيا على جسر محمد باشا سوكولوفيتش في فيشيغراد والدنيا شمس، أنه يعبر ذاك الجسر الآخروي المسمى «الصراط» في يوم القيامة، ذلك لأن جميع الجسور التي قام ببنائها الأتباع الملتزمون بالأخوة الصوفية التقليدية، كالمعماري سنان على سبيل المثال، ليست سوى رموز الخالد والمؤقت للوجود. من لعبة الضوء والماء وبياض الحجر وخيال الجسر على الماء، تبدو لنا بوضوح العينة الرئيسية للنظرة الاسلامية على العالم، وفصل الأجزاء المتحركة عن الثابتة للخلود، وفصل الظاهر من الباطن، الوهم والتخيل من الواقع!

إن مبدأ الظاهر والباطن في فن العمارة ظاهر حتى في دور السكن العادية، ولا سيما الواقعة منها في مناطق البحر المتوسط التي اعتنقت الإسلام وغيرها من مناطق الثقافة الإسلامية من تركيا والبلاد العربية وفارس على اتساعها. إن كثيرا من بيوت المسلمين في سراييفو، أو في بورصة، فيما يتعلق بذلك، يمكنها أن تكون مسكنا وزاوية في آن واحد. وذلك أن منازل المسلمين و أماكن سكناهم المبنية بالانسجام مع تقاليد الإسلام وقواعد التمييز بين الظاهر والباطن، والتي يصر عليها التصوف إصرارا قويا خاصا، هي بأحد معانيها الخاصة أماكن وبيوت دينية. فالمنزل جزء من سكينة الجنة، اضافة الى كونه حاجة دنيوية، وحماية من تقلبات الجو والطبيعة. التكايا والزوايا هي بيوت دينية من جهة، لكنها من جهة أخرى المساكن كذلك.

٤

بفضل التصوف وتعاليم الإسلام الباطنية لم يصبح عالم الطبيعة في الحضارة الإسلامية منفصلا عن عالم التأريخ. الطبيعة ليست عدوا للإنسان، بل هي، مثل الإنسان، مجال استقبال الرحمة من الله سبحانه، والأكثر من ذلك، فالطبيعة بقفارها وجبالها وأنهارها العظيمة وأزهارها وأشجارها إلهام كبير للبحث عن الروحانية. وإضافة إلى ذلك فإن الطبيعة هي فيض قوي لأسماء الله الحسنى. وأهم الأعمال الصوفية أسماؤها مأخوذة من الطبيعة.

بالطبع، لا تحتل الطبيعة هذه المكانة بسبب خلودها؛ فالطبيعة ليست خالدة إنما الخالد هو الذي تدل عليه الطبيعة، الذي ترمز إليه الطبيعة بآياتها المتنوعة. ومثلما أن الزمن والتأريخ يمثلان الجزء المتحرك للخلود، فإن الطبيعة هي الوجه المرئي والمتغير للمطلق، الخالد.

كان التصوف مصرا على ذلك وهو يعطي الطبيعة من محاضن الإسلام الذي لا ينضب مكانة أحد الملائكة. وإن قرأنا يوما أن الصوفيين يتبرؤون من هذا العالم، علينا أن نضيف بأنهم «يتبرؤون» عنه بأنهم يقيمون سنوات طويلة في الأماكن ذات الطبيعة الأجمل! إنكم تلمحون في البوسنة على سبيل المثال، بأن التكايا فيها مبنية على الهضاب الرائعة، مجاورة منابع الأنهار، وباختصار، وسط المناظر الخلابة!

وفي مثل هذه الأماكن بالذات تسنح لنا الفرصة لإظهار دور التصوف في الثقافة الإسلامية، أي «ترجمة» الطبيعة الى الثقافة.

ولنتذكر بهذه المناسبة إحدى حكايات جلال الدين الرومي في «المثنوي» حيث كان عند أحد الحرفيين عامل أحول، ورغما من وجود قارورة واحدة فقط على الرف، إلا أن العامل سأل معلمه ردا على طلبه لإعطائه تلك القارورة: أية قارورة ترغب؟ اليمنى أم اليسرى! كان هذا يضايق الحرفي كثيرا فقال له ذات يوم : هيا يا عاملي، اكسر واحدة من هاتين «القارورتين»! وعندما كسر العامل «اليمنى»، اختفت القارورة «اليسرى» كذلك.

هذه واحدة من الحكايات الصوفية التي تتحدث كثيرا عن مكانة هذا العالم والعالم الآخر في الإسلام، وعن العلاقة بين الظاهر والباطن، وعن العلاقة بين الطبيعة والثقافة في التصوف.إن الإسلام في مساراته الروحية الرئيسية لا يعترف بأية تفرقة جزرية، أو أي التقسيم للوجود إلى وحدات منفصلة انفصالا واضحا عن بعضها البعض.إن العالم بمستوى وجوده مضمون بمستوى وجود آخر هو أرفع منه، أو بالأحرى، هناك مستويات كثيرة للوجود وهي مندمجة اندماجا منسجما في التوحيد.

ومما يلاحظ في جميع أنحاء العالم الإسلامي التي كان فيها تأثير قوي للتصوف إدماج الطبيعة في ثقافة الاسلام بأسلوب منسجم حيث لم يكن لينظر إلى الطبيعة والثقافة قط بشكل أحول! وحسبنا أن نرى انسجام الجوامع المبنية على الطراز التركي بما يحيط بها من المناظر الطبيعية، بطريقة لا تعرف فيها حدود الفصل بينهما، ولا يكاد بالإمكان التمييز بين المتحول والمتحول فيه، أتتحول الطبيعة في الثقافة أم الثقافة في الطبيعة! وقد كان التصوف وعلى الدوام مؤيدا لوحدة الاثنين، ومن خلال تلك

الوحدة كان المسلمون على مدى القرون يجدون طرق التوغل والبحث في عالم الروح.

وبفضل ترويج فكرة الطبيعة الثقافية والثقافة الطبيعية بالذات، فقد استولى الإسلام عامة والتصوف خاصة على مساحات واسعة من العالم بالمعنى الجغرافي والروحي على السواء.

٥

ولنلق الآن نظرة سريعة إلى دور التصوف في الحضارة الإسلامية فيما يخص مسارات الحكمة الخالدة.

لقد كان التصوف يجد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، أولا وقبل كل شيء، موقعا وموطنا للتعاليم والحكمة القديمة السحيقة. ومثلما أن الإنسان لم يحصل له على الأرض أي تطور جسدي بغض النظر عما جرى قبل وصوله الى الأرض، لم يحصل له كذلك، بناء على الفلسفات الخالدة، أية تغييرات جذرية، عقلية كانت أو روحية، ولا طفرات. هذا يعني أن الإنسان مقدور فيما يخص الحكمة الأزلية، وأن الحكمة مزروعة فيه مثل البذور، أو الشرارة، وبإمكان الإنسان أن يهمل تلك الشرارة، لكنه لايستطيع إطفاءها. الإسلام ، والتصوف في اطار الاسلام خاصة، يصران على الفطرة في الإنسان، وينبهان إلى الجانب غير المتغير في الطبيعة البشرية.

هذا يعني أن التصوف لا ينظر إلى الإسلام نظرته لدين جديد، إنما هو تواصل مستمر للإيمان برب واحد ،الوحدانية الخالصة

التي لا يكون فيها شيء مطلق غير الخالق سبحانه وتعالى! إن الحكمة الأزلية في الأديان والتقاليد غير الإسلامية، إذا كانت تقليدية وأصيلة بالفعل، بقيت بشكل شرارات غير منطفئة. واستطاع التصوف منذ البداية أن يميز تلك الشرارات في الهندوسية والبوذية واليهودية والنصرانية... ومع أنه عند ذلك، بطبيعة الحال،لا يقبل اضافاتهم الهيئية الخارجية، كالتثليث بمختلف أنواعه، إلا أنه يقبل ويدعو إلى الحوار بين التقاليد المختلفة. لكن الأمر هنا لا يتعلق بالحوار المبتذل الرامي إلى تكوين دين جديد مشترك بل بحوار له طابع ما وراء التأريخ، وهو ما تحتاج اليه البشرية اليوم بشدة.

إن الفكر الصوفي وروحانيته الأزلية قد زودا الطرق الصوفية في الإسلام، والمسلمين العاديين كذلك، بإحساس أزلي حاد وعادل بالحقيقة. ومثلما أن التلميذ في صناعة من الصناعات يعلم عن طريق معلمه أنه من الممكن صنع صنم من الحديد، ولكن ليس من الممكن صنعه من القوة المغناطيسية اللامرئية، كذلك فإن المسلم العادي يعلم من إمام محلته الآية «...وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون» (سورة الأنبياء ٣٠)، وأنه يستحيل صناعة الأصنام من الماء كذلك. إن الحالة الصلبة للماء، وهي الجليد، وإذابته إنما تكشفان عن كل ما يصير إليه عدم المعرفة بالدين الحقيقي وبالواحد المطلق. التصوف ليس في الحقيقة سوى ذلك الدفء اللطيف في الإسلام الذي يزود المسلمين بقوة إذابة الأصنام الفكرية وطواغيت الواقع. التصوف هو النور الذي تظهر به جميع الأشياء في مراتبها المناسبة وفي مجاميع الوحدة. وإن تعاليمه الأزلية صلب ذلك النور.

اليوم، في العصر الذي غالبا ما يسمونه بالحديث، بل بفظاعة أكبر، ما بعد الحديث، تستطيع التعاليم الصوفية الأزلية والنظر للأشياء نظرة القدامى الأوائل والذين كانوا يرون الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة، أن تساعد كثيرا في تذكير الانسان بدوره الأولي كشاهد على الله سبحانه وتعالى.

عندما يتعلق الأمر بالإسلام نفسه وحضارته اليوم، فإن التصوف يضمن لهما بشكل دائم نضارة إضافية، ويغسل وجوه المنظومات العقائدية الإسلامية من الخارج ويقويها بشرابات منعشة من الداخل. لقد منح التصوف العقل العقائدي في الاسلام قلبا وعقلا وبذلك أنقذ الإسلام من اضطهاد الرب العقائدي وظلم العقائد المجردة من الروح!

وإضافة إلى ذلك، فقد ساعد التصوف على مر العصور على أن يتم ذكر الحقائق الاسلامية الرئيسية والحكم الإسلامية الأزلية في الحدائق الجميلة، مثل حدائق البوسنة أو الأناضول، وساعده كذلك بأن لا يذكر علماؤه ما توصلوا إليه من المعارف وهم واقفون على أخشاب المصالب وأعواد المشانق والمقاصل، كما كانت الحالة في أوروبا لقرون عديدة.

من كل ذلك، سيكون للتصوف فرصة في مستقبل الحضارة الاسلامية لمساعدتها في انتشار وازدهار مزارع الورد الفكرية الحكيمة والعقلانية.

مسؤولية العقل واللامسؤولية
لدى المفكرين المعاصرين

نعيش في عصر طبع العالم فيه باختراعات العقل البشري ومنتوجاته بشكل لم يشهده من قبل، لذلك يسمى عصرنا الشامل «العصر الحديث»، « ما بعد الحديث»، «المدنية التقنية»، «عصر نهاية التأريخ»... الخ، وعلى كل حال فإن أقل قاسم مشترك لكل تلك التعابير هو حكم وسيادة العقل العلمي للانسان على الأرض.

لم يغتصب هذا الشكل العقلي أشكالا أخرى للعقل البشري فحسب، بل اغتصب أيضا جميع الأشكال الأخرى للوجود الانساني.

أصبح العقل العلمي والتقني قاضيا على كافة الأشكال الأخرى للعقل البشري، وكل الأشكال الأخرى لكينونة الانسان ووجوده.

يهدف نقاشي هذا الى لمس واحدة فقط من الصفات الكثيرة للعقل العلمي، ألا وهي استهتاره العالمي.

٢

إن مسؤولية العقل كوظيفة أساسية للإنسان وكوديعة له ظاهرة مستمرة نجدها في الآثار المدونة للإنسان على سطح الأرض منذ

الوقت الأول الذي يمكن فيه متابعتها. لقد وضعت الكتب القديمة والنصوص المقدسة مسؤولية العقل الانساني في صلب الوجود الانساني. فينظر الوحي الالهي والرسالات الربانية إلى الانسان نظرتهما إلى الكائنات المسؤولة؛ بل أكثر من ذلك، إن أخذنا من بين الأسئلة مثل الإنجيل والقرآن، وجدنا أننا نقرؤهما وبشرعية تامة كوصايا سماوية تلزمان قلب وعقل الانسان على المسؤولية.

الأكثر من ذلك، أن القرآن والانجيل يتضمنان مسؤولية الانسان حتى وهو في الجنة، حيث وضعت أمامه شجرة منع هو وزوجته الاقتراب منها! ومن أهم ما ترمز إليه هذه الشجرة مبدأ المسؤولية.

إذن فإن النصوص المقدسة هي تلك المصادر الأساسية التي يعود إليها اعتبار الانسان كائنا مسؤولا. والا فلماذا أنزلت عليه تلك النصوص أصلا؟!

تمّ في تأريخ الانسان حتى الآن عشرات الحضارات والثقافات العظيمة التي حوت في أساسها نصوصا مقدسة من أمثال الفيدا (الكتب المقدسة للهندوس) والانجيل والقرآن، وقد كانت جميعها حضارات مربية للإنسان، علمته المسؤولية، أو بعبارة أخرى، تلك حضارات صنعها الإنسان ذو العقل المسؤول. كان يوجد في تلك الحضارات شيفرات متعددة الجوانب للمسؤولية، مترجمة الى لغة بسيطة يمكن تبيانها بقاعدة جوهرية: الانسان مسؤول أمام الله وأمام الطبيعة وأمام البشرية وأمام ذاته نفسها...

إن عبء مسؤولية الانسان الموجود في الثقافات والحضارات التقليدية نراه بوضوح خاص في الأعمال الأدبية للعصرين الأوسط والقديم.

ونستطيع أن نتذكر بسهولة كيف تم التعامل هناك مع الانسان ككائن توّاب ومدرك للذنب ومسؤول ومدرك لحق الغير... وأتذكر هنا «ألف ليلة وليلة» والطاقة البنائية التي تضمها صفحات ذلك الكتاب الكبير، الطاقة التي تؤديها الشخصيات الأساسية هناك بحث كما يقال عن السعادة المسؤولة. في «ألف ليلة وليلة» لم تنس ولا حتى سعادة السمكة الصغيرة، ولا المتسول، ولا الملك، ولا النباتات، ولا الملائكة، حتى أن سعادة الشيطان لم تنس... باختصار، حتى أنه لم تكن الآثار الأدبية في الثقافات القديمة الأخرى وفي العصور الوسطى نادرة، التي اعتمدت في تركيبتها الداخلية التفتيش عن السعادة المسؤولة. وأنا تحت عبارة «السعادة المسؤولة» أعني السعادة التي تدخل في حسبانها البقاء الكريم للآخرين.

يعرف السادة المستمعون الذين ألقي عليهم هذه المحاضرة بأن المفاهيم القديمة للعلوم قد اعتمدت بدقة على المسؤولية. هذا يعني، أنها كانت علوما مسؤولة. العلم الذي روّجه ابن سينا حول ذلك، البيروني أو كونفوشيوس كان علما مسؤولا. ولدينا أدلة كثيرة على ذلك، ويكفي ايراد واحد منها فقط: لم تنتج الحضارات والثقافات القديمة وعلومها أي شيء غير قابل للفناء بشكل طبيعي. ظاهرة الأكياس البلاستيكية التي لاتستطيع الأرض اتلافها، هي أمر غريب على العلوم القديمة، ولأجله تم تكرار ذكر عامل المسؤولية بكثرة!

وباختصار، إن نوع العلم المبدع الهائل والسلوك في التفكير والعقل العلمي المعاصر، بل في عموم العلوم المعاصرة، لم يكن حتى طابعا جانبيا لعقلية الانسان في العصور القديمة والوسطى،

بغض النظر عن ذكر الإبداع الهائل في الأساطير اليونانية في العصور الوسطى. ماذا يمكن أكثر أن يقال، ذلك أن تلك الخرافات نفسها تذكر الإنسان أساسا بالمسؤولية.

٣

الصفة الأساسية لعلوم اليوم هي عالميتها، بل استهتارها الذي تجاوز العالمية. ففيزياء اليوم تقتل، هذا ما تعرفنا عليه من المعلومات القليلة المتناثرة المنشورة عن مفاعل تشرنوبيل، وكيمياء اليوم تقتل، هذا ما عرفناه جراء انفجار أحد المصانع الكيميائية مؤخرا في الهند، حيث خنق الغاز آلاف البشر؛ يقوم اليوم علم الوراثة على قدم وساق بعمل الاستنساخ الشيطاني... كل هذه الأخبار معروفة، ويمكننا القول بأنها أخبار سلمية اعتيادية.

لسنا بحاجة هنا إلى أن نخص بالذكر بأن المشكلة البيئية اليوم أصبحت عالمية، لأنها فعلا أصبحت قدر البشرية اليوم أيضا!

من جهة أخرى، إن تطبيقات الفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء ... في الحروب أشد إرعابا: فقد عشنا في هذا القرن وحده حربين عالميتين وقنبلتين ذريتين، بينما فاق عدد التجارب السلمية لهذا السلاح أكثر من ذلك بكثير.

على كل حال ، لسنا بحاجة هنا الى اجراء توصيف لهذه الاشكاليات، والعجيب هنا حقيقة هو أن هذه المشاكل معروفة، لكن الحلول مجهولة، وهي غير معروفة للقسم الأعظم من البشرية على الأقل! ولايجري البحث أيضا عن الحلول بمسؤولية، إضافة إلى عدم توجه العقل المسؤول للبحث عن ذلك.

نحن ننطلق هنا من افتراض أن الاستهتار العقلي للعلوم الحديثة شامل في العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية على حد سواء، وأصبح هذا الاستهتار قدر الإنسان اليوم أكثر وأكثر ليتجاوز حدود العالمية.

إن التقدم العلمي واضح في كل مكان، لكن دون أن يصاحبه تقدم أخلاقي، أو كما قال تيودور آدورنو: من صناعة القوس والسهام الى صناعة القنبلة الذرية تم في الحقيقة احراز «تقدم». لأنه بهذه القنبلة يمكن قتل أعداد كبيرة من البشر. أي أن المشكلة تكمن في غياب التقدم الأخلاقي للبشرية!.

اسمحوا لي بتقديم بعض الأمثلة على استهتار العقل العلمي لعصرنا الحالي، الذي من المقدور متابعته بوضوح في العلوم الاجتماعية.

إن نظرية صاموئيل هونتينغتون عن «صراع الحضارات» تعمل مراكز قوى كثيرة على الترويج لها اليوم بشكل هجومي في وسائل الإعلام العالمي. إن ترويجها يشابه اللامسؤولية ذاتها في ترويج النظريتين الفاشية والشيوعية عشية القرن العشرين. تعتبر نظرية «صراع الحضارات» لامسؤولة اتجاه جميع مرافق الحياة الإنسانية، وهي هجومية بشكل مشابه للنظرية الفاشلة مؤخرا عن «صراع الطبقات»، والأكثر من ذلك، إن نظرية هونتينغتون تمثل صدى بعيدا للحزن على الأزمنة المتصفة بثنائية العالم السياسية والاقتصادية والعقائدية... والتي نشأت على أنموذج التقسيمات القديمة للعالم، الى «الاغريق والبرابرة»، «المتمدنين والمتوحشين» الخ. يتبع هونتينغتون مدرسة العلماء الذين يتأملون تأريخ العالم

ويقرؤونه من خلال «عدسة الصراع» البائسة الضيقة، لذلك فإن المروجين له اليوم في أمريكا ليسوا سوى أناس ختمت عقولهم بمنطق «الحرب الباردة» وفي الجهة الأخرى، يرحب به الشيوعيون السابقون، ويستقبلونه كزوج محترم لأنه يؤكد مجددا على أن العالم مؤلف في الحقيقة من صديق عالمي واحد وعدو عالمي واحد. وقد قام أنصار هونتينغتون على منح الاسلام دور العدو العالمي على أية حال!

إلا أن هونتينغتون له في ذلك أسلاف، فمنذ حوالي ثلاثين سنة ظهرت في الغرب، ولا سيما في أمريكا، مجموعة من العلماء من ذوي النفوذ في العلوم الانسانية، وغالبيتهم من المؤرخين وفلاسفة التأريخ، وضعوا هدفا أساسيا لأنفسهم «التعريف» و «التنبؤ» بالتطورات المستقبلية «للتأريخ العالمي»، إلا أن هؤلاء ليسوا بأولئك «المستقبليين» أو «علماء المستقبل» المشهورين من قبل، والذين كان يوجد منهم الكثيرين في أمريكا ومناطق أخرى، بل هم علماء يحتلون مناصب رفيعة في مؤسسات التخطيط والدراسات الاستراتيجية.

تابعت هذه المجموعة من العلماء بدقة وانتباه «اضافة الى التخطيط والتشجيع» انهيار الامبراطوريات الشيوعية الكبيرة أو الصغيرة. وظهرت خلال عشرين سنة مجموعة ضخمة من المؤلفات التي وجهت مسارات تحرك أمريكا والعالم. فهل نشأ عالم أحادي القوة؟ اذا كان الجواب نعم، فكيف يمكن التحرك في عالم أحادي القوة، في عالم بلا قطبين للانحياز الى أحدهما؟ وهل من الممكن قبام عالم القوة الواحدة حقيقة، وكيف يمكن منع العالم من التحول الى عالم أحادي العنف؟

هذه بعض الأسئلة التي عمل عليها الكثيرون حتى قبل هونتينغتون، مثل فرانسيس فوكوياما في كتابه «نهاية العالم والرجل الأخير» حيث أطلق فيه نقاشا عن «نهاية التأريخ». فاشتهر لذلك جدا في أمريكا، ولأن هذا الكتاب منح بين سطوره دورا قياديا لأمريكا، قائلا بأن أمريكا هي القوة التي «تنهي تأريخ العالم» ولكنها أيضا القوة التي «تعبّد طريق ما بعد التأريخ» ذلك «العالم الجديد»، ومنح أمريكا دور القائد الجديد لاجتياح العالم خلال المستقبل!

إن فرضيات فوكوياما متفائلة ومتشائمة في آن واحد، وأصبح مشهورا لأن الأمريكيين (وغيرهم كذلك) يفضلون قراءة الرسائل المتفائلة في كتابه. لكنه هو مثل هونتينغتون وكثير غيره لم يطرح أسئلة كثيرة، ولم يقدم إجابات موفقة لكثير من الأسئلة، أو بالأحرى لم يقدم إجابات أصلا.

إن الصفة العامة لفرضية «صراع الحضارات» هي في الحقيقة إعطاؤها صفة البديهية والطبيعية! تماما كما كانت نظرية «صراع الطبقات» بديهية، فهي ابتداء وبشكل بديهي صحيحة، وتم تسويق فرضية « صراع الحضارات» على أنها الحل الوحيد الممكن للعصر في القرن الواحد والعشرين ومابعده.

لماذا ينظر صناع فرضية «صراع الحضارات» إليها بهذا الشكل؟

لأنهم مدعومون بوسائل الاعلام، ولأنهم يروجون بلا مسؤولية «لصراع الحضارات» ليس على أنها إحدى الرؤى للكثير من رؤى المستقبل، بل كرؤية لقدر لا يتغير! وكأنه يقال لنا: إن «صراع

الحضارات» قادم لامحالة، وإنه المصير الذي سيصيبنا جميعا، لذلك فلا خيار ولا مخرج لنا، علينا التصرف كما تعاملنا أيام الاشتراكية والشيوعية، فإما نحن متقدمون أو أننا متخلفون، إما نحن برجوازيون أو أننا طبقة عمالية كادحة، إما أننا سندخل الى جنة الشيوعية أو أننا لن نكون... لا يوجد خيار ثالث، لا يوجد خيار رابع، بكل بساطة لا خيارات...

لكن، لايجب قراءة هونتينغتون بالطريقة التي يقترحها هو لقراءته، لأنه يرغب أن يكون منظرا لواحدة من النظريات السياسية – التأريخية، التي ستغير الألفية بين ليلة وضحاها. ينبغي التصرف والعمل بها دون السؤال عن صحتها، وبشكل أقل عن مصداقيتها ومسؤولية افتراضاتها، فاخترع للغرب عدو مميت، كالإسلام أو الكونفوشيوسية، أو (حتى الآن) الصين الشيوعية، الأرثوذوكسية أو حتى البوذية النائمة.

إن من يقرأ هونتينغتون بهذه الطريقة (فإن كان من المسلمين على سبيل المثال)، ومن يعتقد بأن الغرب هو كما صوره هونتيغتون، فإنه يرضى أن تتم قراءة الإسلام والكونفوشية والبوذية... بعيون هونتيغتون. وبهذا يتم إسداء خدمة وتسويق لفرضيات هونتيغتون. وهكذا فبالحقيقة يقرؤه الكثير من المسمّين بالمسلمين المتطرفين، الذين ظهروا على خريطة «صراع الحضارات» المؤمنين بأنه قاب قوسين أو أدنى من بدايته!

يظهر التناقض في نظرية هونتيغتون بوضوح جراء احتفاله بنهاية العالم ثنائي القطب، وكذلك يشاهد التضارب أثناء نظرته بتشكك كبير عند رؤيته لنجاح وانتشار وشجاعة النماذج

الديمقراطية في أرجاء العالم الأخرى، في مناطق الاتحاد السوفيتي الشيوعي السابق، ثم في بلدان العالم الاسلامي، والدول البوذية الكونفوشيوسية... ولكن، لايمكن البقاء شرفاء النية عند القيام بعملين مختلفين في آن واحد: الاحتفال بانتهاء ثنائية القطب واحدى الحروب الباردة، وتسويق واحد من القطبين الثنائيين وحرب باردة أخرى من جهة ثانية! يقوم هونتيغتون نفسه بهذا وينادي في كثير من الأماكن في كتاباته «الغرب ضد الآخرين»! ألا يذكرنا هذا بشعار «العالم الحر والقابع خلف الستائر الحديدية»؟!

ليس فقط على هذا يوجه نقاده المحترمون الانتباه، أمثال روي متهاديه الأستاذ في جامعة هارفارد، والمستشرق اليهودي برنارد لويس... الخ، بل انهم يطرحون الأسئلة التالية عليه: أو لا، هل أن العالم ثنائي أو ثلاثي القطب قد انتهى فعلا؟ وثانيا، إذا كان قد انتهى فعلا، فما هي القطبية الثنائية للعالم التي نشأت؟ ثنائية القطب (ثلاثية الأقطاب، متعدد الأقطاب) فالقنابل الذرية والهيدروجينية ما زالت موجودة بالرغم من الغياب «الظاهري» لعالم العقيدة ثنائية القطب!

إن عالم العقيدة ثنائية القطب، كما يتابع نقاد هونتيغتون قولهم، كان بمثابة قناع لستار يترنح للثنائيات القطبية الحقيقية، ثلاثية الأقطاب، الخ. ان الثنائية القطبية الأكثر واقعية (والتي لم تتلاشى)، هي الاقتصادية بالطبع. الدول المتقدمة وحدها هي المستفيدة الأكبر من ثروات العالم (بأي حق؟)، وباقي الدول المتخلفة ليس لهم من العالم سوى النذر اليسير!

هذا ومن السهل جدا استبدال العقيدة الشيوعية بأي كلام

عقائدي آخر. يقرر هونتيغتون مخطئا بأن الأرثوذوكسية كحضارة ستحل مكان حطام عقيدة «صراع الطبقات» الشيوعية للاتحاد السوفيتي، لكن الذي رأيناه هناك لحد الآن ليس سوى ظهور الأرثوذوكسية كعقيدة غير مصاغة بصورة جيدة وليس كحضارة، كما رأينا كذلك وصول الطغمات القومية والتكنوقراطية إلى حلبة الصراع السياسي، إما هذه وإما تلك أو كلاهما معا!

وضع صاموئيل هونتيغتون في كتابه «صراع الحضارات» الإسلام والصراع مع الإسلام في الموقع المركزي من نقاشاته. فكما أنه أخطأ مع الغرب عندما نظر إليه منسجما، أخطأ بشكل فاضح بنظرته الى العالم الإسلامي، عندما تصور أنه كتلة متناغمة متأهبة لاحتلال الغرب، وفي الحقيقة أعطى هونتيغتون العالم الإسلامي - بشكل ما- دورا نديا للغرب مشابها لدور العالم الشيوعي السابق.

ولا يتساءل هونتيغتون عند ذلك: هل الذي يؤكده صحيح ومسؤول حقا!؟

إن نظر هونتيغتون إلى الإسلام اليوم عبر المنظور الحلفي منعته من ملاحظة ما في داخل العالم الاسلامي ذاته من التباين والتناقض اللغوي والثقافي والعسكري والاقتصادي والسياسي والعرقي والطبقي والقبلي. كانت هذه التناقضات ثروة في بعض الحقب التأريخية، وكانت عائقا في أحيان أخرى - فالأمر يتعلق بمن وكيف ومتى ينظر إليها - مع وجودها على كل حال.

إن هونتيغتون يمحو كل هذا باستهتار، فعنده جميع العرب مسلمون (يوجد من العرب عشرون مليون نصراني، يتقاسمون مع

مواطنيهم المسلمين الشر والخير)، وعنده جميع المسلمين كما يسميهم أصوليون (علما بأن المسمين بالأصوليين يعانون أكثر شيء حتى الآن من المسلمين الآخرين في الحقيقة، ومن طرف الأنظمة الإسلامية ذاتها والمسمّاة بالدول الاسلامية)، والأدهى من ذلك، اعتباره أن جميع الفرس شيعة، مع وجود شعوب كاملة أخرى تتكلم الفارسية، وهم سنيون متعصبون (فغالبية الطاجيك مثلا سنيون ينطق معظمهم واحدة من اللهجات الفارسية)، أو حتى أن شعوبا أخرى تتكلم التركية وغالبيتهم شيعة متعصبون (كالأذريون).

وبناء على ذلك، فإن هونتيغتون لا يعلم أصلا بأن ممثلي الشيعة الأكثر تحمسا لا وجود لهم في فارس، ولكنهم بين العرب الشيعة الذين يعدون بالملايين!

ينظر هونتيغتون إلى العالم الإسلامي على أنه منسجم، تماما كما ينظر إليه (لكن لدوافع أخرى، مع النتائج الممكنة المماثلة) المسمون بالأصوليين المسلمين أو السلفيين أو المتطرفين. لكن كما أنه لا يمكن إطلاق صفة الانسجام على أي عالم إنساني آخر، فلا يجوز محاصرة العالم الإسلامي بهذه الصفة.

وعلاوة على هذا، عند النظر إلى واقع مسلمي اليوم، نجد أنه بين المسلمين يوجد المتحرر والملكي والاشتراكي والشيوعي والبعثي والقومي القبلي ونصير الخيار القبلي والعلماني ومايسمى بالأصولي... الخ.

يهمل هونتيغتون كل هذا، فهو لا يحب الحديث عن صراعات وحروب المسلمين فيما بينهم، فهو لا يقرأ أي شيء من افغانستان،

وحتى أنه لم يذكر مشكلة الأكراد، ويهمل ذكر الحرب العراقية – الايرانية... الخ، يخرس عن كل هذا لأنه لا يتطابق مع فرضية «صراع الحضارات» ولا يتوافق أيضا مع فرضية «الإسلام المتناغم والمنسجم».

ومع أن هونتيغتون لا يستحق الكثير من الانتباه. إلا أن هذه الضجة الإعلامية القوية والتسويق الذي يجري له في كل مكان لها أهمية بالغة، إن أحدا ما يقف بلا مسؤولية خلف تلك الضجة لهدف وغاية محسوبين، فهل يا ترى أن هونتيغتون ذاته هو بالونهم التجريبي أم أنه سهمهم المشدود!

لكن، إن النص الأكثر جدية من فوكوياما وهونتيغتون ذلك الذي قدمه زبيغين بيرزيزنسكي المسؤول الأمريكي الحكومي في أيام ولاية جيمي كارتر، عندما ذكر في كتابه «خارج السيطرة» فهو لايتنبأ ولا يضع في المستوى الأول «صراع الحضارات» ولكنه وبكل اختصار مرعوب حتى العظم من إمكانية تحرك العالم خارج نطاق السيطرة، مع خشيته من السيطرة الزائدة. لذلك فهو يخشى من الشرور الممكنة للبشرية غير المنضبطة واللامسؤولة.

لا يلعب بيرزيزنسكي على بطاقة هونتيغتون القائلة بأن مشكلة الغرب تكمن في: روسيا والعالم الإسلامي والصين، وتجد أمام روسيا كذلك مشكلة العالم الإسلامي والصين، وبخلاف هونتيغتون فهو لا يرى بأن تغذية «صراع الحضارات في آسيا» سيجعل الغرب يجني «حصادا ثمينا»!

إن هونتيغتون هو صرعة لامسؤولة، وتقليد لامسؤول قبيل تغير الألفية. لن يتحارب العالم حول الحضارة، لأن الحضارة والثقافة

إنما يأتيان عادة عقب ذلك. كقول مينيرفين سوفولياغا: إن كل الذي يحصل لاحقا «يشرح ماقبله». لكن وللأسف، الملوك والأمراء والرؤساء والقادة العسكريون، الدول والشعوب، وباختصار العالم نفسه، سيحاربون لأجل الأنهار والبحار والبحيرات والطرق والنفط والثروات الأخرى... الخ.

بطبيعة الحال، حتى الحروب حول الحضارات والأديان (لم لا، فنحن نعلم كيف أن حربا نشبت إحدى المرات بسبب مباراة لكرة القدم في جنوب أفريقيا!)، ومع ذلك ستكون هناك حروب بكل تأكيد، لكنها جانبية.

ونحن نختم قول هونتيغتون، بقولنا إنه لم يدخل الله سبحانه وتعالى في حسابه مطلقا، الحاضر في كل مكان، المحيط بكل شيء، السرمدي، الموجود فوق زماننا الأرضي. فلا بد من عمل حساب لله سبحانه وتعالى!

ولإزالة نظرية «صراع الحضارات» بشكل مناسب من المسرح، لا بد من أن نطرح عليها بعض التساؤلات:

ألا تحوي ربما فرضية «صراع الحضارات» كمصير لا مفر منه حل بالعالم، معنى يتضمن محاولة العفو عن أنصار مايسمى «التنظيف العرقي» في البوسنة، أو راوندة من قبل، أو في ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية؟

ألم يتم تصوير «صراع الحضارات» اليوم بالطريقة ذاتها التي صوّروا بها سابقا «صراع الطبقات» كنقطة إجبارية على عجلة التأريخ العملاقة التي تدوس كل شيء، كقوة ظلامية وعمياء لامسؤولة، تقتحم علينا زماننا، ولا أحد يعلم السبب.

هل أنهم يعدون بنظرية هونتيغتون وينسقون خطة تقسيم العالم، وهل يخطط بها جعل القرن الواحد والعشرين قرنا للبؤس والحروب؟

٤

نحن هنا ننظر مع ذلك إلى «نظرية الصراع» بشكل مختلف. نحن نؤكد عدم وقوع صراع بين الحضارات التقليدية، وأنه ستحدث توترات هائلة، بل وصراع بين الحضارة التقنية الحديثة من جهة، والحضارات التقليدية من جهة أخرى - حسب تأكيدات الكثيرين من نقاد هونتيغتون - من بينهم سيد حسين نصر. إلى صراع بين الحضارة التقنية والحضارات التقليدية الأخرى (الشينتو «الديانة الأصلية لليابان» الكونفوشيوسية، اليهودية، النصرانية، الاسلامية... الخ) على عدة مستويات: قانونية، أخلاقية...

فأين تقع لامسؤولية عقل الحضارة التقنية؟ أين وفي أي شيء يكمن فشل الحضارة التقنية؟

الأجوبة متوفرة على كل حال، لكن ذلك الفشل يكمن حسب اعتقادنا في روحها المتجبرة المبتكرة! وفي عدم مسؤوليتها أمام أي طرف، ولا حتى أن تكون مسؤولة أمام ذاتها.

أتذكر إحدى الوقائع الفظيعة، عن خبر امرأة قادرة على حمل طفل، لكن مع عدم تمكنها من إتمام حمله حتى موعد الولادة. قدم العلماء حلا لها، وهو إخراج جنينها وزرعه في رحم أمها! وقد تم إجراء ذلك فعلا. وعندما وضعت الجدة وليدة أنثى أحسّت نحوها

بعاطفة الأمومة، لكن وليدتها في الحقيقة لم تكن مجرد حفيدة ولا إبنة فقط... بل هي أيضا وليدة لإبنة الجدة، التي حملته أصلا مع زوجها، فهل الوليدة هذه شقيقتها أم إبنتها ؟!

لمن تتبع هذه المولودة قانونيا ؟

بعد هذا تتتابع جميع الأسئلة الأخرى التي يطرحها القانون والأخلاق والدين والعرف وعلم التربية...

لقد وصلنا الى هذا الوضع اللامعقول، بعدما نظرت الحضارة التقنية الى الإنسان كنظرتها إلى الحاضنة الكهربائية، أو كأنبوب اختبار عادي، ونظرتها إلى الطبيعة بأكملها كحقل تجارب لتحقيق جميع رغبات البشر.

يعتب على هونتيغتون عدم تنبؤه بصراع حضارات آخر، وللأسف، ليهدد به البشرية، صراع الحضارات التقنية من جهة، وجميع الحضارات التقليدية والطبيعية من جهة أخرى!

يوجه كثير من العلماء الأنظار اليوم حقيقة إلى الصراع الحقيقي الوحيد، القائم فعلا، والذي سيكون حسب جميع المعطيات مطبقا في القرن الواحد والعشرين، وهو صراع التقنيات ضد جميع الحضارات التقليدية للبشرية.

ليست مجهولة للرأي العام العلمي كتب ونظريات فلسفة الخلود اليوم، الفلسفة والحكم اللتان تذكران اليوم بالروحانية المقدسة، والعلوم المقدسة، والحاجة للمحافظة عليها في العالم كله وفي الغرب بشكل خاص.

لهذا حاول مارتين لينغز في فرضياته إيقاظ الأرواح النائمة

في الجامعات المحافظة والتقليدية، الأساتذة الجامعيون العاملون في حقل العلوم الانسانية، وبنفس المستوى أولئك المسؤولون عن الأقسام المسماة بالعلوم البحتة (الكيمياء، الفيزياء, العلوم التطبيقية... الخ) مارتين لينغز سوية (مع سيد حسين نصر، فريثيوف شون، ويتال ن. بيري، توشيهيكو ايزوتسو، غينتر آنديرس، لويس مومفيرد، ميرسيا ايلياده، وكثير غيرهم) يتحدث عن فقدان جوهر العلم المقدس من العلوم المعاصرة وفي الحضارة التقنية وفي التفكير المعاصر عموما. فحسب رأيه، هذه هي السمة الرئيسية لعصرنا الحالي والزمن القادم، وليس «صراع الحضارات» الذي يدعيه هونتيغتون. وبناء على المتوقع مجيئه في الأزمنة القادمة، وبدون أي تشف يتوقع فلاسفة الفلسفة الخالدة «لصراع الحضارات» أن تصبح مجرد مزحة، وشيء تافه لا قيمة له!

وفي إحدى كتبه الصغيرة الحجم، وتحت عنوان « الايمان القديم والخرافات الحديثة» يطرح مارتين لينغز أسئلة أرفع من كونها مجرد ثرثرة: هل ستتصارع الحضارات في القرن الواحد والعشرين؟ وهل ستطلق البشرية نيرانها على مايسمى «الخطوط المختلف عليها بين الحضارات».

يعتقد مارتين لينغز أنه من المهم جدا معرفة خط الالتحام المحتمل تشققه على المستوى العالمي، ذلك الخط الناتج عن الانتشار المتسارع للتقنيات غير المسؤولة الذي يصعب ايقافه – التقنيات كالقدر لايمكن ايقافها، حتمية، شرهة، لا تأبه بأحد!

انشغل هذا الحشد من المفكرين لعدة قرون بالتنبيه ليس على مشكلة «صراع كثير من الحضارات الواحدة ضد الأخرى» بل

على مشكلة صراع حضارات اليوم التقنية من جهة، وجميع الحضارات التقليدية والحقيقية المتنوعة للبشرية من جهة أخرى.

لقد أصبحت التقنية المعاصرة الجامحة، الشرهة، اللامسؤولة، قدرا فظا، وفوضى توحد البشرية، تهاجم وتستأصل جميع الفروقات النافعة للبشرية، الموجودة في الأديان، الثقافات، اللغات، الأوطان. يؤكد هؤلاء الفلاسفة بأن الحضارة التقنية ومنذ زمن هي في صراع مع البشرية (تشيرنوبل ليس إلا خبرا من الأخبار المعروفة)؛ لذلك سيطرت الحضارة التقنية أو أنها تسيطر على جميع الحضارات البشرية الحقيقية، وأصبحت للأسف حسب جميع المعطيات الحضارة العالمية الوحيدة في الواقع على الأرض، وعلى البحر وعلى الهواء وعلى الفضاء! تشن الحضارة التقنية المعاصرة حربها ضد جميع الحضارات البشرية الشرعية الأخرى، متحدية كل شيء، ولنفسها أحيانا، بأسلوب متغطرس مبتكر، وبمباركة من العقل اللامسؤول، المترافق بدعم من العلوم اللامسؤولة التي أحكمت الحصار على العالم، اتنتج عنها إفرازات لا يمكن توقعها على كل حال.

ماهي الفروق الرئيسية بين الحضارة التقنية والحضارات والثقافات التقليدية الكثيرة للبشرية؟

أولا، في الهدف الموضوع. الحضارات القديمة والحضارات التقليدية (كالحضارة الأستيكية في المكسيك، المايانية في غواتيمالا الشمالية وهندوراس، الأنيكا، الصينية، اليهودية، النصرانية، الاسلامية) التي استجابت لها البشرية على مر الزمان وحتى الآن بأعداد هائلة، كان لها أسرارها في الهدف أو الأهداف التي لم تتحقق على هذه الأرض فقط، بل أبقت الكثير للإنسان

في الأجيال المتعاقبة القادمة، وأبقت الكثير أيضا للإنسان حتى في عالمه الآخر، لعالم الآخرة. كما يذكر القرآن الكريم «وأن ليس للإنسان الا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى» سورة النجم ٣٩-٤٠). وبعد ذلك وإضافة إلى ما سبق، يوجه الأنظار إلى إمكانية انزلاق الإنسان في الطمع واللامسؤولية، لذلك نظرت الحضارات القديمة بمسؤولية إلى هذا العالم: ينظر إلى هذا العالم على أنه مخلوق، كالإنسان ذاته، وهو بمثابة شيء مقترض من الأحفاد وأحفاد الأحفاد، وعلينا واجب إعادته اليهم كاملا غير منقوص) كما قال مؤخرا أحد الزعماء الهنود.

إن الحضارة التقنية في هجومها اللامسؤول وحربها للسيطرة على هذا العالم تحاول حرمان العالم، والإنسان ذاته، من كافة الأسرار، إذا كان ذلك ممكنا.

تحرمه مما هو مقدس وما هو محرم وما هو غريب.

تحرمه من التشوق للأبدية والأسرار الغيبية.

إن ما يجري في العالم من عملية إخضاع كل شيء للمعارف البشرية ليس في الحقيقة إلا إحدى النتائج الكثيرة للصراع وحرب الحضارة التقنية ضد الحضارات التقليدية للبشرية.

ثانيا، كانت الحضارات التقليدية حضارات تربوية: علّمت الإنسان المسؤولية. فالعلم المسؤول بطبيعته علم مؤطر ومحدود، معرفة ليست مستقلة في جميع مستويات وجودها. وكانت الحضارات القديمة تعلم الإنسان هذه المعارف ولم تجامله بقول أنه قادر على تعلم كل شيء، أو اكتشاف كل شيء، أو الوصول الى

كل شيء، لأن الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم: « ...وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الإسراء ٨٥).

أما اليوم فقد اختفت من العديد من المناهج العلمية روح المسؤولية فيما يخص المعرفة، ولا سيما المسؤولية المتصلة بالجذور المقدسة للمعرفة. المعرفة ذلك النور المهم الذي عليه أن يرشدنا الى جادة الجمال والمعاني والأمان، وقد حوّله الاستخدام اللامسؤول الى ظلام تقود الى الهاوية والضلال واللامعقول!

إننا قد توغلنا بعيدا في عصر الاستنساخ، عصر البيع المربح للأعضاء البشرية، عصر انتصرت فيه الأرباح على الأخلاق في كل مجال... الحضارة التقنية تعمل بآليتها الداخلية لايمكن إيقافها...

عندما ينظر المرء اليوم إلى القوة الرهيبة للحضارة التقنية الحديثة، فإن عدة أسئلة تطرح نفسها:

- هل تتعمق وتتضخم نوعية المعرفة والتعرف على الأشياء بشكل متناسب مع الكم الهائل للمعرفة عنها، وكذلك بشكل يتناسب مع المعرفة الضخمة عن المعرفة ذاتها.
- هل توقفت معرفة اليوم عن كونها معرفة نوعية؟
- هل أن المعرفة العلمية الحديثة هي معرفة منقذة؟
- هل أنها أراحتنا بنفس المقدار الذي زادت فيه مقدرتها بالسيطرة على الأبعاد الكمية للعالم.
- هل أن المعرفة العلمية الحديثة ليست في حقيقتها إلا واحدة من الخرافات التي لا تأبه بالمعتقدات القديمة التي قادت البشرية آلاف السنين نحو معنى الحياة الأصيلة.

إن تحليل وتفصيل هذه الأسئلة في الانتقادات التي وجهت مؤخرا للحضارة التقنية الحديثة تصيب مجال الإيمان والأديان، والفلسفات، والقانون، والبيئة، والاقتصاد، ورجل الدين، والفيلسوف، والقانوني... وهذه الأسئلة صعبة ومرعبة، وتتضاءل أكثر إمكانية معرفة الإجابة عنها.

يصبح العالم متاهة للعقل التقني وهذا أمر لا يمكن إيقافه. لقد تم عزل الحضارات التقليدية التي حصلت لمدة طويلة على ثقة الإنسان، إما بموافقتها على الانسحاب أو بانغلاقها على نفسها، أو بضغط وقهر من المعبود الجديد الكاذب المسمّى بالحداثة.

يشاهد صراع الحضارة التقنية مع الحضارات الأخرى ومع الطبيعة من خلال هلاك البشر والأسماك بالكيمياء، وبالأمطار الحامضية، وبمرض «الايدز» نقص المناعة، وبجنون البقر، وبالقنابل الذرية والهيدروجينية، وبالتباكي على فجوات الأوزون فوقنا...

هذه هي المشاكل الواجب حلها، ومن العبث إضاعة الجهود في تحويل انتباه البشرية عن هذه المشاكل إلى منطقة تمنّي «صراع الحضارات».

فالله سبحانه وتعالى وحده يعلم ما ينتظرنا في القرن الواحد والعشرين!

(محاضرة ألقيت في أكاديمية العلوم والفنون بتونس، سبتمبر - أيلول ١٩٩٧م. نشرت في مجلة الحوار ١٩٩٧.)

أنس كاريتش

موجز السيرة والمؤلفات

ولد أنس كاريتش في ١٦ مايو من سنة ١٩٥٨م في فيشنيفو - مدينة ترافنيك - البوسنة والهرسك. أنهى دراسته الابتدائية سنة ١٩٧٣م في خان بيلا - ترافنيك ثم الدراسة الثانوية في مدرسة الغازي خسروبك الإسلامية سنة ١٩٧٨م وقد دامت الدراسة فيها آنئذ خمسة أعوام. التحق بعد ذلك وفي السنة نفسها بكلية العلوم السياسية وكلية الدراسات الإسلامية في سراييفو حيث تخرج من كلية الدراسات الإسلامية في سنة ١٩٨١م ومن كلية العلوم السياسية سنة ١٩٨٢م.

أما الدراسة لدرجة الماجستير فقد التحق من أجلها بكلية الآداب والفلسفة بجامعة سراييفو حيث كانت دراسته في مجال الفلسفة وقد نال درجة الماجستير سنة ١٩٨٦م بعد مناقشة الموضوع «العلاقة بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية في رسائل إخوان الصفا»، وأما درجة الدكتوراه فقد نالها ١٩٨٩م في كلية اللغات بجامعة بلغراد وكان موضوعها «المشاكل التفسيرية عند ترجمة معاني القرآن».

في سنة ١٩٨١م تم تعيينه مدرسا مساعدا في كلية الدراسات الإسلامية لمادة تفسير القرآن الكريم وفي السنة ١٩٨٦م عين محاضرا للمادة نفسها ثم في السنة ١٩٨٩م محاضرا مستقلا. وفي سنة ١٩٩١م أصبح أستاذا منتسبا للتفسير ثم في السنة ١٩٩٩م أصبح أستاذ كرسي في كلية الدراسات الإسلامية لمادة تفسير القرآن الكريم.

في الفترة من ١٩٧٦ إلى ١٩٧٧ كان أنس كاريتش رئيس هيئة التحرير لمجلة «زمزم» ثم في الفترة من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٠ رئيس هيئة التحرير لمجلة «الفكر الإسلامي» كما أنه كان في الفترات المختلفة عضوا في هيئة تحرير كل من: مقتطفات أعمال كلية الدراسات الإسلامية (**Zbornik Fakulteta islamskih nauka**) وصوت المسلمين (**Muslimanski glas**) والسوسن (**Ljiljan**).

ومنذ سنة ١٩٩٤م وحتى اليوم نشرت مقالاته ورسائله وترجماته من العربية والإنغليزية ومناقشاته العلمية ومقالاته النقدية في مختلف المجلات والصحف الصادرة في سراييفو وزاغرب وبلغراد من أمثال: الفكر الإسلامي (**Islamska misao**) والحوار (**Dijalog**) والحياة (**Život**) و العامل الثقافي (**Kulturni radnik**) والبحوث الفلسفية (**Filozofska istraživanja**) والثقافات الشرقية (**Kulture istoka**) وعلامات الزمان (**Znakovi vremena**) ومجلة البلاغ للمشيخة الإسلامية (**Glasnik VIS**) والتقويم (**Takvim**) والوجوه (**Lica**) والعبارة (**Izraz**) والمعلم

(**Muallim**) والتحرير (**Oslobođenje**) وصوت اليوم (**Dnevni Avaz**) وأرازموس (**Erazmus**) والحرف (**Slovo**) والخ.

وقد كانت له إقامات تخصصية في جامعة الأزهر الإسلامية وجامعة القاهرة ثم في جامعة يالي (Yale) في الولايات الأمريكية المتحدة والأكسفورد (Oxford) البريطانية كما أنه قضى النصف الصيفي من السنة الدراسية في جامعة سانتا بربارا (Santa Barbara-UCSB) الكاليفورنية وذلك متمتعا بمنحة فولبرايت (Fullbright). ومنذ السنة ١٩٩٠ هو عضو مجلس صندوق «الفرقان» الخاص بالحفاظ على التراث الإسلامي المتصل بالمخطوطات والذي أسسه أحمد زكي اليماني سنة ١٩٩١م في لندن وعضو مجلس مجلة «الدراسات الإسلامية الباكستانية» وعضو مجلس المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية (*American Journal of Social Sciences*) في هرندون.

في الفترة ما بين ١٩٩٤ و١٩٩٦م تولى البروفسور كاريتش منصب وزير التعليم والثقافة والرياضة في حكومة البوسنة والهرسك والتي ترأسها الدكتور حارس سلايجيتش كما شارك في كثير من المؤتمرات العلمية المخصصة للفلسفة والبحوث التفسيرية وتاريخ الكتب المقدسة ولا سيما القرآن الكريم وقضية العولمة وغيرها من القضايا المعاصرة الراهنة ومن أمثال المؤتمرات التي شارك فيها المؤتمر في تونس سنة ١٩٩٧م وباريس ١٩٩٧م ولايدن سنة ١٩٩٨م وهانوفر ٢٠٠٠م والرياض ٢٠٠١م وكمبريج ١٩٩٧م وتوكيو ١٩٩٩م وغراتز ٢٠٠٠م وغيرها. وإضافة لذلك فقد دعي البروفسور كاريتش لإلقاء المحاضرة

في المعهد المسمى Institut fur Religionswissenschaft an der Karl-Franzens-Universitat في مدينة غراتس النمساوية حيث تم اختيار دراسته بعنوان «الأهمية التاريخية والحضارية لتفسير القرآن الكريم لدى الصوفيين (The Significance of Sufism in the History of Islamic Civilization: Its place and Value in the Universal and Perennial Process of Spiritual Inquiry) للنشر في برامج يونسكو وسيتم نشرها ضمن الإصدارات الخاصة والمتعلقة بمختلف جوانب الثقافة الإسلامية، وأما رئيس هيئة تحرير هذه النشرة فهو البروفسور الدكتور أكمل الدين إحسانوغلو.

وقد ترجم البروفسور كاريتش عددا من مقالاته المخصصة عن الإسلام في أوروبا والتراث الثقافي الأوروإسلامي إلى اللغة العربية ونشرها في الصحف أوالمجلات العربية من أمثال «الشرق الأوسط» و«المجتمع». وفي مجلة «فيصل» والتي تصدر في الرياض نشر عدد من مقالاته التي تتناول الإسلام في أوروبا ولقاء الحضارات كما نشرت فيها كذلك الدراسة المخصصة لحياة وعمل العالم البوسني الكبير محمد خانجيتش.

وإضافة إلى ذلك فقد أجرى ونشر البروفسور كاريتش عشرات من المقابلات الصحفية مع مشاهير بروفسورات العلوم الإسلامية من أمثال سيد حسين نصر وآنماري شيمل وعبد الوهاب بوحديبة وعبد الحكيم مراد وغيرهم، كما نشرت له كذلك المقابلة الصحفية مع ملك المغرب حسن الثاني.

ويعمل البروفسور كاريتش أستاذ كرسي في كلية الدراسات الإسلامية في سراييفو وفي نفس الوقت هو رئيس اللجنة الإدارية لكلية الآداب والفلسفة في سراييفو وأستاذ مشارك في الدراسات العليا في كل من كلية الآداب والفلسفة وكلية الحقوق وكلية الدراسات الإسلامية. وإضافة إلى ذلك هو رئيس الهيئة التحريرية لحوليات مكتبة الغازي خسروبك الإسلامية في سراييفو. وفي السنة الدراسية ٢٠٠٢/٢٠٠٣م كان أستاذا محاضرا لمادة ثقافة الإسلام في جامعة ليوبليانا – جمهورية سلوفينيا. وفي الثاني من أكتوبر سنة ٢٠٠٣م عين عميدا لكلية الدراسات الإسلامية في سراييفو.

وفي صيف سنة ٢٠٠٢م تم اختياره عضوا فعالا للأكاديمية الملكية الأردنية «آل البيت».

وأما ما يهتم وينشغل به البروفسور كاريتش بصورة خاصة فهو تاريخ تفسير القرآن الكريم ومناهج تفسير القرآن الكريم وهو تخصصه الدقيق.

ومما نشر له في مجال التفسير والفلسفة الإسلامية والثقافة كتب تالية:

١) رسائل إخوان الصفا، من إصدارات المشيخة الإسلامية، سراييفو ١٩٨٦م. هذا الكتاب رسالته الماجستيرية ويتناول فيها رسائل إخوان الصفا – الرابطة الدينية والسياسية التي ظهرت في البصرة حوالي السنة ٩٥٠م. ويبحث فيه البروفسور كاريتش في تأثيرات التراث اليو ناني الفلسفي على الفكر الإسلامي الكلاسيكي ببغداد والبصرة والكوفة في القرن العاشر للميلاد. ومن الرسائل التي قدمها البروفسور كاريتش تلك التي تخص

علم الأرقام والهندسة وعلم الفلك والجغرافيا والموسيقا والمنطق ثم الرسائل التي تتناول مقولات أرسطو والتحليلات الأولى والتحليلات الثانية وعلم المعادن والأرصاد الجوية وعلم الأجنة وغيرها. ويتناول الكتاب أيضا مسألة المصطلحات الفلسفية ومسألة كتابة الألفاظ اليونانية الفلسفية عند العرب وإلخ. وباختصار فإن الكتاب يصف لنا طريقة تحقيق الحوار بين فلاسفة بغداد من القرن العاشر للميلاد وبين الفلسفة اليونانية من عهد بيتاجورا وسقراطس وأرسطو وبورفيريه...

٢) ترجمة معاني القرآن الكريم إلى البوسنية مع الملاحظات التعليقية والكلمة الختامية، من إصدارات دار «الكتاب البوسني» (Bosanska knjiga)، سراييفو ١٩٩٥م.

هذه الترجمة، والتي تشمل ١٣٣٩ صفحة، ثمرة اطلاع واسع للبروفسور كاريتش على المراجع وكتب التفسير الكلاسيكية والحديثة الإسلامية منها والغربية. وقد نشرت الترجمة مصحوبة بالنص العربي الأصلي في شكل صفحات متقابلة. وكلمة البروفسور كاريتش الختامية بعنوان «العالم القرآني» (Kur'anski univerzum) والتي نشرت كتعليق ختامي لترجمته هي مقولة شاملة تتناول مسألة مكان القرآن في روحانية الإسلام الكلاسيكية والحديثة، ومما أشير إليه ضمن هذه المقولة إشارة خاصة دور القرآن الكريم في العالم اليوم في التقاء الأديان والثقافات على مستوى المعمورة.

٣) كتاب التفسير (نشرة موسعة لكتاب «المدخل في علم التفسير»)، من إصدارات دار «الكتاب البوسني»

(Bosanska knjiga)، سراييفو ١٩٩٥م. وقد تم إصدار هذه النشرة الموسعة كتعليق إضافي لترجمة البروفسور كاريتش للقرآن الكريم.

٤) المدخل في علوم التفسير، من إصدارات كلية الدراسات الإسلامية، سراييفو ١٩٨٦م.

إن كتاب المدخل في علوم التفسير هو كتاب دراسي مخصص لمسائل تفسير القرآن الكريم ولا سيما المسائل التفسيرية في الفترة الكلاسيكية. وإضافة إلى وصف المسائل التي تناولتها النظرية الإسلامية الكلاسيكية لتلقي النصوص المقدسة فقد أتى المؤلف كذلك ببعض نظريات التفسير الأوروبية الحديثة والتي توصل إليها الأوروبيون من خلال التقائهم بالقرآن الكريم والذي استمر عدة قرون من الزمان.

٥) التفسيرات السياسية والإيديولوجية للقرآن والإسلام (مختار النصوص)، من إصدارات دار «العامل الثقافي» (Kulturni radnik)، زاغرب ١٩٩٠م.

هذا الكتاب مختار المقالات التي ترجمها البروفسور كاريتش من العربية والإنغليزية. وتتناول المقالات التفسيرات الإيديولوجية والسياسية الحديثة للنصوص المقدسة ولا سيما القرآن الكريم. ويتناول الكتاب أيضا القضايا النظرية لإيديولوجية النهضة والأصولية في البلاد الإسلامية التقليدية في سياق التقائهم بالمذاهب الحديثة. ويحتوي الكتاب كذلك على المقالات التي تبين بصورة منتقدة كيف تستخدم الحركات الإيديولوجية والسياسية في الشرق الأوسط نصوصها المقدسة في صراعها من أجل التفوق

العقلي والإيديولوجي والسياسي والثقافي والاقتصادي... أما مؤلفو المقالات فهم مشاهير البروفسورات من أمثال إيفون حداد وجون أسبوزيتو وعبد العزيز شاهين ومايقل فيشر وخورشيد أحمد وخالد إسحاق وغيرهم.

٦) تفسير القرآن، من إصدارات الاتحاد الكرواتي الفلسفي (Hrvatsko filozofsko drutvo)، زاغرب ١٩٩٠م.

إن كتاب «تفسير القرآن» هو أصلا رسالة الدكتوراه للبروفسور كاريتش والتي نوقشت في كلية اللغات بجامعة بلغراد سنة ١٩٨٩م. وقد لفتت الرسالة أنظار الاتحاد الكرواتي الفلسفي مما أدى إلى نشر الكتاب بشكل متكامل في مجلته المسمى «البحوث الفلسفية». ويتناول الكتاب «تفسير القرآن» المسائل والقضايا الكلاسيكية لتفسير القرآن الكريم مقربا هذه القضايا من القراء الذين يعرفون النظريات الحديثة للتفسير. ويبرهن البروفسور كاريتش عن طريق التحليل المقارن والمغاير بأنه قد نشأت في الشرق الإسلامي في الفترة ما بين السنة ٧٠٠ و١٤٠٠م نظريات عديدة لقبول النصوص المقدسة وأن الكثير منها قد أثر تأثيرا مباشرا في نظريات القبول الأوروبية. وفي بضعة أبواب من رسالته يخص كاريتش البحث لما نتج عن القراءات المختلفة للقرآن الكريم من النتائج المتصلة بالتفسير ومما قال كاريتش بهذا الخصوص: إن فهم الساميين لنصوصهم المقدسة يسبق قراءتهم إياها فيما أن أغلبية الشعوب الهندوأوروبية يقرؤون نصوصهم المقدسة وبعد ذلك يفهمونها. وقد بين المؤلف في هذه الرسالة أن نظريات السادة من أمثال غادامر وماسينون ولومان ودي سوسير والتي تخص الكلام واللغة والنصوص لها أنداد نظرية مناسبة في الشرق الإسلامي.

٧) القرآن في العصر الحديث (مختار المقالات)، من إصدارات دار «سويتلوست»، سراييفو ١٩٩١م. يتبين من خلال هذه المقالات والتي ألفها المسلمون وغير المسلمين تشعب واختلاف طرق تناول القرآن الكريم في العصر الحديث. وقد أورد البروفسور كاريتش ضمن هذا المختار مقالات الباحثين في القرآن الكريم من الأوروبيين والأمريكان والذين تختص تفاسيرهم للنصوص القرآنية بمجال التصوف والتحليلات اللغوية والتقليدية والعقلانية وغيرها. وقد كان هذا المختار للبروفسور كاريتش أول مختار شامل نشر بعد المؤلفات المشهورة للبروفسور نركز سماعيلاغيتش. وأما التفسيرات السياسية والإيديولوجية للنصوص القرآنية فقد ظهرت كنوع من «نظريات التحرر» للشعوب المسلمة من الاستعمار.

٨) تفسير القرآن وإيديولوجيات القرن العشرين، من إصدارات دار «بيموست» (Bemust)، سراييفو ٢٠٠٢م.

يتألف الكتاب مما يقرب من ٦٥٠ صفحة. وقد أورد فيه البروفسور كاريتش مقالات بخصوص تفسير القرآن الكريم ترجمها من العربية. وممن ألفوا هذه المقالات محمد عبده ورشيد رضا وسيد قطب وأبو العلا المودودي وحسن البنا ومحمود شلتوت وغيرهم من المفسرين المعاصرين.

٩) حقوق الإنسان في سياق الصراع بين الإسلام والغرب، من إصدارات «مركز الحقوق» (Pravni centar)، سراييفو ١٩٩٦م.

هذا المختار عبارة عن المقالات التي ترجمها وقدمها للقراء البروفسور كاريتش. وتتناول المقالات حقوق الإنسان والمناقشة حولها الجارية بين بعض الدوائر الغربية والإسلامية.

١٠) إخوان الصفا، المناقشة بين الحيوان والإنسان (ترجمها من العربية وكتب لها المقدمة)، من إصدارات دار «القلم»، سراييفو ١٩٩١م.

هذه المناقشة رسالة واسعة من رسائل إخوان الصفا، يقول كاريتش في مقدمة الكتاب: «كتبت هذه المناقشة قبل ألف سنة من الزمان وهي نموذج مميز للحديث الفلسفي آنذاك عن الكوزمولوجيا والأنثروبولوجيا ولا سيما فيما يخص مواضيع التخلف البدني للإنسان نسبة إلى بدن الحيوان والنماذج الأصلية للفصائل والأجناس والتطور والانحطاط الروحي والخ. وقد قدرت المناقشة في الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين بتقديرين أو لهما بأنها قد سبقت داروين في نظرية التطور (Fr. Dieterici, *Die Philosophie der Araber im X. Jahrhundert, II:Die Naturschauung und Naturphilosophie der Araber im zehnten Jahrhundert aus den Schriften der Lauteren Bruder, Der Darwinismus im X. und XI. Jahrhundert*, Leipzig-Berlin, 1858-1891.) والثاني بأنها تمثل نقض الداروينية قبل نشأتها بقرون. وفي القرنين التاسع عشر والعشرين ترجمت المناقشة إلى الألمانية والإنغليزية والروسية.

١١) الأصولية الإسلامية – ما هي؟ (مختار المقالات التي أعدها كاريتش للإصدار بالتعاون مع نصرت تشانتشار)، من إصدارات المشيخة الإسلامية، سراييفو ١٩٩٠م. انعقدت خلال سنة ١٩٩٠م في كلية الدراسات الإسلامية في سراييفو ندوة

بعنوان الأصولية الإسلامية – ما هي؟ وفي الكتاب، والذي له العنوان نفسه، مختار المقالات والمناقشات للمشاركين في الندوة.

١٢) القرآن في الإسلام للطبطبائي (ترجمه من العربية بالتعاون مع نصرت تشانتشار)، من إصدارات قسم الثقافة لسفارة جمهورية إيران الإسلامية، بلغراد ١٩٩١م.

إن كتاب «القرآن في الإسلام» هو نموذج للمناقشة الشيعية الباطنية الحديثة حول القرآن الكريم. إن الطبطباعي فيلسوف إيراني تقليدي كتب في القرن العشرين تفسيرا باطنيا كبيرا للقرآن الكريم وسماه «الميزان»، وهذا الكتاب للبروفسور كاريتش عرض موجز لذلك التفسير الشامل.

١٣) سيد حسين نصر، اللقاء بين الإنسان والطبيعة (ترجمة من الإنغليزية)، من إصدارات دار «سويتلوست» (Svjetlost)، سراييفو ١٩٩٦م، الطبعة الثانية دار «القلم» ٢٠٠١م.

هذا الكتاب للدكتور نصر والذي يحمل العنوان الأصلي في الإنغليزية *The Encounter of Man and Nature, The Spiritual Crisis of the Modern Man* (Alen & Unwin, London, 1968.) هو مختار محاضراته التي ألقاها في جامعة شيكاغو خلال شهر مايو من السنة ١٩٦٦م كسلسلة مما يسمى بمحاضرات روكفلير. وقد عرض الدكتور نصر (وهو يعمل حاليا أستاذا كرسيا في جامعة جورج واشنطون في واشنطون) في هذا الكتاب أسباب الكارثة البيئية التي تصيب العالم، وذلك من وجهة نظر الفلسفة. إن شعار هذا الكتاب هو: إن لم يصالح الإنسان السماء فلن يصالح الأرض.

١٤) عبد الوهاب بو حديبة، الجنسانية في الإسلام، **Sexuality in Islam** (الترجمة من الإنغليزية بالتعاون مع رشيد حافظوفيتش)، من إصدارات دار «ليليان»، ١٩٩٤م.

إن كتاب الجنسانية في الإسلام لعبد الوهاب بوحديبة، وهو رئيس أكاديمية العلوم والفنون في تونس، عبارة عن الرسالة الدكتورية لمؤلفه والتي نوقشت بجامعة سربون في باريس. والكتاب مناقشة فلسفية تتناول مسألة الجسد في الإسلام وثقافة الجنس في الحضارة الإسلامية. وقد لقيت هذه الترجمة إقبالا واسعا لدى القراء في البوسنة والهرسك وكرواتيا وسلوفينيا.

١٥) الغزالي، مشكاة الأنوار (ترجمة من العربية)، من إصدارات المشيخة الإسلامية في زاغرب ١٩٩٥م.

الكتاب مناقشة باطنية عن الأنوار وهو في أصله تفسير للآيات القرآنية التي تتناول الأنوار. وقد ترجمت هذه المناقشة للغزالي إلى الإنغليزية والفرانسية والألمانية والروسية والإيطالية والأسبانية، وبالترجمة التي قام بها البروفسور كاريتش انضمت اللغة البوسنية إلى اللغات الأوروبية التي تقرأ بها هذه المناقشة الممتازة.

١٦) الغزالي، الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، (ترجمة من العربية)، من إصدارات دار «ليليان»، سراييفو ١٩٩٤م، الطبعة الثانية دار«ليليان»، سراييفو ٢٠٠١م.

هذا الكتاب للغزالي مناقشة تخص النواميس الكونية وتكمن قيمتها الخاصة في أنها تمثل وصف وتفسير السماء الحقيقية والسماء الروحانية التي عاش فيها فلاسفة الإسلام الكلاسيكيون.

ومما تتطرق إليه هذه المناقشة بصورة خاصة السماء والأرض بكونهما مصدرا للجمال ثم المتعة الجمالية التي يشهدها الإنسان وهو ينظر إلي «أعماق زرقة السماء». وقد لقي الكتاب إقبالا جيدا لدى القراء في البوسنة والهرسك.

١٧) توشيهيكو إيزوتسو، التصوف والتاؤوئية (الترجمة من الإنغليزية بالتعاون مع رشيد حافظوفيتش)، من إصدارات دار «لوغس»، سراييفو ١٩٩٥م.

كان توشيهيكو إيزوتسو أستاذا للدراسات الإسلامية في جامعة مك غيل بكنادا Mc Gillu (Montreal, Kanada) وقد كتب هذا الكتاب أثناء إقامته في الشرق الإسلامي، وخاصة في طهران، والتي استمرت ما يقرب من عشرين سنة من الزمان. وبتقديرات العارفين لهذا الموضوع فإن كتاب التصوف والتاؤوئية أحسن تحليل مقارن للعقيدتين كتب باللغة الأنغليزية. إن الموضوع المركزي للكتاب هو الإنسان أو بالأحرى هي الأنثروبولوجيا الخاصة بالتاريخ الأولي كما يفسرها كل من التصوف والتاؤوئية. ويحتوي الكتاب أيضا على ما يزيد عن ثلاثمائة مقتطف طويل من أقوال كبار المتصوفين القدامى من أمثال ابن العربي والتاؤوئيين من أمثال لاو تسو وشوانغ تسو وغيرهم.

١٨) كنود هولمبوا، اللقاء في الصحراء (ترجمة من الإنغليزية)، من إصدارات دار «بيموست»، سراييفو ١٩٩٦م.

هذا كتاب رحلة في إفريقيا الشمالية وقد كتبه كنود هولمبوا في السنة ١٩٣٠م. ويتناول الكتاب كفاح عمر المختار ضد المستعمرين.

١٩) البوسنة والهرسك بلد الحزن والنسيان (مجموعة مقالات)، من إصدارات دار «دوريوكس» (Durieux)، زاغرب ١٩٩٧م.

كتبت هذه المقالات في الفترة ما بين ١٩٨٨ و١٩٩٧م وتتناول بعض جوانب الروحانية في البوسنة والهرسك واللقاء بين العوالم الدينية المسيحية واليهودية والإسلامية. ومن عناوين المقالات: «البوسنة كقاعة انتظار مزدوجة» و«الغرب لا بد له من الشرق والشرق لا بد له من الغرب»... وقد ترجم بعض هذه المقالات إلى الألمانية والإنغليزية.

٢٠) القرآن في العصر الحديث - الجزء الأول والثاني (مختار المقالات)، من إصدارات «المركز البوسني الثقافي» و دار «القلم»، سراييفو ١٩٩٨م.

يتناول هذا الكتاب الواسع النظريات الحديثة عن القرآن الكريم المسلمة منها وغير المسلمة ويتبين منه بيانا واضحا بأن لنا اليوم قراءات وتفسيرات مختلفة للقرآن الكريم من التقليدية إلى العقلانية والإحيائية والأصولية والإبداعية والصوفية والوجودية والتطورية والإيديولوجية والعلمية. والمقالات التي اختارها البروفسور كاريتش تكشف عن قصده بأن يعرض على القراء كثرة وتشعب تفسيرات القرآن الكريم الموجودة اليوم والتي كثيرا ما تتناقض فيما بينها. ومن مؤلفي المقالات الواردة في هذا الكتاب سيد حسين نصر وجين دامين ماك أولف وجون أسبوزيتو وإيفون حداد وكثيرون من غيرهم.

٢١) معاني القرآن الكريم (مختار المقالات)، من إصدارات «بيموست»، سراييفو ١٩٩٩م.

للكتاب ٧٣٦ صفحة. وفي الغالب تتناول المقالات المختارة مسألة النظر القرآني للعالم (*Weltanschauung*) والذي ينبع من لغة القرآن الكريم. وقد اختار البروفسور كاريتش من المقالات ما ينظر إلى لغة القرآن من وجهة نظر علم اللغة والذي أسسه في أوروبا فرديناند دي سوسير وفان هومبولت وغيرهم ممن يعدون اليوم من قدامى اللغويين وأصحاب الفلسفة اللغوية التحليلية. ويعتمد كاريتش بشكل خاص على كتاب *God and Man in the Qur'an* لتوشيهيكو إيزوتسو والذي يتناول العبارات الأساسية (key terms) في القرآن الكريم من وجهة نظر الدراسة المعانية. والغرض الأولي من هذا الكتاب العرض العام للدراسات التركيبية الحديثة عن القرآن، أي عن الكلام القرآني واللغة القرآنية وأخيرا عن القرآن كنص مقدس. ومما يتناوله هذا الكتاب بصورة عابرة مسائل تعدد المعاني والترادف والتضاعف في القرآن. ومما ورد فه أيضا دراسات تتناول تاريخ وضع القواميس العربية الكلاسيكية.

٢٢) مقالات عن البوسنة، من إصدارات دار «سيطري»، سراييفو ١٩٩٩م.

كتب كاريتش هذه المقالات في الفترة ما بين ١٩٩٦ و١٩٩٩م وتتناول المركبات الروحية للبوسنة والهرسك.

٢٣) الشريعة الإسلامية في المجتمعات الحديثة (أخرجها بالتعاون مع فكرت كارتشيتش)، من إصدارات «مركز الحقوق»، سراييفو ١٩٩٨م.

هذا كتاب المقالات المختارة المترجمة من العربية والإنغليزية التي تتناول التفسيرات الشرعية الحديثة للقرآن والشريعة

الإسلامية. للكتاب ٣٥٧ صفحة عولجت فيها تحولات معاصرة للتفسير الشرعي للقرآن الكريم ونتائج تلك التحولات في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

٢٤) روبرت إيرفين، كتاب ألف ليلة وليلة في الغرب، من إصدارات دار «ليليان»، سراييفو ١٩٩٩م.

إن روبرت إيرفين أستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد ومحاضر التاريخ القروسطي بجامعة سنت آندريوس، وقد كتب هذا الكتاب لغرض الإشارة إلى كثرة عدد الحكايات الأوروبية المدينة لكتاب ألف ليلة وليلة. وللترجمة البوسنية لهذا الكتاب ٥٠٧ صفحة.

٢٥) مقالات عن البوسنة، من إصدارات دار «القلم»، سراييفو ٢٠٠٠م.

هذا الكتاب، وهو باللغة الإنغليزية، مختار من كتابين من المقالات وتتناول المركبات الروحانية والدينية للبوسنة والهرسك مع الالتفات الخاص إلى الإسلام.

٢٦) الغرب والإسلام نحو الحوار، مختار المحاضرات التي أخرجه أكمل الدين إحسانوغلو (الترجمة من الإنغليزية أنس كاريتش وأحمد عليباشيتش)، من إصدارات دار «القلم»، سراييفو ٢٠٠١م.

وقد ألقيت المحاضرات في المركز الإسطنبولي للبحث في تاريخ الإسلام وثقافته وحضارته بموضوع «العلاقات بين الإسلام والغرب». وممن شاركوا في إلقاء المحاضرات هيلاري كلنتون وهايو

فونكي ومراد هوفمان وإنغمار كارلسون وبسام تيبي وغيرهم. وقد وضع الكتاب «الغرب والإسلام نحو الحوار» كاعتراض على رأي ساميوئل هانتينغتون حول الصراع بين الحضارات.

٢٧) برنار لوئيس، حضارات في النزاع، من إصدارات دار «ليليان»، سراييفو ٢٠٠٢م.

ترجم كار يتش هذا الكتاب من الإنغليزية وعنوانه Cultures in Conflict.

٢٨) دور المستشرقين الصرب في تبرير الإبادة بحق مسلمي البلقان، من إصدارات معهد البحوث في الجرائم ضد الإنسانية والحقوق الدولية، سراييفو ٢٠٠٠م.

إن مؤلف هذا الكتاب هو نورمان سيغار وعنوانه بالإنغليزية The Role of Serbian orientalists in Justification of Genocide against Muslims of the Balkans، وقد ترجمه كاريتش إلى البوسنية بالتعاون مع أحمد عليباشيتش.

٢٩) أبو حامد الغزالي، نصيحة الملوك، من إصدارات دار «القلم»، سراييفو ٢٠٠١م.

ترجم كاريتش هذا الكتاب من العربية وعنوانه الأصلي «التبر المسبوك في نصيحة الملوك». ويتناول الكتاب نظرية الغزالي للدولة والتحكم فيها.

٣٠) ماليس راتوين، الإسلام (ترجمة من الإنغليزية)، من إصدارات دار «شاهنباشيتش»، سراييفو ٢٠٠٢م. وظهر الكتاب

بالإنغليزية بإصدار جامعة أكسفورد Oxford University Press في إطار المكتبة Very Short Introduction.

٣١) مختار أعمال محمد خانجيتش في ستة مجلدات، من إصدارات دار «أوغلدالو»، سراييفو ٢٠٠٠م.

أخرج كاريتش هذا الكتاب الثمين بالتعاون مع البروفسور أسعد دوراكوفيتش. وقد نشرت في المجلد الرابع دراسة واسعة لكاريتش عن محمد خانجيتش.

٣٢) الرئيس جمال الدين شاوشفيتش - معلما ومصلحا، أصدرته دار «ليليان» في مجلدين، وقد أخرجه كاريتش بالتعاون مع البروفسور مويو دميروفيتش.

٣٣) مسألة البوشناق، من إصدارات دار «غلوبوس»، زاغرب ٢٠٠٢م.

ألف كاريتش هذا الكتاب بالتعاون مع البروفسور الدكتور شاكر فيلاندرا، ويتناول الكتاب حياة وأعمال السيد عادل بك ذوالفكارباشيتش وهو عالم وسياسي بوسني مرموق.

٣٤) المناقشات البوسنية المسلمة (في سبعة مجلدات)، من إصدارات دار «سدام»، سراييفو ٢٠٠٣م.

جمع كاريتش في هذه الكتب السبعة أهم المناقشات التي كتبها المسلمون البوسنيون باللغة البوسنية في الفترة ما بين السنة ١٨٩٠ و ١٩٣٧م بمواضيع التقدم وتجديد المؤسسات الإسلامية ومسألة بقاء المسلمين في أوروبا والخ.

(ومما أخرجه كاريتش وأعده للنشر كذلك ترجمة القرآن الكريم لميتشو ليوبيبراتيتش والترجمة الأخرى لعلي رضا قرابك وقد كتب لكلتي الترجمتين مقدمة واسعة.)

وفيما يلي بعض ما نشر له من المقالات باللغة الإنغليزية والألمانية:

١) The Land of Unexhaustible Inspiration, In: Rabia Ali and Lawrence Lifschultz, Why Bosnia? Writings on the Balkan War, Connecticut (Stony Creek), 1995. pp. 122-125. نشرت هذه المقالة أولا باللغة البوسنية وذلك بعنوان «بلد إلهام لا ينفد»، وتتناول البوسنة في فترة الحصار ١٩٩٢ إلى ١٩٩٥م.

٢) The Interpretation of the Qur'an and the Destiny of the Islamic World, In: *Islamic Studies,* (Islamabad, Pakistan), Vol. 36 No. I, 1997., pp. 5-19. تنتقد هذه الدراسة النزعات الأصولية والإحيائية الحديثة في تفسير القرآن والإسلام، وقد جاء النقد فيه منطلقا من التفسير الكلاسيكي للقرآن، أي منطلقا من أن القرآن «نص منفتح» تبنى عليه «حضارة منفتحة». ومما تتناوله الدراسة كذلك القدرات الامتصاصية والاندماجية للفترة الإسلامية الكلاسيكية والميول الانخفاضية للحركات الأصولية الحديثة لدى المسلمين.

٣) Nasr: Thinker of the Sacred, In: The Philosophy of Seyyed Hossein Nasr, The Library of Living Philosophers (Volume XXVIII), Chicago, 2001. تتناول هذه المقالة فلسفة المقدس في أعمال الفيلسوف المعاصر سيد حسين نصر. وقد نشرت المقالة أولا باللغة البوسنية ككلمة ختامية لترجمة كتاب نصر «اللقاء بين الإنسان والطبيعة» والذي ظهر بإصدار دار «سويتلوست» سنة ١٩٩٢م (الصفحة ١٣٥- ١٤٣). هذه المقالة تقدم للجماهير سيد حسين نصر ويبرز ميله إلى الحوار فيما بين الفلسفات القديمة ولا سيما بما يسمى *philosophia perennis* و*sophia perennis*.

٤) Die Klassische und zeitgennosische Hermeneutik des Korans im Licht neuerer rezeptionstheorien, In: Synthesis Philosophia, Vol. 4. Fasc. I، من إصدارات الرابطة الكرواتية الفلسفية «البحوث الفلسفية»، زاغرب ١٩٨٩م.

هذه الدراسة ترجمتها إلى اللغة الألمانية سلفيا سلاديتش، ومما تتناوله الدراسة المقارنة بين التفسيرات القديمة والتفسيرات الحديثة للقرآن الكريم على ضوء النظريات الجديدة للقبول.

٥) Islam in Contemporary Bosnia, In: Islamic Studies, Vol. 36., No. 3., 1997, pp. 477 - 482. يتكلم كاريتش في هذه المناقشة عن التركيبة الإسلامية الحضارية للبوسنة والهرسك مع الالتفات الخاص إلى

الحداثة. ومما تشير إليه هذه المقالة أن البوسنة عبر التاريخ لم تكن قط بلد ديانة واحدة وأنه لا بد عند المناقشة حول مستقبل البوسنة والهرسك من الأخذ في عين الاعتبار تعدد الثقافات فيها.

٦) In Europe there are no indigenous and imported religions, In: Islamic Studies, Vol. 37, No. 1, 1998. pp. 117 - 123 . هذه المقالة محاضرة ألقاها كاريتش بمعهد Fitzwilliam في كمبريج سنة ١٩٩٧م. وتتناول المناقشة القارة الأوروبية كأنها «مستعمرة دينية» إذ أن كل الديانات الموجودة فيها قد أتتها من الشرق. ينكر كاريتش ضمن هذه المناقشة النظرية التي تقول بأن أوروبا قارة مخصصة للمسيحيين ويقول بأنه يجب اليوم ترويج نظرية جديدة حول التقدم والتعايش بين الشعوب والأديان في الشرق وفي الغرب على السواء.

٧) Das Todesgeschaft, In: Dunja Melčić, Das Wort im Krieg, Frankfurst a/M, 1995., pp. 159 - 160. هذه قصة قصيرة عن الموت ترجمتها إلى الألمانية دونيا ملتشيتش.

٨) Responsibility of Mind and Irresponsibility of Modern Science, In: Le rationnel et l'irretionnel, Carthage, Tunis, 2000. هذه محاضرة ألقاها كاريتش في أكاديمية العلوم والفنون التونسية في الندوة المنعقدة فيما بين ١٠ و١٥ نوفمبر سنة ١٩٩٧م بموضوع *Le rationnel et l'irrationnel*. وتتناول المقالة

مسألة عدم المسؤولية عن تطبيق «منجزات العلم». والكلمة التي فصلت في المقالة تفصيلا دقيقا هي «العقل غير المسؤول».

٩) Qira'at and the Translation of the Qur'an, In: Persidangan Penterjemahan Antarabangsa Ke-7 (7th International Conference on Translation), Kuala Lumpur, Malaysia, 1999. تتناول المناقشة ظاهرة تعدد قراءات القرآن الكريم واستحالة ترجمة معاني القرآن بكافة أنواع القراءات في آن واحد.

١٠) The Businnes of Death, In: *Suitcase (A Journal of Transcultural Traffic),* No. 3, Los Angeles, 1998., p. 291. ترجمة إنغليزية للقصة القصيرة عن الموت.

١١) Moral Tuition and Education, In: *Sophia,* Vol. 7, No. 1, Summer 2001., Oakton (USA), pp. 109 - 116. هذه المناقشة مخصصة لنظريات التعليم والتربية المعاصرة. ويسعى كاريتش في هذه المقالة إلى الجمع المناسب والعمل المشترك لما سماه «التعليم المؤدب» و«التأديب المثقف» في المدارس اليوم.

المحتوى

كلمة عن الألف ٥
الأرض للأرض ٩
قبض الأرواح ١١
اتهام الإنسان ١٣
بم يخرج الإنسان أمام الله عز وجل عام الألفين ١٩
جمال الموت ٢٥
بلاد إلهامات لا تنضب..... ٣٣
صور الإعدام العلني لسراييفو ٣٩
كيف نسيت الموسوعة البريطانية الإبادة
بحق مسلمي البوسنة في طبعتها الجديدة؟ ٤٥
هل في أوروبا ديانات وطنية وأخرى دخيلة؟ ٥٥
هل «الإسلام الأوروبي» أمر مثالي غير قابل للتطبيق،
أم أنه فرصة واقعية للإسلام ولأوروبا؟ ٦٣
الحوار الفلسفي بين الأديان بدلاً من صراع الحضارات ٨١
الإسلام في البوسنة المعاصرة ١٠١
المسلمون في البلقان ١١١
الصراعات العرقية في البلقان ١١٧
مولد إسطورة كوسوفو والصراعات العرقية في البلقان ١٢٧

دور المستشرقين الصرب في تبرير الإبادة
بحق المسلمين في البلقان ١٤١
مخاوف مسلمي البلقان..... ١٦٣
أيركض مسلمو أوربة البلقانيون الدورة الأخيرة؟ ١٧١
على ضوء الجدل الحاصل بخصوص تسليم مجرمي
الحرب الصرب لمحكمة لاهاي ١٨١
كوسوفو وديمقراطية يوغسلافيا والبلقان..... ٢٠١
المؤثرات الثقافية العربية في البلقان ٢١١
كلمة أخيرة عن البلقان ٢٣٣
في مكتبات ومحلات بيع الكتب في المملكة العربية السعودية... ٢٤٥
تفسير القرآن الكريم ومصير العالم الإسلامي ٢٥٣
الأهمية الحضارية التأريخية للتفسير الصوفي للقرآن الكريم ... ٢٧٧
مسوؤلية العقل واللامسوؤلية
لدى المفكرين المعاصرين ٢٨٩
أنس كاريتش - موجز السيرة والمؤلفات ٣٠٩